مباحث في

إعجاز القرآن الكريم

تأليف

الدكتور / أحمد جمال العمري

١٩٨٢

الناشر

مكتبة الشباب

٢٦ شارع اسماعيل سري - بالمنيره

ت ٣١٨٣٥

مباحث في إعجاز القرآن

تأليف

الدكتور/ أحمد جمال العمري

الناشر
مكتبة الشباب
٢٦ شارع اسماعيل صبري - بالمنيرة
ت ٣١٨٢٥

الإهـــداء

إلى ولدى . . . . محمـــد

بسم الله الرحمن الرحيم

« سبحانك ربنا لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » .

« ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » .

« ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » .

مقدمة

الحمد لله .. الرحيم الرحمن ، خلق الإنسان علمه البيان ، وميزه على سائر مخلوقاته بالعقل واللسان ، وأضاء بصائره وأبصاره بنور القرآن .

أحمده سبحانه ، جلت حكمته ، وعظمت مشيئته ، له فى كل مجال آية ، وفى كل خلق حكمة تشهد بعظمته الباهرة ، وقدرته القاهرة .

والصلاة والسلام على من لا نبى بعده ، إمام المتقين ، أفصح الناطقين وأبلغ المتكلمين ، الذى شرفه الله بالقرآن .. محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان .. وبعد :

فالقرآن كلام الله المعجز للخلق فى بلاغته وأسلوبه ونظمه ، المعجز فى تأثير هدايته ، المعجز فى تشريعاته ، المعجز فى علومه وحكمه ، المعجز فى كشف الحجب عن الغيوب الماضية .. وفى كل باب من هذه الأبواب للاعجاز فصول ، وفى كل فصل منها فروع ترجع إلى أصول .. ولقد حار العلماء فى كشف حجب البيان عن وجوه إعجاز القرآن وتفرقت بهم السبل ولكن وقف غالبيتهم عند أسلوبه المعجز ولفظه الموجز ، حيث أعيت بلاغته البلغاء ، وأعجزت حكمته الحكماء ، وأبكمت فصاحته الفصحاء .. وقفت مع القرآن العظيم أمام المباحث البلاغية ، أحللها وأتأمل عمق معانيها ، ودقيق عناصرها ، محاولا تلمس ما فيها من إعجاز وجمال .. وإبراز ما فيها من إبداع وروعة ..

لكن هذه « المباحث البلاغية » لم تكن لتحجب وجوه الإعجاز الأخرى ،

التي كانت تنطق بعظمة الحق سبحانه ، وتعترف بقدرته القاهرة وعظمته الباهرة :

فوقفت أتأمل وأبحث في بعض القضايا الكبرى التي تهم الفكر الإنساني عامة ، وتخاطب العقول والقلوب بأوفى ما يمكن أن يخاطب به بشر .

وقفت أتأمل الإعجاز في مجال التشريع .. وفي مجال الأخلاق . وتمعنت في الإعجاز القرآني .. عندما حث على إعمال العقل .. وعندما وضع أسس التربية .. تربية الإنسان .. وتوجيهه وتقويمه .. وعندما وضع تربية روحه من أجل صلاحه وفلاحه ونجاحه ، وعند ما حدد له الوسائل التي تريح نفسه ، وتزيل عنه مخاوف الحياة .

لقد وقفت أتأمل الإعجاز التشريعي والأخلاقي والتربوي للقرآن العظيم . كل ذلك لإبراز القيم الإسلامية الصحيحة ، التي وضع دعائمها الحق وتبارك وتعالى بين ثنايا كتابه العظيم .

ووقفت أيضاً أمام بعض العناصر القرآنية التي اشتمل عليها القرآن العظيم .. وقفت أتأمل في تصويرات القرآن .. وأتسمع لإيقاعاته الصوتية ، وأنصت لحركة الفواصل القرآنية .. وأتمعن في قصصه وأمثاله الربانية .. فوجدت آيات وسعت كل شيء وشملت كل علم وفن ، ذلك أن الحق تبارك وتعالى جعل كتابه العظيم آية بينة على القدرة الإلهية ، والعظمة البيانية ، فجاءت هذه المباحث آية أخرى تضاف إلى الآيات السابقة التي تشهد بقدرة الخالق البارىء وعظمته ، وتسبح بحمده بكرة وأصيلا ، كل هذه الأمور فرضت على أن أجعل هذا البحث في ثلاثة أبواب مترابطة .. يجمعها موضوع

الإعجاز وآياته .. خصصت الباب الأول لدراسة القضايا الكلية .. التي تهم الإنسانية جمعاء ، والتي من أجلها أرسل الحق تعالى نبيه بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله .. ومصداقا لقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

فتحدثت عن الإعجاز القرآني في مجال التشريع الإسلامي ..

ثم الإعجاز في مجال الأخلاق الإسلامية .

ثم الإعجاز في مجال إعمال العقل .. وكدّ الفكر من أجل الوصول إلى الحقائق الكلية وتحدثت كذلك عن الإعجاز في مجال التربية .. تربية الإنسان .. وتوجيهه وتقويمه .. ومعاملاته .. وأخيراً تحدثت عن قضية الإيمان بالغيب .

وجعلت الباب الثاني في دراسة أهم الموضوعات القرآنية التي تتصل بالقرآن المجيد .

— فتحدثت عن الوحي .. والليلة المباركة التي نزل فيها .

— وتحدثت عن المناسبة بين سور القرآن وآياته .

— وتحدثت عن فواتح السور القرآنية . وفندت الآراء التي قيلت حولها :

— ثم تحدثت عن الإيقاع الصوتي والتناسق الفني في القرآن العظيم .

ثم تناولت بالدراسة الكلمة القرآنية والقصة القرآنية .. والأمثال القرآنية والفواصل القرآنية .. وأخيراً درست الصورة القرآنية .

وخصصت الباب الثالث لدراسة بعض الموضوعات والأساليب البلاغية التي وقف أمامها العلماء .. وجعلوها أهم وجه من وجوه الإعجاز القرآني ..

وهو ما ذكروه تحت باب « البلاغة » كما فعل الرمانى .. فى رسالته « النكت فى إعجاز القرآن » .

وكما حدد الجرجانى .. فى كتبه البلاغية : « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » و « ورسالته الشافية » .

تحدثت فى هذا الباب عن الإيجاز، والتكرار، والتجانس، وإئتلاف اللفظ مع المعنى ، والإيضاح بعد الإبهام ، والتكميل والتتميم ، والمطابقة والمقابلة .

كما تحدثت عن مجموعة من الأساليب القرآنية .. كأسلوب القسم . وأسلوب التوهيم ، وأسلوب الإلتفات ، وأسلوب التوكيد ، وأسلوب المبالغة ، وأسلوب الرمز ، وأسلوب الاستخبار .

وبعد فهذه مباحث فى إعجاز القرآن العظيم ، تدور حول القرآن وقضاياه وأساليبه البلاغية .. أردت أن أوضح من ورائها بعض ما ينطوى عليه كتاب ربنا من روعة البيان ، ومدى تأثيره فى النفس البشرية .. والحياة الإنسانية .

لقد جعل الحق سبحانه مفاهيم إعجاز قرآنه العظيم فى كلمات .. وجعل هذه الكلمات آيات معجزات ، فحيث نظر ناظر فى كتاب الله ، بقلب سليم ، وعقل واع ، ونفس مجتمعه .. وجد وراء كل آية — من الكتاب العزيز — معجزة نيرة ، تغمر بنورها الآفاق كلها من حوله ، فلا يرى إلا نوراً علوياً يشرح صدره للحق ، ويفتح قلبه للايمان .. « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

« وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا »

فسبحان الله العلى القدير ، والحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .
وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين المبعوث بدين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

والله أسأل أن يلهمنا الصواب فى القول ، والإخلاص فى العمل ، فهو حسبي وهو نعم الوكيل .

د . أحمد جمال العمري

الباب الأول

مباحث فى مناهج القرآن

١ - فى التشريع .

٢ - فى الأخلاق .

٣ - فى مخاطبة العقل .

٤ - فى تربية الإنسان .

٥ - فى تربية الروح .

٦ - فى معاملة النفس .

٧ - فى تقويم الإنسان .

٨ - فى الإيمان بالغيب .

١ – إعجاز فى مجال التشريع

سيظل لدستورنا التشريعى العظيم .. القرآن الكريم ، الجلال والرفعة على مر الأزمان والأجيال . بالرغم من تحديات النظريات والمذاهب ، والنظم والتشريعات التى يضعها البشر من أجل سعادة الإنسان والمجتمع .

سيظل للقرآن العظيم مكانته وجلاله وإعجازه ، ولن يبلغ واحد من هذه المذاهب أو النظم مبلغه فى إعجازه التشريعى من أجل سعادة البشرية جمعاء .

● إن القرآن مصدر الشريعة الإسلامية السمحة ، وهو دستورها القائم أبد الدهر .. لقد استغنى به المسلمون فى الصدر الأول للاسلام فأغناهم عن كل شىء .. لا يمدون أبصارهم إلى غيره ، ولا يأخذون لدينهم ودنياهم إلا بما توحى به إليهم كلماته ، وتومىء به إليهم آياته . ولا يستقيم هذا القول الذى نقوله – بأن القرآن هو مصدر التشريع الإسلامى .. ألا بفهم صحيح سليم لكتاب الله .

ولا يكون هذا الفهم الصحيح السليم إلا عن طول تدبر لكتاب الله ، ووقوف على أسرار إعجازه ، وبهذا الفهم الكتاب الله يتحقق لنا أمران :

أولهما : تصوير مسائل الدين تصويراً واضحاً دقيقاً محدداً ، وبهذا يعرف المسلم الحكم قاطعاً فيما أحلّ الله وما حرّم .

وثانيهما : جعل مسائل الدين واقعة فى مفهوم المسلمين ، واضحة فى تصورهم ، وإن لم يكن ذلك لهم جميعاً فللجمهرة العظمى فيهم ، حيث نعرض مسائل الدين فى كلمات يسيرة مفهومة لا تتجاوز آية كريمة من آيات الله .. وبهذا يتصل المسلم بدينه اتصالا مباشراً .

لقد نظر القرآن إلى المجتمع الإنسانى نظرة سمتها الشمول والموضوعية والتكامل فى آن واحد . فالمجتمع وحدة كاملة متكاملة لبنتها الفرد ، لذلك بدأ القرآن بتربية هذا الفرد .. وأقام أسس هذه التربية على دعائم من تحرير وجدانه .. يحرر القرآن وجدان المسلم بعقيدة التوحيد التى تخلصه من أدران الوهم ، وسلطان الخرافة ، وحتى يكون فى مجتمعه عبدا خالصاً لله متجرداً من كل شىء إلا عبادة الواحد المعبود .

لذلك يضع القرآن الأسس الكفيلة لذلك .. فلا حاجة للمخلوق إلا لدى الخالق ، الذى له الكمال المطلق ، والذى يهب الحياة ، ويمنح الخير للخلائق كلها ، إنه خالق واحد ، وإله واحد ، لا أول له ولا آخر ، قدير على كل شىء .. عليم بكل شىء ، محيط بكل شىء ، ليس كمثله شىء .. وهذه هى العقيدة الكاملة فى العقل وفى الدين .

— « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » (١) .

— « هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم » (٢) .

— « كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » (٣) .

— « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه » (٤) .

---

(١) سورة الاخلاص .

(٢) سورة الحديد ٣ .

(٣) القصص ٨٨ .

(٤) الأنعام ١٠٢

— « وكان الله على كل شيء قديراً » (١) .

— « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » (٢) .

— « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » (٣) .

ولما كان القرآن من لدن الواحد الأحد ، فلابد أن يؤكد وحدانيته — جلا وعلا — بالحجج القاطعة .. التي لا ترد ، والتي تعتمد على المنطق العقلي السليم ، ولا تقبل الجدل .

— « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » (٤) .

— « قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيراً » (٥) .

هذا هو لب العقيدة الإسلامية .. التوحيد

فإذا صحت عقيدة الفرد .. كان عليه أن يأخذ بكل شرائع القرآن فرائض وعبادات .

فالصلاة : عماد الدين ، ومن أقامها فقد أقام الدين ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وصلاة الجماعة واجبة — على الرأي الأرجح إلا لعذر —

(١) الأحزاب ٢٧ .
(٢) الشورى ١١ .
(٣) الأنعام ١٠٥ .
(٤) الأنبياء ٢٢ .
(٥) الاسراء ٤٢ .

وهى شرط فى الجمعة والعيدين ، والذى يصلى منفرداً لا يغيب عن شعوره آصرة القربى بينه وبين الجماعة الإسلامية فى أقطار الأرض ، فهو يعلم أنه فى تلك اللحظة يتجه وجهة واحدة مع كل مسلم على ظهر الأرض ، ويستقبل معه قبلة واحدة ، ويدعو بدعاء واحد — وإن تباعدت الأقطار والديار .

والزكاة : حق واجب .. تقتلع من النفوس جذور الشح .. وعبادة المال ، والحرص على الدنيا ، فهى لمصلحة الجماعة الإسلامية وأداء الزكاة يرسى دعائم التعاون بين المجدودين والمحرومين فيشعر الفرد بتكامل الجماعة .

والصيام : رياضة روحية ، قصد بها التحكم وضبط النفس ، وتقوية الإرادة والسيطرة على الشهوات ، ثم أنه مظهر اجتماعى ، يعيش فيه المسلمون من أقصى الأرض إلى أدناها شهراً كاملا على نظام واحد فى طعامهم , كما تعيش الأسرة الواحدة فى البيت الواحد .

والحج : اجتماع وتعارف وتشاور . ثم هو سياحة دينية تروض النفس على تحمل المشاق وتفتح بصيرتها على أسرار الله فى خلقه .

كل ذلك يربى الفرد المسلم على الشعور بالإنتماء إلى المجتمع الإسلامى الكبير وتشعره بالتبعية التى يقررها القرآن ، وينوط بها كل تكليف من تكاليف الدين . وكل فضيلة من فضائل الأخلاق .

— « كل نفس بما كسبت رهينة » (١) .
— « كل امرىء بما كسب رهين » (٢) .
— « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » (٣) .

---

(١) المدثر ٣٨ .
(٢) الطور ٢١ .
(٣) البقرة ٢٨٦ .

ه وليست العبادات وحدها التى حث عليها القرآن ، فقد حث أيضـــاً على مجموعة من المثل والقيم ، والفضـــائل العليا التى تربى النفس على الوازع الدينى كالصبر والصدق ، والعدل والإحسان ، والحلم والعفو ، والتواضع والكرم إلى غير ذلك .

ومن تربية الفرد ــ اللبنة الأولى ــ ينتقل القرآن إلى بناء الأسرة ، تمهيداً لاقامة المجتمع ، والأسرة فى نظر القرآن نواة المجتمع ، ودعامة بنائه .

لقد شرع القرآن الزواج ، إستجابة لنوازع الفرد ، وإبقاء على النوع الإنسانى فى تناسل طاهر منظم يحفظ الانساب .

وتقوم الرابطة الأسرية فى الزواج على دعائم قوية من المودة والرحمة والسكينة وراحة النفس ، والمعاشرة بالمعروف ، والألفة بين الزوجين ، ومراعاة خصائص المرأة . والوظيفة الملائمة لكل منهما .

ــ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة (١) .

ــ وعاشروهن بالمعروف ، (٢) .

ــ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم ، (٣) .

ه ومن الخلية الاولى وهى الأسرة ، ينتقل القرآن إلى المجتمع الإسلامى كله ، فنجد أن القرآن قد حدد نظام الحكم ، وأرسى قواعد الحكومة الإسلامية فى أصلح أوضاعها . . فهى حكومة قائمة على الشورى :

---

(١) المدثر ٣٨ .
(٢) الطور ٢١ .
(٣) البقرة ٢٨٦ .

- « وشاورهم فى الأمر » (١) .
- « وأمرهم شورى بينهم » (٢) .

ولا أثر - الحكومة الاسلامية - للأثرة والسيطرة الفردية .

- « إنما المؤمنون أخوة » (٣) .

بل هى حكومة تقوم على العدل المطلق، الذى لا يتأثر بحب الذات أو العوامل الاجتماعية فى الغنى والفقر .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وأن تلووا أو تعرضوا ، فإن كان بما تعملون خبيراً » (٤) .

ثم أن التشريع الاسلامى - كما حدده القرآن - ليس متروكا لاجتهاد الحاكم ولى الأمر ، بل هذا التشريع قرره القرآن وألزم به ، واعتبر الخروج عليه كفراً وظلماً وفسقاً .

- (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (٥) .
- (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) (٦) .
- (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) (٧) .
- (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) (٨) .

- ومن أروع آيات الإعجاز التشريعى للقرآن .. صيانته للحريات

---

(١) آل عمران ١٥٩
(٢) الشورى ٣٨ .
(٣) الحجرات ١٠
(٤) النساء ١٣٥ .
(٥) المائدة ٤٤
(٦) المائدة ٤٥ .
(٧) المائدة ٤٧
(٨) المائدة ٥٠ .

وحمايته للكليات الخمس الضرورية لحيـــاة الإنسان . . . والنفس والدين . . والعرض . . والمال والعقل . . ورتب عليها العقوبات المنصوصة - التى عرفت فى الفقه الإسلامى بالحدود .

« وَلَكُمْ فى القصاصِ حياةٌ ياأولِى الألبابِ » (١)

« الزانيةُ والزانِى فاجلدُوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جَلدة » (٢) .

« والذينَ يَرْمُونَ المحصَناتِ ثُمَّ لَمْ يأتُوا بأربعةِ شُهـــداءَ فاجلدُوهُمْ ثمانِينَ جلدة » (٣)

« والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا » .

هذه آية من آيات الإعجاز القرآنى . . إعجاز فى التشريع لقد كان من تدبير اللطيف الخبير إقامة شريعة الإسلام وجعلها خاتمة الشرائع وكمال كمالاتها . لقد جعل الحكيم العليم مفاهيم هذه الشريعة فى كلمات ، وجعل هذه الكلمات معجزات ، فحيث نظر ناظر فى كتاب الله بقلب سليم ، ونفس مجتمعة وجد وراء كل آية معجزة أو معجزات يرى فى منطوقها المعنى الذى جاءت له والشرع الذى دعت إليه ، وبهذا يتلقى المسلم أحكام شريعته على أضواء معجزات مشرقة منيرة تغمر بنورها الآفاق كلها من حوله ، فلا يرى إلا نوراً علويا يشرح صدره للحق ، ويفتح قلبه للإيمان .

---

(١) البقرة ١٧٩ .

(٢) النور ٢

(٣) النور ٤

٢ ـ فى مجال الاخلاق

لم يترك القرآن العظيم كبيرة ولا صغيرة إلا حدد قيمها ومعاييرها ، ووضع لها السبيل السوى . ومن هنا كانت آياته شاملة لكل عام ، واعية لكل موضوع ، وافية لكل غرض ، وكل ذلك يشهد بالقدرة الإلهية للخالق البارىء سبحانه وتعـــالى .

وفى مقدمة الموضوعات التى تناولها القرآن .. « الأخلاق الإسلامية » . وقبل أن نتحدث عن ماهية الأخلاق الإسلامية كما رسمها وحدد قيمها القرآن المجيد ، سنقف قليلا عند الأخلاق الوضعية عند الغربيين ، لنعرف بعدها عظمة دستور ديننا ، وإعجازه الكبير .

يقول المهتمون بالأخلاق فى الغرب(١) : إن مبادىء الأخلاق ماهى إلا ظواهر اجتماعية تملى على الأفراد دون أن يكون لهم دخل فى بنائها . وتقول نظريتهم كذلك : أن الأخلاق تختلف عن الدين ، وأنه لا صلة بين الدين والأخلاق وأن الأخلاق ماهى إلا استجابة النفس إلى الوسط — أى إلى البيئة والمجتمع — فإذا ماتغير الوسط تغيرت الأخلاق وأن هذا الوسط يتسع ويضيق باختلاف الزمان والمكان .

ويقولون أيضا : أن الامم ليست فى حاجة إلى الأديان ، ولكنها فى حاجة إلى الأخلاق ، ومجمل فكرهم ـ أن الأخلاق نتاج البيئة ، وأنها تختلف باختلاف الامم والعصور وطبيعة المجتمعات .

ولاريب أن هذه النظريات ـ فى ضوء فكرنا الإسلامى ، وأمام نظر قرآننا(٢)

(١) انظر : الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء لجويو الفرنسى ترجمة سامى الدروبى طبع القاهرة سنة ١٩٤٦ . والمشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر ـ د . بارودى . ترجمة د . محمد غلاب . القاهرة سنة ١٩٥٧ والتربية الأخلاقية ـ دوركايم الفرنسى . ترجمة د . السيد محمد بدوى . نشر الإدارة العامة للثقافة .

(٢) نشر هذا البحث فى مجلة الدعوة السعودية العدد ٦١١ شوال ١٣٩٧ تحت عنوان « الاخلاق الإسلامية كما حددها القرآن » .

المجيد ، تبدو ساذجة وقاصرة وعاجزة عن فهم حقيقة النفس البشرية ، ومضادة لحقائق التاريخ الإنسانى بل إنها ضد الفطرة ولا يقرها العلم .

فى مفهوم القرآن العظيم . . أن طبيعة الإنسان ثابتة لاتختلف ، وأن الأخلاق جزء من الإسلام ، فالإسلامُ عقيدةٌ وشريعةٌ وأخلاقٌ . وأن هناك فارقا عميقا بين الأخلاق الثابتة المتصلة بالدين نفسه وبين التقاليد التى تتصل بالمجتمع ، وتتغير وتتبدل وفقا للتغير الطارئ .

فالإسلام يفرق بين الأخلاق والتقاليد ، والدين والأخلاق فى الإسلام لاينفصلان،والقرآن العظيم أصل الأخلاق الإسلامية ، وهو الذى يربط بين القول والعمل ، والقيم والسلوك . . فالأخلاق — فى نظر الإسلام — قاسم مشترك على مختلف أوجه الحياة . . اجتماعية وتربوية وقانونية وسياسية أيضا . أضف إلى ذلك — أن غاية الأخلاق — كما حددها القرآن ، بناء مفهوم تربوى خاص ، يجعل أداء العمل الطيب واجبا حتما ، ويجعل تجنب العمل الضار واجبا حتما ، ويجعل الخوف من الله أقوى من الخوف من القانون أو العقوبات الوضعية .

هذا هو الأصل العام الذى وضعه القرآن العظيم فيما يتصل بالأخلاق .

إن القرآن العظيم يقرر أن القيم الأساسية ثابتة لاتتغير ، لذلك فهى قائمة على الزمان ماقام الزمان ، وعلى اختلاف العصور والبيئات ، وأن الحق سيظل هو الحق لايتغير .

لذلك — فإن أبرز قواعد الإسلام — كما وضعها القرآن — هو ثبات القيم ، وبالتالى ثبات الأخلاق وأن الالتزام الخلقى — كما حدده القرآن — هو المحور الذى تدور حوله القيم الأخلاقية ، فإذا زالت فكرة الالتزام ، قضى على جوهر الهدف الأخلاقى ، ذلك أنه إذا انعدم الإلزام انعدمت المسئولية ، وإذا انعدمت المسئولية ضاع كل أمل فى وضع الحق فى نصابه .

— فى الغرب أخلاق بلا التزام . . وفى الإسلام أخلاق ملتزمة .

وثبات القيم فى العقيدة الإسلامية ، يحمل ثبات الأخلاق قيمة أساسية تقوم على أساس القاعدة بأن طبيعة الإنسان ثابتة لاتختلف ، قد جاء الحق ليقدم لها الضوء الكاشف ، والهدى الصحيح الذى يحفظها من القلق والتمزق والتشاؤم والحيرة واليأس ، وهى بغير هذا العطاء لاتستطيع أن تواجه الحياة .

لقد ذهب العلم الغربى فى منجزاته إلى آفاق بعيدة من المتاع المادى والرفاهية ، ولكنه ظل عاجزا عن أن يعطى الإنسان لمحة سكينة ، أو نفحة طمأنينة ، لذلك ثبت فشله ذلك أن الطبيعة الإنسانية لاتجدْ طريق الحق إلا فى الاتصال بالله ، وفى التماس منهجه واتباع سُنة رسوله — صلى الله عليه وسلم — والتخلق بأخلاقه الحيدة .

هكذا انحرف الغربيون بمفهومهم فانحرفت أخلاقهم ، وصاروا إلى ماهم فيه الآن من انحراف وانحلال ، وتمزق وضياع .

فلننظر الآن — كيف وضع القرآن العظيم أصول الفضائل الأخلاقية

إن فى القرآن الكريم . . لمجموعة من الآيات البينات التى تحدد مايجب أن يكون عليه الإنسان فى سلوكه وتصرفاته ، وتلك هى الأخلاق التى تخلق بها الرسول الكريم — صلى الله عليه وسلم ليعطينا قدوة عملية نحتذيها فى سلوكنا ، ونمضى عليها فى حياتنا .

من هذه الآيات — آية كريمة تشتمل على ثلاث كلمات تضمنت — كما قال القرطبى — كل أصول الأخلاق ، وجميع قواعد التشريع فى المأمورات والمنهيات ، وهى قوله تعالى :

(خُذْ العفوَ ، وأْمرْ بالعرْفِ ، وأعْرِضْ عَنِ الجاهِلينْ)(١)

وقد جمع النبى — صلى الله عليه وسلم — الأخلاق الواردة فى هذه الآية

---

(١) الأعراف ١٩٩ .

لجابر بن سليم قال جابر : ركبت قعودي ثم أتيت إلى مكة ، فطلبت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأنخت قعودي بباب المسجد ، فدلوني على رسول الله ، فإذا هو جالس عليه برد من صوف فيه طرائق حمر ، فقلت : السلام عليك يارسول الله فقال : وعليك السلام : فقلت : إنا معشر أهل البادية قوم فينا الجفاء فعلمني كلمات ينفعني الله بها ، فقال : أدن ثلاثا ، وقال : أعد على ، فأعدت عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : اتق الله ، ولا تحقرن من المعروف شيئاً وأن تلق أخاك بوجه منبسط ، وأن تفرغ من دلوك فى إناء المستسق وإن امرؤ سابك بمالا يعلم منك ، فلا تسبه بما تعلم فيه فإن الله جاعل لك أجرا وعليه وزرا ، ولا تسبن شيئا لما خولك الله تعالى » .

قال جابر : فوالذى نفسى بيده ، ماسببت بعده شاة ولا بعيراً (١)

إننا إذا نظرنا إلى هذه الأصول الثلاثة التى تضمنتها الآية الكريمة (خذ العفو ، وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) نجد أن الأصل الأول هو العفو . والعفو فى اللغة : هو خالص الشيء وجيده ، ويطلق أحيانا على مافيه من فضل زائد ، وعلى مايأتى عفوا ، أى بلا طلب ولا مغالاة فى الرغبة .

واختلف المفسرون — فى العفو — المأمور به فى هذه الآية ، واختلافهم من قبيل ما يذكره الشاطبي — فى الخلاف الصورى ، لأن كل واحد منهم نظر إلى معنى من المعانى اللغوية وحدها . وقال السيد رشيد رضا — فى تفسير المنار : « المراد بالعفو أن من أصول آداب الدين الإسلامى ، ومن قواعد شرعه : اليسر وتجنب الحرج ، وما يشق على الناس » .

لقد ظن العديد من المتصوفة وغيرهم ، أنه كلما اتبع الإنسان طريق المشقة ، كلما كان أقرب إلى التدين من غيره ، وذلك مايختلف تماما عن أصول الدين .

إن الإسلام عدو الانحلال ولكنه كذلك عدو التزمت ، وقد قاوم

---

(١) أخرجه أبو بكر البزار فى مسنده ، وذكره بلفظه القرطبي فى تفسيره ٧/٣٤٥

الرهبانية ونهى عنها ، ولكنه طالب بإقامة الشعائر ، والتمسك بآداب الدين والأخلاق والفضائل .

أن الأخذ بالرفق فى شئون الدين — كما أمر الرسول الكريم(١) — صلى الله عليه وسلم — يصبغ على المسلم خلق الأخذ بالعفو فى كل المسائل ، فهو يبذل كل الجهد ، ولكنه لا يخرج عن الرضا وعن القناعة ، كما أنه فى معاملته مع الناس يقبل من أخلاقهم ما تيسر ويأخذ بالرفق ما أعطوه ، ولا يقابل السيئة بمثلها ، ولكنه يعفو ويصفح .

لقد ورد فى الحديث الشريف : أنه لما نزلت آية (خذ العفو) قال النبى صلى الله عليه وسلم كيف يارب والغضب ؟ فنزلت (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم)(٢) . فالأخذ بالرفق وقبول ماجاء عفوا ، وعدم التكلف فى قول أو عمل ، وعدم التزمت ، وإيثار اليسر على العسر ، ذلك هو العفو الذى أمر الله به ، وهو أصل أصيل من مكارم الأخلاق الإسلامية .

والأصل الثانى — الذى جاءت به الآية الكريمة — العرف فى قوله تعالى (وأمر بالعُرف) يعنى المعروف ، وقرأ عيسى بن عمر (بالعُرُف) بضمتين كالحُلُم وهما لغتان . قال القرطبى : والعرف والمعروف والمعارفة ، كل خصلة حسنة ترتضيها العقول ، وتطمئن إليها النفوس .

قال الشاعر :

مَنْ يفعلِ الخيرَ لايعدَم جوازِيه لايذهبُ العُرْفُ بينَ اللهِ والنّاسِ

وفى اللسان : (٣)المعروف ضد المنكر ، والعرف ضد النكر . قال : وهو

---

(١) قال عليه السلام : إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا .

(٢) فصلت ٣٦ (٣) مادة (عرف)

اسم جامع لكل ماعرف من طاعة الله ، والتقرب ، إليه ، والإحسان إلى الناس ، وكل ماندب إليه من المحسنات ونهى عنه من القبحات ، وهو من الصفات الغالبة — أى أمر معروف بين الناس إذا رأوه لاينكرونه . وتأمل قوله : أى أمر معروف بين الناس إذا رأوه لاينكرونه — تجد أنه يتفق مع مكارم الأخلاق التى فطر الإنسان عليها بوصفه إنسانا .

وقد أرشدنا القرآن غير مامرة إلى قول المعروف وفعله ، وأخبرنا أن الله سبحانه هدانا لمعرفته عن تبيين النجدين : طريق الخير وطريق الشر ، كما علمنا النبى — صلى الله عليه وسلم أن نرجع إلى قلوبنا فنسألها كلما أشكل الامر علينا ، وذلك يعنى أن نتجرد من كل شىء ونخلص لضمائرنا نسألها مفكرين متدبرين . ومتى فعلنا ذلك كان جديراً أن نصل إلى معرفة الحق وسبيل الفطرة . قال عليه الصلاة والسلام : (استفت قلبك وأن افتاك الناس وأفتوك) وليس أعظم ثقة بالإنسان من الدين الذى يطلب منه أن يرجع لإنسانيته يستوحيها ويعرف هديها ، فإن القلب الانسانى إذا صفا من الاكدار ، وتجرد من الشهوات ومن الأهواء ، ذكر ماوقر فيه ، وما جبل عليه من خلق إنسانى .

هذا هو الأصل — فإذا كان المجتمع سليماً مؤمنا بالأخلاق الفطرية ، متمسكا بها فانها تصير معروفة لديه ، وعلى هذا يمكن تفسير العرف بأنه المعروف من الشريعة ، وأنه عادات الأمة الحسنة ، وما تتواطأ عليه من الامور النافعة فى مصالحها ، إذ المقصود دائما هو التوافق مع أخلاق الفطرة .

وقد وصف الله نبيه فى التوراة والإنجيل حين بشر به فقال : (يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم)(١) .

تلك هى صفة النبى الامى ، وهى دعوة القرآن . وأذن — فالعرف بمثــابة

---

(١) الأعراف ١٥٧

أساس دستورى للأخلاق التى يجب أن يراعيها المؤمنون فى تصرفاتهم الشخصية . وفى أحكامهم وتدبيرهم لشئون الأمة .

الأصل الثالث — الذى جاء به الآية الكريمة (واعرض عن الجاهلين) هو الاعراض عن الجاهلين . فسّروا الجاهلين بالسفهاء الطائشين والأعراض عنهم بعدم معاشرتهم . قال القرطبي : أى إذا أقمت عليهم الحجة وأمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك فأعرض عنهم صيانة له عليهم ، ورفعا لقدره عن مجاوبتهم . وهذا إرشاد لجميع المسلمين فى عدم مماراة السفهاء ومجاراتهم فيما يرمون إليه من خصومه ، وإليه يشير قول الشاعر :

إِذَا نطقَ السَّفيه فلا تجبه ... فخيرٌ من إجابَتِهِ السكوتُ

واستدلوا بهذا على أن من الخلق الكريم عدم مجاراة الشعراء فى مهاجاتهم .

وقد وقع الجهل هنا فى مقابل العرف ، فالذى يظهر لنا الآن — أن الأعراض عن الجاهلين هنا بمعنى الابتعاد عن الذين يتكلمون بغير ماهو معروف من أخلاق الفطرة ، ومن يحملهم كبرياؤهم على التظاهر بنصرة أفكار أو مذاهب بعيدة عن المعروف ، قريبة من المنكر — أو هى المنكر بعينه .

ويمكننا أن نفسر الجهل هنا بمعنى الخفة والانفة والحمية والمفاخرة التى يعنيها الشاعر عمرو بن كلثوم فى معلقته :

أَلاَ لا يجهلن أحدٌ علينـــا ... فنجهلُ فَوْقَ جهلِ الجاهلينا

فالجهل هنا من الجاهلية التى تقابل هدوء النفس ، والاعتداد بالعمل الصالح ، ولذلك قال الحق تبارك وتعالى فى وصف عباده (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)(١).

---

(١) الفرقان ٦٣

قال الطبرى فى تفسيره الآية . أن عباد الله هم الذين يمشون على الأرض بالحلم ، لايجهلون على من جهل عليهم . ونستخلص من هذا - أن معنى الاعراض عن الجاهلين ، عدم التخلق بأخلاقهم المنكرة ، والتمسك بأهداب الحلم والتواضع والدعوة إلى السلام .

قال صاحب أحكام القرآن : قال علماؤنا : هذه الآية ــ يقصد : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ثلاث كلمات قد تضمنت قواعد الشريعة فى المأمورات والمنهيات ، حتى لم يبق فيها حسنة إلا أوعتها ، ولافضيلة إلا شرحتها ، ولا أكرومة إلا افتتحتها ، وأخذت الكلمات الثلاث أقسام الإسلام الثلاثة :

فقوله : (خذ العفو) : تولى بالبيان جانب اللين ونفى الحرج فى الأخذ والإعطاء والتكلف .

وقوله : (وأمر بالعرف) : تناول جميع المـــأمورات والمنهيات ، وأنهما ماعرف حكمه ، واستقر فى الشريعة موضعه واتفقت القلوب على علمه .

وقوله : (واعرض عن الجاهلين) تناول الصفح بالصبر الذى يتأتى للعبد به كل مراد فى نفسه وغيره .

هذا هو دستورنا القرآنى العظيم . . وضع أصول الأخلاق ، وحدد قيمها ومعاييرها . ورسم السبيل إلى التخلق بها . . أنه نعمة العلى القدير على عباده ، تذكرهم دائما بعظيم قدرته وواسع رحمته .

٣ ـــ فى مخاطبة العقل

كيف خاطب القرآن عقل الإنسان ؟

كيف نبهه لكى يعى ويدرك ويعمل ؟

حين نزل دستور السماء على قلب نبي الله ، المصطفى صلى الله عليه وسلم خاطب عقول الناس قبل قلوبهم ، وقدم إليهم البراهين على أنه كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . وكانت الدعوة الإسلامية التى حمل لواءها النبي صلى الله عليه وسلم ـــ تمثل الديمقراطية الدينية فى أجل صورها ومثلها .

لم تفرض عقائدها على الناس فرضا ، ولم تأخذهم بها قصرا ، ولم تأمرهم بالتزامها أمرا ، بل ناقشت وعرضت فأثار القرآن الفكر ، وأشعل التفكير . . لقد احترم العقل البشرى وسما به ، وخاطبه بأجل وأروع ما يمكن أن يخاطب به بشر . وما ذلك إلا ليقتنع المتشككون ، ويطمئن المؤمنون ، على أن عقيدتهم الدينية . . إنما تقوم على أساس من العلم المنزل من لدن العليم الخبير .

حين دعا القرآن إلى الإيمان بالله ـــ الواحد القهار ، كانت دعوته قائمة على المنطق والعقل والمناقشة . فما من موضوع قدمه القرآن ، إلا وعرضه على مائدة البحث ، وناقشه وقدم الدليل عليه .

فلإثبات وجود الله ، الخالق البارىء المصور . . . يقول القرآن :

« أفرأيتمْ ماتمنون ، أأنتمْ تخلقونَه أمْ نحنُ الخالقون » . . .

« أفرأيتمْ ما تحرثون ، أأنتمْ تزرعُونه أم نحنُ الزّارعُون » . . .

« أفرأيتمْ الماءالذى تشربُون، أأنتمْ أنزلتمُوه من المُزْنِ أم نحنُ المنزلون »

« أفرأيتمُ النارَ التى تُورون،أأنتم أنشأتمْ شجرتها أم نحن المنشِئُونَ»....

« فسبّح باسم ربّك العظيم »(١) .

وليس هذا فحسب بل ناقش القرآن أولئك الذين يتخذون من دون الله أرباباً وآلهة ، وأظهر لهم باطل معتقداتهم ، ودفع بالمنطق والحجة والعقل زيف إدعاءاتهم وبهتانهم .. — « قُلْ أرأيتمْ شُركاءكم الذينَ تدْعُون من دُون الله ، أروني ماذا خلقُوا منَ الأرْضِ أمْ لهُم شِرْكٌ في السموات أم آتيناهُمْ كتاباً فهُمْ على بيّنةٍ منه بل إن يعِدُ الظّالمُون بعضُهم بعضا إلا غُروراً . »(٢) .

— « ياأيّها الناسُ ضُربَ مثلٌ فاستمعوا له،إن الذينَ تدْعُونَ منْ دُونِ اللهِ لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له،وإنْ يسْلُبْهم الذبابُ شيئاً لايستنقذوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ »(٣) .

ويؤكد القرآن الكريم وحدانية الله بأدلة قاطعة حاسمة لايتطرق إليها الشك أو التخمين

فيقول : (ما اتّخذَ اللهُ منْ وَلدٍ وما كانَ معَهُ منْ إله إذاً لذَهبَ كلُّ إلهٍ بما خلقَ ولعَلا بعضُهم على بعضٍ سُبْحانَ الله عمّا يَصفون) (٤)

ويقول أيضاً : (لوْ كانَ فيهما آلهةٌ إلا اللهُ لفسدَتا فسُبحانَ الله ربِّ العَرْشِ عمّا يصِفُون) (٥).

أي لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله لفسدتا — أي لخرجتا عن نظامهما المشاهد لوجود التمانع بينهم على وفق العادة عند تعدد الحاكم . فسبحان الله عما يصف الكفار الله به من الشريك له .

وحين بث القرآن عقيدة البعث ، ساق إلى العقل البشري البراهين تلو البراهين ، وقدم إليه الأدلة الساطعة من واقعه المحسوس .

(١) من سورة الواقعة الآيات ٥٨ ومابعدها
(٢) سورة فاطر ٤٠ — (٣) الحج ٧٣
(٤) المؤمنون ٩١ — (٥) الأنبياء ٢٢

قال القرآن : (ويقولُ الإنسانُ أإذا مامِتُّ لسوفَ أُخرَجُ حيا أوَلا يذكرُ الإنسانُ إنَّا خلقناهُ من قبلُ ولم يكُ شيئاً) (١) .

وقال أيضا : (وضربَ لنا مثلاً ونَسِيَ خلقهُ قال مَنْ يحيي العظامَ وهي رميمٌ ، قلْ يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكلِّ خلقٍ عليم) (٢) .

إن القرآن العظيم — دستور الحياة ، دستور الناس كافتهم جاء يدعو إلى الحق بالحق ، جاء يدعو إلى أعمال العقل ، بعد أن حرره من عبودية الجهل والوثنية ، وفك إسارة من قيود الظلم والعبودية . . .

جاء يدعو الناس إلى البحث ، ويأمرهم بالنظر والتدبر . .

« قُلْ انظرُوا ماذا في السموات والأرض » (٣) .

« أوَلمْ ينظرُوا في ملكوتِ السموات والأرضِ وما خلقَ اللهُ من شيء وأن عسى أن يكون قد اقتربَ أجلهم فبأيِّ حديثٍ بعده يؤمنون (٤).

إن القرآن العظيم كتاب الله الكريم ، ليس كتاب دين فحسب ، بل كتاب علم وفكر وحكمة . . أنه ذكر حكيم ، وتعليم إلهي يعلم الناس من الحقائق والأمور مالم يكونوا يعلمون .

فلننظر . . كيف احترم القرآن عقل الإنسان .

— لقد انتقل القرآن بالإنسان من مرحلة الإيمان عن طريق المعجزات — كما كان أيام موسى وعيسى عليهما السلام ، إلى مرحلة الإيمان القائم على العلم والتدبر ، والتفكير والبرهان — أى على البحث المقنع الذى يؤدى إلى اليقين .

إقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

---

(١) مريم ٦٦ ، ٦٧

(٢) يس ٧٨ ، ٧٩

(٣) يونس ١٠١

(٤) الأعراف ١٨٥

— (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ..)

— ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ..)

— وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) (١)

، وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً)(٢)

— ، وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه — قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)(٣) .

إذن — فالقرآن الكريم معجزة الرسول الأمين . . صلى الله عليه وسلم . . وكان آية تختلف عما جاء به الأنبياء السابقون — وما كان ذلك كذلك إلا لاختلاف الزمان والمكان ، وإختلاف طبيعة الإنسان العربى عن غـــيره من الأقوام ، واختلاف لغته وأسلوبه عن اللغات الأخرى .

.. ولقد حض القرآن العظيم — عقل الإنسان حضا على تدبر آياته ، لأن ذلك سيكون وسيلة إلى الإيمان .

(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)(٤)

(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب)(٥)
وهنا يقصد القرآن من تدبر آياته الاجتهاد والبحث فى إدراك حقيقه وقيمة ما تتضمنه آياته من أحكام تتعلق بالحقائق ، حقائق الدين والحياة .

---

(١) الأنعام ٤ ، ٧ ، ١٠٩ (٢) الإسراء ٥٩
(٣) العنكبوت ٥٠ — ٥١ (٤) النساء ٨٢
(٥) ص ٣٠

كما احترم القرآن عقل الإنسان حين ناداه ، وحثه على ترك التقليد ، وعدم السير وراء البدع التى كان يقوم بها الآباء والأجداد الجاهليون .

(وإذا قِيلَ لهمْ تَعالوْا إلى ما أنزلَ اللهُ وإلى الرَّسُولِ قالوُا حَسْبُنا ماوجدْنا عليه آباءَنا أَوَلوْ كانَ آباؤُهُم لايعلمُونَ شيئاً ولا يَهتدوُنَ)(١)

واحترم القرآن عقل الإنسان حين أمره ألا يتبع الظن والتخمين — بل يتوخى اليقين. (وما يتَّبِعُ أكثرُهُم إلا ظناً ، إن الظنَّ لا يُغنى من الحقِّ شيئاً) (٢) .

هكذا احترم القرآن العقل وقدَّره .

لقد خاطب العقل الإنسانى ، لأنه يقدر قيمة العقل ويدعو إلى إعمال العقل فليس هناك سبيل إلى الزيف والبدع . . وهل هنـــاك إعجاز أسمى وأرقى من هذا الإعجاز ؟

---

(١) المائدة ١٠٤ (٢) يونس ٣٦

٤ — فى تربية الإنسان

يهدف القرآن العظيم أول ما يهدف إلى إعداد [illegible] وهو فى سبيله لهذا الإعداد ، لا يترك الناس حيارى يتخبطون فى التيه [illegible] هذا الإنسان على هـــواه ، وإنما يحدد لهم مواصفات هذا الإنسان فى دقة ووضوح ، ويرسم لهم المنهج الذى يصلون به إلى تحقيق ذلك .

فهذا الإنسان الصالح . . هو الإنسان «الأتقى» (إِنَّ أَكرَمَكُمْ عند اللهِ أَتقاكم) (١) وهو الإنسان الذى يعبد الله ويهتدى إليه : وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبُدُون) (٢) .

ولكن العبادة ليست مقصورة على المناسك التعبدية المحدودة ، وإنما هى معنى شامل جدا وواسع جدا ، يشمل كل دقائق الحياة وتفصيلاتها ، ويشمل كل عمل وكل فكرة ، وكل شعور ، هو التوجه بكل نشاط حيوى إلى الله ، ومراعاة ما يرضى الله فى كل هذا النشاط . والإنســـان الصالح — أيضاً — هو الإنسان الذى يتبع هدى الله :

(فَإِما يأتينكم مِنِّى هدًى ، فمنْ تبعَ هُدايَ فلاَ خوفٌ عليهم ولا همْ يحزَنون)(٣).

فهو يستمد من هذا الهدى منهج حياته ، ومنهج شعوره ومنهج سلوكه منهج تربيته . . ولا يتلق من مصدر سواه .

وطريقة القرآن فى التربية هى معالجة الكائن البشرى كله ، معالجة شاملة لا تترك منه شيئاً ، ولا تغفل عن شىء . . جسمه وعقله وروحه حياته المادية والمعنوية . . وكل نشاطه على الأرض .

---

(١) الحجرات ١٣

(٢) الذاريات ٥٦

(٣) البقرة ٣٨

أنه يأخذ الكائن البشرى كله ، يأخذه على ما هو عليه ، بفطرته التى خلقه الله عليها لا يغفل شيئاً من هذه الفطرة ، ولا يفرض عليها شيئاً ليس فى تركيبها ، ويتناول هذه الفطرة ، فى دقة بالغة فيعالج كل وتر منها ، وكل نغمة تصدر عن هذا الوتر ، فيضبطها بضبطها الصحيح .

وحين يتعمق المرء وسائل القرآن العظيم فى التربية ، يعجب للدقة العجيبة التى يتناول بها الكائن البشرى ، الدقة التى تتناول كل جزئية على حدة ، كأنها متفرغة لها ، ليس فى حسابها سواها ، ثم الشمول على هذا المستوى من الدقة، الشمول الذى يتناول الجزئيات جميعاً ، وفى وقت واحد . . أنها دقة معجزة لا تصدر إلا عن الخالق المدبر العظيم . . وتبرز آياته المعجزة ...

يقرر القرآن الكريم . . أن فى النفس الإنسانية استعداداً فطريا للتأثر بما يلقى إليها من الكلام ، وهو استعداد مؤقت غالبا — لذلك يلزمه المعاودة والتكرار وتدرج التأثير . . لذلك فأنسب شيء للتأثير فى النفس البشرية ، وأسلم وسيلة للوصول إلى أعلى مراحل التربية فيها هى : « الموعظة الحسنة » .

هذه الموعظة تؤثر فى وجدان الإنسان ، وتمهد الطريق للوصول إلى أعماقه فتهزه هزا وتثير كوامنه ، لحظة من الوقت ، تماما كالسائل الذى تقلب رواسبه فتملأ كيانه ، ولكنها إذا تركت تترسب من جديد .

لذلك — يرى القرآن أيضاً — أن الموعظة لاتكفى وحدها — فى التربية — إذا لم يكن بجانبها القدوة والمثل .. ثم الوسط الذى يسمح بتقليد القدوة ومحاكاتها ويشجع على التأسى بها .

فالقدوة المنظورة — الملموسة هى التى تعلق المشاعر ، ولا تتركها تهبط إلى القاع وتسكن بلا حراك ، وحين توجد القدوة الصحيحة — فان الموعظة تكون ذات أثر فعال فى النفس ، حينئذ تصبح دافعا من أعظم الدوافع فى تربية النفوس.

هكذا يقرر كتاب ربنا : التربية عمادها الموعظة والقدوة .

ذلك لان النفس البشرية لها دوافع فطرية تكون فى حاجة دائمة إلى التوجيه

والتهذيب ولابد فى هذا من الموعظة — فقد لا يتأثر الإنسان بالقدوة الصالحة .. أو قد لا تكفيه وحدها .. فلابد حينئذ من الموعظة موعظة لطيفة مؤثرة ترد الإنسان إلى صوابه ، وتعوده على مكارم الأخلاق .. خطان متلازمان يكمل بعضهما بعضا — الموعظة الحسنة والقدوة الصالحة .

أما الموعظة — فالقرآن ملىء بالمواعظ والتوجيهات السديدة .. استمع إلى قول الحق تبارك وتعالى :

— « إنّ اللهَ يأمُرُكم أن تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلها .. وإذا حكمتمْ بينَ الناسِ أنْ تحكموا بالعدل .. إن اللهَ نِعِمّا يَعظكم به » (١) .

— « واعبدُوا اللهَ ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدَين أحساناً وبذى القُربى واليتامى والمساكين والجارِ ذى القربى والجارِ الجُنبِ والصاحبِ بالجنبِ وابن السبيلِ وماملكتْ أيمانُكم إنَّ اللهَ لا يحبُّ مَنْ كانَ مختالا فخوراً » . (٢)

— « لا تجعلْ مَعَ الله إلها آخر فتقعدَ مذموماً مخذُولا ، وقضى ربُّكَ ألا تعبدُوا إلا إياهُ وبالوالدَين إحساناً ، إمّا يبلغنّ عندكَ الكبرَ أحدُهما أو كلاهما فلا تقلْ لهما أفٍّ ولا تنهرْهما وقلْ لهما قولاً كريماً ، واخفضْ لهما جناحَ الذُّلِ من الرّحمةِ وقلْ ربِّ ارحمهما كما ربّياني صغيراً ، ربُّكمْ أعلمُ بما فى نفوسِكمْ إن تكونُوا صالحينَ فإنه كان للأوابينَ غفوراً ، وآتِ ذا القربى حقه والمسكينَ وابن السبيل ولا تبذّرْ تبذيراً ، إنَّ المبذرينَ كانوا إخوانَ الشياطين ، وكان الشيطانُ لربهِ كفُوراً ، وإما تُعرضنَّ عنهم ابتغاءَ رحمةٍ من ربك ترجوها فقلْ لهم قولا ميسوراً ، ولا تجعلْ يدكَ مغلولةً إلى عُنقكَ ولا تبسطها كل البسْطِ فتقعدَ ملوماً محسُوراً ، إنَّ ربَّكَ يبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدرُ ، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ نحنُ نرزقهم وإياكم . إن قتلهمْ كان خطأً كبيراً .

(١) النساء ٥٨

(٢) النساء ٣٦

ـــ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ..

ـــ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً ..

ـــ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا .. »(١).

هذه مجرد نماذج من الوعظ القرآنى .. وإلا فالقرآن كله موعظة للمتقين .

« هذا بيان للناس وموعظة للمتقين » (٢)

ولا يقدم القرآن مواعظه جزافا .. ولا يجعلها أوامر على الإنسان أن ينفذها إن طوعا وإن كرها .. ولكنه يقدم إلى جانبها القدوة فى التربية ..

فهو يدرك أن القدوة هى أفضل الوسائل وأنجحها .. لذلك يضع منهجاً متكاملا ..

« لقد شاء العلى القدير أن يجعل هذا المنهج عمليا وتطبيقيا .. فاختار من البشر إنساناً يحمل هذا المنهج القرآنى . . ويحوله إلى حقيقة ، لكى يعرف الناس أصول هذه التربية ، وأنها أحق بالاتباع ، فقدم لهم القدوة ، وكانت فى بعث الرسول محمد ـــ صلى الله عليه وسلم .. بعثه قدوة للناس .

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » . (٣)

ووضع فى شخصه العظيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصورة الكاملة للمنهج القرآنى الصورة الحية الخالدة على مدار التاريخ .

سئلت عائشة رضى الله عنها ـ عن خلق رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فقالت : كان خلقه القرآن ..

كان الترجمة الحية لروح القرآن وحقائقه وتوجيهاته ، ومن ثم كان كالقرآن قوة

---

(١) الإسراء ٢٢ ـــ ٣٨ (٢) آل عمران ١٣٨ (٣) الأحزاب ٢١ .

كونية عظمى قوة من صنع الله ، تتكامل فيها القوى ، وتتناسق فى محيطها الشامل ، وتتآلف منها نفس واحدة تجمع كل النفوس ، وتجمعها فى توازن وإتساق .. أنه القدوة .

قوة حيوية فائضة تعدل وحدها أشد الناس حيوية :

— رجل حرب .. يضع الخطط ويقود الجيوش .. يحارب منطلقا كالعاصفة لا يرده شيء .. قال على رضى الله عنه : (كان أشجعنا أقربنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القتال) .

— ورجل سياسة يشيّد أمة من الشتات المتناثر فإذا هى بناء ضخم لا يطاوله شيء فى التاريخ ..

— وأب وزوج ورب أسرة كبيرة كثيرة النفقات .

— وصديق وقريب وصاحب للناس تشغله همومهم ..

— وعابد متحنث لربه كرجل منقطع للعبادة ، متخصص لأدائها ..

عظمات لا تحد .. كل هذه الشخوص المتفرقة مجموعة فى شخصه ، مجموعة على تناسق وتوافق واتزان .. أليس هو القدوة ؟

فذلك محمد بن عبد الله النور المكرّم الذى بهر العالمين .. وحق للناس أن يحبوه كل ذلك الحب ، ويعجبوا به ويتبعوه ..

لقد كانت حكمة الله سبحانه من بعثه على هذه الصورة المتكاملة الشاملة العظيمة كحكمته فى إنزال القرآن على هذا النهج الشامل المعجز العظيم ، فكان محمد فى كونه آية كونية كفئا لهذا القرآن ، وكان خلقه القرآن ، وكان القدوة المثلى .

لقد بعثه الله للناس كافة — والعالمين ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، وأعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير ، وقد جعله القدوة الدائمة للبشرية ، يقبسون من نوره ، ويقربون على هديه ، ويرون فى شخصه الكريم الترجمة الحية للقرآن .. وكان هذا تدبيراً لله سبحانه .. يكافىء تدبيره فى تنزيل القرآن .

وإذ يجعل القرآن العظيم — القدوة الدائمة فى شخصية الرسول . . فهو يجعله القدوة المتجددة على مر الأجيال ، متجددة فى واقع الناس ..

أنه يرى أن القدوة أعظم وسائل التربية ، فيقيم تربيته الدائمة على هـذا الاساس .

وهكذا .. يقدم القرآن الموعظة الحسنة . . . ويقدم أيضاً القدوة المثالى . بيد أنه حين لا تفلح الموعظة . . ولا يقتدى بالقدوة . . فلابد إذن من علاج حاسم رادع . . يضع الأمور فى نصابها . . . وهذا العلاج هو العقوبة . هذا ما حدده القرآن وقرره ، حين تناول تربية الإنسان . . ووضع منهجها .

• • •

ولكن العقوبة ليست ضرورة لكل شخص ، فقد يستغنى شخص بالموعظة والقدوة ، وقد يتربى — فلا يحتاج فى حياته كلها إلى عقاب . .

ولكن الناس كلهم ليسوا كذلك ، ففيهم من يحتاج إلى الشدة مرة أو مرات ، من هنا نرى أن العقوبة ليست أول خاطرة فى المنهج التربوى القرآنى . . فالموعظة هى المقدمة . . والدعوة إلى عمل الخير ، والصبر الطويل على إنحراف النفوس لعلها تستجيب .

— « وَمَنْ أَحسنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلى الله وَعَمِلَ صالحاً وَقالَ إِنَّنى مِنَ المُسْلِمين » (١)

— « ادعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكمةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنة » (٢)

— « واصْبِرْ عَلى مَا يَقُولُون » (٣) .

والموعظة وسائل مختلفة . . والقرآن مليء باللمسات الدقيقة اللطيفة المؤثرة التى تهز الوجدان . .

ولكن الواقع المشهود — أن هناك أناساً لا يصلح معهم ذلك كله ، أو يزدادون إنحرافاً كلما زيد لهم فى الوعظ والإرشاد . .

---

(١) فصلت ٣٣ — ٣٤ (٢) النحل ١٢٥ (٣) المزمل ١٠

هنا يرى القرآن أنه ليس من الحكمة أن يتصنع الرقة الزائدة.. أنهم مرضى حقيقة.. نعم ومنحرفون، والعيادات السيكلوجية أو النفسية قد تصلحهم.. والقرآن لا يمنع عنهم العلاج النفسي..

ولكن التربية الرقيقة.. تضر أحياناً ضرراً بالغاً، لأنها لا تنشىء كياناً له قوام، ومن هنا كان لابد من شيء من الحزم، ومن الحزم استخدام العقوبة أو التهديد بها..

والقرآن المعجز.. يتبع جميع وسائل التربية فلا يترك منفذاً في النفس لا يصل إليه. فإذا كان يستخدم الموعظة والقدوة.. والترغيب والثواب.. فإنه كذلك يستخدم التخويف والترهيب بجميع درجاته، من أول التهديد إلى التنفيذ.

فهو مرة يهدد بعدم رضاء الله. وذلك أيسر التهديد، وإن كان له فعله الشديد في نفوس المؤمنين..

«ألمْ يأنِ للذينَ آمنوا أنْ تخشعَ قلوبُهمْ لذكرِ الله وما نزلَ من الحقِّ ولا يكونوا كالذينَ أوتوا الكتابَ منْ قبلُ فطالَ عليهمِ الأمدُ فقستْ قلوبُهم وكثيرٌ منهمْ فاسقونَ» (١)

ومرة أخرى يهدد بغضب الله صراحة.. وتلك درجة أشد.

«ولولا فضلُ الله عليكمْ ورحمتهُ في الدنيا والآخرة لمسَّكمْ في ما أفضتمْ فيه عذابٌ عظيمٌ. إذْ تلقونَهُ بألسنتكمْ وتقولونَ بأفواهكمْ ما ليسَ لكمْ به علمٌ وتحسبونَهُ هيِّناً وهو عند الله عظيمٌ، ولولا إذْ سمعتموهُ قلتمْ ما يكونُ لنا أنْ نتكلمَ بهذا سبحانكَ هذا بهتانٌ عظيمٌ، يعظكمُ اللهُ أن تعودوا لمثلهِ أبداً إن كنتمْ مؤمنينَ» (٢)

ومرة يهدد بحرب الله ورسوله:

— «يا أيُّها الذينَ آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقيَ من الربا إنْ كنتمْ مؤمنين، فإنْ لمْ تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسولهِ...» (٣)

(١) الحديد ١٦ (٢) النور ١٤ — ١٧ (٣) البقرة ٢٧٨، ٢٧٩

ومرة يهدد بعقاب الآخرة:

— « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون — ومن يفعل ذلك يلق آثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً » (١)

ثم يهدد بالعقاب فى الدنيا :

« إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم » (٢)

« وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا والآخرة » (٣)

ثم يوقع العقاب :

« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » (٤)

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا » (٥)

درجات متفاوتة لدرجات من الناس . فمن الناس من تكفيه الإشارة البعيدة ، فيرتجف قلبه ويهتز وجدانه ، ويعدل عما هو مقدم عليه من إنحراف .

ومنهم من لا يردعه إلا الغضب الجاهر الصريح . .

ومنهم من يكفيه التهديد بعذاب مؤجل التنفيذ . .

ومنهم من لابد من تقريب العصا منه حتى يراها على مقربة منه .

ومنهم بعد ذلك فريق لابد أن يحس لذع العقوبة على جسمه كى يستقيم . .

منهج تربوى متكامل . . وضعه العلى القدير . . وضمنه قرآنه العظيم . . ليضيف إلى آيات إعجازه المتعددة آية أخرى . . فى التربية . .

(١) الفرقان ٦٨ — ٦٩ (٢) التوبة ٣٩ (٣) التوبة ٧٤

(٧) النور ٢ (٧) المائدة ٣٨

٥ — فى تربية الروح

حدد القرآن الكريم حقيقة الترابط والامتزاج فى الكيان البشرى ، فقرر أن الإنسان وحدة مترابطة، ممتزجة الأجزاء ، لاينفصم منه روح عن عقل عن جسم، وحين حدد القرآن هذه الحقيقة ، اتخذ لكل من الروح والعقل والجسم منهجا خاصا فى التربية . يهمنا الآن أن نتناول (منهج القرآن فى تربية الروح) .

يرى القرآن العظيم أن الروح هى القاعدة التى يقيم عليها الإسلام بناءه كله ، توجيهاته الخلقية والفكرية ، وتشريعاته وتنظيماته ، لذلك عنى القرآن بتربية الروح لما لها من اتصال مباشر بتربية العقل والجسم .

وهنا يتبادر إلى الأذهان سؤال هام ...... ما هى الروح ؟

وهذا السؤال أجاب عليه القرآن إجابة صريحة واضحة .

(ويَسألُونَكَ عن الرُّوحِ .. قُلْ الرُّوحِ مِنْ أمرِ ربى ، وما أُوتيتم من العلم إلاّ قليلا)(١) إذن فالروح من أمر الله . وهى بالنسبة لنا شىء مُبْهَمْ .. غامض .. ليس له حدود . الروح طاقة مجهولة مبهمة ، محجوبة عن الإدراك . ومع ذلك فهى حقيقة .

وإذا كنا نعتقد أن عملية الإدراك ، أو عملية التذكر ، عملية محسوسة ، ومن أجل ذلك نؤمن بوجودها الواقعى ، فنحن مخطئون فى هـــذا الاعتقاد .. فهى فى الحقيقة ليست محسوسة فى ذاتها ، وإنما نحن ندرك نتائجها ، ووضوح هـذا الإدراك بنتائجها هو الذى يغرينا بذلك الظن الخاطىء . كذلك الطاقة الروحية .. لو تدبرنا الأمر لوجدناها كذلك ، إنها مجهولة فى كنهها ، مبهمة غامضة ، محجوبة عن الإدراك ، ولكن نتائجها ليست مجهولة ولامحجوبة عن الإدراك . أنها الطاقة التى يتصل بها الانسان بالمجهول ، بالغيب المحجوب عن الحواس .

---

(١) الاسراء ٨٥ .

● فالاستشفاف مثلا عملية من عمليات الروح .

● الحلم التنبؤي عملية من عمليات الروح .

● التخاطر عن بعد — كحادثة عمر الشهيرة مع سارية ، حين ناداه على بعد آلاف الأميال ياسارية .. الجبل .. الجبل ، فسمعه سارية . ونجا من الكمين وانتصر .. هذا التخاطر عملية من عمليات الروح .. وهذه كلها عمليات باهرة ، معجزة ، يقف الانسان حائرا أمامها مبهوتا من العجب والإعجاب ، ولكنها مع ذلك عمليات جانبية محدودة ... إنما الوظيفة الكبرى للروح ... هي الاتصال بالله .

نعم .. الروح وسيلتنا للاتصال بالله ، وهي تهتدي إلى الله — خالقها — بفطرتها التي خلقها الله .. إنها من روح الله التي أودعها قبضة الطين .

« فإذا سوّيته ونفختُ فيه من رُوحي فقعوا له ساجدين » (١)

ومن ثم فهي بذاتها تهتدي إلى خالقها ، وتتصل به على طريقتها :

« وإذْ أخذَ ربُّكَ منْ بني آدمَ منْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهمْ وأشْهَدَهُمْ على أنفسِهِم .. ألستُ بربكم قالوا بلى شَهِدنا » (٢)

تهتدي إلى خالقها كما يهتدي كل شيء إلى خالقه ، بفطرته ، ودون كدّ ولا تعب ..

« رَبنا الذي أعْطى كلّ شيءٍ خلقَه ثمّ هدى » (٣)

لأن الله كرّم هذا المخلوق البشري :

« ولقدْ كرّمنا بني آدم وحملناهُم في البرِّ والبحرِ ورزقناهمْ منَ الطيباتِ وفضّلناهُم على كثيرٍ ممّنْ خلقنا تفضيلا » (٤) .

---

(١) الحجر ٢٩ — (٢) الأعراف ١٧٢ — (٣) طه ٥٠

(٤) الأسراء ٧٠

ومن آيات التكريم الإلهى ، أن جعل للإنسان فؤاداً واعياً ..

« وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبصار والأفئدة » (١) .

فجعل عملية الهدى .. عملية واعية يشترك فيها مع الروح .. الفؤاد البصير ، فتفترق بذلك عن الطاعة التى يمارسها الجماد والنبات والحيوان .

ومع كل ذلك — فالإنسان يَضِلُّ ، يضل حين تنحرف فطرته ، ويصيبها المرض ، يضل فلا يهتدى إلى الله ، ولا يصل بروحه إليه .. على أنه حتى حين يضل ، وحين تَتغبَّشُ روحه فلا تستطيع أن تشف ، حتى حين يغشيها ركام الشهوات ، فيحجب عنها النور ، حينئذ تظل بقية من الفطرة — برغم ضلالها — تتجه إلى خالقها كما تتجه العين الكليلة إلى الضوء لا تراه كله ولكنها لا تعمى عنه فيعبد الناس الله .. ويشركون به غيره .

« مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبونا إلَى اللهِ زُلْفَى » (٢) .

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ، قُلْ أفَرَأيْتُمْ ماتَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ » (٣) .

أو يعبدون قوة ما ، أو مذهباً ما — ولكنهم لا ينكرون وجود خالق لهذا الكون : قوى مسيطر مريد ، وهنا تبدأ مهمة العقيدة ، لأن مهمتها مساندة الفطرة ، وتوجيهها وجهتها ، مهمتها أن تساعد الفطرة فى الاهتداء إلى الله ، مهمتها أن تطلق الروح من إسارها لكى ترى الله .

من هنا عنى القرآن بتربية الروح ..

إنها فى نظره مركز الكيان البشرى ، ونقطة ارتكازه ..

إنها المهيمن الأكبر على حياة الإنسان ..

إنها الموجه إلى النور ، يكفى أنها وسيلة الانسان للاتصال بالله .

---

(١) السجدة ٩ (٢) الزمر ٣ (٣) الزمر ٣٨

اتخذ القرآن منهجا دقيقا فى تربية الروح . . وهو أن يعقد صلة دائمة بينها وبين الله ، فى كل لحظة ، وكل عمل . وكل فكرة وكل شعور .

ان الإنسان بطبيعته ، قد تشرق روحه لحظة ، قد تأخذه روعة الصبح الوليد مرة ، وهو يتنفس كمن يصحو من سباته ، قد تأخذ بلبه الليلة المقمرة ، فينتشى بشعرها المهموس وأطيافها الحالمة ، وظلالها المسحورة ، قد تأخذه ضخامة الكون وروعته ، وانتظام سننه ودقة نظامه ، وكل ذلك جميل ، ولكنها لحظات منقطعة ، لا دوام لها ولا استقرار . والقرآن لا يريد ذلك ، لا يريد لهذه الاشراقة الروحية أن تنطفىء ، لا يريد أن يغشى صفاءها شىء أو يحجبها عن انطلاقها فى الآفاق ، ومن ثم لا يكتفى بتلك اللحظات الفائقة أن تجىء عرضا ولا تلبث أن تزول ...

إنما يريد القرآن أن يجعل هذه الاشراقة منهج حياة ، يريد أن يذكى الشعلة المقدسة فتظل على الدوام مضيئة ، يريد أن تظل القبسة التى يشتمل عليها الإنسان من روح الله مشعشة واصلة لنبعها الأصيل . وحين يصل الإنسان إلى هذه المرحلة فهو يحقق هدفه ومبتغاه .. ومع كل ذلك — وكما يقرر القرآن .. فإن الله رحيم بعباده ، تتجلى رحمته فى كل زمان ومكان ، أنه لا يريدهم على المستحيل ، وهو يعلم أن الطلاقة الدائمة الكاملة بالنسبة للبشر مستحيلة ، فقبضة الطين لها ثقلة ، ودفعة الشهوة لها قوة ، وثقلة المادة لها ضغط ، ومن ثم يقول : (فاتقوا الله ما استطعتم)(١) .

ويقول : (لايكلفُ الله نفساً إلاّ وُسعها)(٢) .

ان الاسلام دين الفطرة ، والقرآن دستوره ، لذلك فهو يؤمن بكل ما تحتويه الفطرة من طاقات ، ويؤمن أولا بطاقة الروح ، وقدرتها الفائقة على التحليق والانطلاق ، وهو فى واقعيته التى تحسب حساب الضعف الإنسانى ، لا يكلف

---

(١) التغابن ١٦ (٢) البقرة ٢٨٦

أبداً عن المحاولة ، لا يكف عن النفخ الدائم لإذكاء شعلة الروح لأن هذا هو الطريق للرفعة . والطريق — كما قلنا — هو عقد الصلة بين الانسان والله . . ويستخدم القرآن لذلك وسائل شتى :

فهو من ناحية يثير حساسية القلب بيد الله المبدعة فى صفحة الكون ، لتحس دائماً بوجود الله وقدرته المطلقة التى ليست لها حدود .

● ومن ناحية يثير حساسية القلب برقابة الله الدائمة عليه، فهو مع الانسان أينما كان وهو مطلع على فؤاده ، عالم بكل أسراره .

● ومن ناحية ثالثة يثير فى القلب وجدان التقوى والخشية الدائمة لله ، ومراقبته فى كل عمل ، وكل فكرة ، وكل شعور .

ومن ناحية أخيرة يبعث فيه الطمأنينة الى الله فى السراء والضراء ، وتقبل قدره بالتسليم والرضاء .

والهدف فى النهاية واحد ، وهو وصل الروح . . روح الإنسان بالله .

فالقرآن وهو يربى الروح يعمد الى هذه الرسائل ، يتخذ منها طريقا فيبعث فيها الحياة .

ثم أن للقرآن العظيم فى هذا الجانب ميزة عجيبة . . أن أسلوبه الساحر، وجوه المشرق ، وروحه الصافية لتنقل الإنسان نقلا من إلفه وعادته، وتهزه ليستيقظ، تلمس برفق أعصابه المكشوفة ، فتستقبل الشحنة كاملة ، ينقلها الى مركز الحس بكامل وقعها وكامل تدفقها .

● الانسان يعيش فى القرآن مع الكون فى لقاء جميل حبيب ، لقاء يلذ النفس ويمتع الحس ويطلق الروح نشيطة طليقة تسبح لله :

(انَّ فى خلقِ السمواتِ والأرضِ ، واختلافِ الليلِ والنهارِ والفلكِ التى تجرى فى البحرِ بما ينفع الناس وما أنزل الله من ماء فأحيا به الأرضَ

بعد موتها وبثَّ فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخَّر بَينَ السماءِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يَعقِلون)(١) .

إنَّ ربكُم الله الذى خلقَ السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)(٢) .

● وكما يوجه القرآن الروح إلى قدرة الله المبدعة فى صفحة الكون .. فكذلك يوجهها إلى قدرته القاهرة التى تمسك بيدها كل أمر ، وتدبر وحدها كل تدبير .

(بَديعُ السموات والأرضِ وإذا قضى أمراً فإنما يقولُ لهُ كُن فيكون)(٣)

(ولله ملكُ السموات والارضِ والله على كل شيءٍ قدير) (٤) .

(من يهدِ الله فهوَ المهتدِ ومن يُضلل فلن تجدَ له وليا مُرشداً)(٥) .

● وكما يوجه الروح إلى قدرة الله المبدعة، كذلك يوجهها إلى علم الله الشامل، الذى لا يخفى عليه شيء فى السموات ولا فى الارض ، ولا فى داخل النفوس .

(عالِمُ الغيبِ والشهادةِ الكبير المتعال ، سَواءٌ منكمْ مَنْ أسرَّ القولَ ومَنْ جهرَ بهِ ، ومن هو مُستخفٍ بالليلِ وساربٍ بالنهارِ) .(٦)

(يعلمُ ما يلجُ فى الأرضِ وما يخرجُ منها وماينزل مَن السماءِ وما يعرج فيها وهو الرحيمُ الغفور)(٧) .

(وما تحملُ من أنثى ولا تضعُ إلا بعلمِه ، وما يُعمرُ من مُعَمَّرٍ ولا يَنتقصُ من عُمُرِه إلا فى كتابٍ . إن ذلكَ على الله يَسير) (٨) .

---

(١) البقرة ١٦٤
(٢) الاعراف ٥٤
(٣) البقرة ١١٧
(٤) آل عمران ١٨٩
(٥) الكهف ١٧
(٦) الرعد ٩
(٧) سبأ ٢
(٨) فاطر ١١

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) (١) .

فإذا ما وجه القرآن الروح هذه التوجيهات كلها ، وهز قلب الإنسان من أعماقه ، وجعله ينفعل بها انفعالا حيا متجدداً مطرداً ، ولا ينقطع ولا يفتر ، فقد انعقدت بين الله وروح الإنسان وقلبه صلة لا تنقطع فى النهار أو الليل ، لا تنقطع فى عمل أو شعور أو فكر ، لا تنقطع فى سر أو جهر ، لا تنقطع فى خلوة أو صحبة ، لا تنقطع ما دامت الحياة . .

وهنا تتصل الروح بالله صلات شتى . . تتصل به خشوعا وتقوى ، تتصل به حبا وتطلعا ، تتصل به أطمئنانا إلى قدره ، وتسليماً بما يرضاه ، فالخشوع والتقوى ، والحب والتطلع ، والاطمئنان إلى قدر الله ، هم ثمرة هذه الجولات الهائلة التى يجولها القرآن مع الروح ومع القلب البشرى فى آيات الكون وآيات النفس ، وقدرة الله القادرة ، وقدرته القاهرة ، وعلمه الشامل ، وملكه العظيم ، فما تملك الروح ، وما يملك القلب البشرى إزاء ذلك إلا أن يخشع ويهتز لعظمة الله ، وما تملك الروح ، وما يملك القلب الإنسانى إزاء ذلك الا أن يحس بتقوى الله فى أعماقه ، فيعبده ويخشاه .

هذا هو منهج القرآن فى تربية الروح .. وهذه هى طريقته ، طريقة عميقة محيطة شاملة ، طريقة لا تدع الإنسان يفلت أو ينحرف عن السبيل .

نفعنا الله بالقرآن العظيم ، وجعله ربيع قلوبنا وضياء بصائرنا ، وأبصارنا أنه نعم السميع المجيب .

---

(١) المجادلة ٧

٦ ـ فى معاملة النفس الإنسانية

نظر القرآن إلى الإنسان نظرة شاملة واعية . . تعرف تكوينه وتحدد مفهومه ومقوماته . . نظر القرآن إلى الإنسان بجوهره الكامل فى أعماقه . . من حيث هو إنسان ، وخاطبه بكل الوسائل النفسية وغير النفسية ليصل إلى عقـله وقلبه، إلى أعماقه .

وبذلك يكون القرآن قد استخدم كل مقومات علم النفس الإنسانى منذ أربعة عشر قرنا من الزمان . وقبل أن يتحدد مفهوم هذا العلم بمصطلحاته فى العصر الحديث . . ليضيف إلى وجوه إعجازه وجها جديداً . .

يقول الحق تبارك وتعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ)(١) .

لقد فهم القرآن النفس البشرية فهما دقيقا ، وعاملها معاملة خاصة يهدف من ورائها إلى إعداد الإنسان الصالح .. المسلم المثالى .. ولكى يصل إلى هذا الهدف الواضح المعالم، أمسك بزمام النفس البشرية .. تارة يعدها ويمنيها .. وأخرى يخوفها ويرهبها ، وفيما بين الوعد والوعيد . . يغرس فيها كل البذور الصالحة التى يقصد إلى غرسها فى قرارة النفس ، ويرد الناس إلى خالقهم ويصلهم به مباشرة ولهذا قال : (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) .

وهذا الرد إلى الخالق .. هو محور عقيدتنا الاسلامية كلها وهو محور منهجها التربوى كله .. ومنه تتفرع كل التشريعات والتوجيهات ومنه تسير الحياة الانسانية على نهجها القويم .. لذلك كله كان هذا الرد آية من آيات إعجاز القرآن الكريم .

---

(١) سورة ق ١٦ .

فنظرة تدبر وإمعان في آيات القرآن العظيم نجد أن وسائله النفسية تتجه إلى النفس البشرية في اتجاهين أساسيين : (الترغيب) (والترهيب) ، وبهما يؤثر تأثيرا قويا في كل أنشطتها ..

فالقرآن يربط توجيهاته كلها في أوامره ونواهيه — بهذا الخط النفسي أو ذاك بجتمعين ، ويكرر ذلك تكراراً حتى تتلازم في أعماق النفس ، ويصبح هذا التلازم قوة شعورية ولا شعورية ، توجه الانسان إلى الخير ، وتبعده عن الشر .

فالخوف والرجاء بقوتهما واختلاطهما بالكيان البشرى كله فى أعماقه ، يوجهان — في الواقع — اتجاه الحياة ، ويحددان للانسان أهدافه وسلوكه ، ومشاعره وأفكاره . . فعلى قدر ما يخاف وقوع ما يخاف .. وعلى قدر ما يرجو حدوث ما يرجو ، يتخذ لنفسه منهج حياته ، ويوفق بين سلوكه وبين ما يرجو وما يخاف ..

فالذي يخاف الموت لا يتقدم ، والذى يخاف الفقر يحمل همه المال . والذى يخاف السلطان يتحاشى كل عمل يعرضه للصدام ، والذى يخاف المرية يفر من المعركة ..

والذى لا يخاف شيئا من هذا كله فهو متحرر منه ، طلق من ضغط الخوف عليه ، مقتحم متمكن غلاب ..

وهكذا يتحرك القرآن — في النفس البشرية — بهذين الخطين الرجاء والخوف فيوقع على هذين الوترين ما يرى النفس ويشفيها من انحرافها ، ويقويها ويقومها ، ويضعها في وضعها الصحيح .

والقرآن حين يعمد إلى هذين الخطين : الخوف والرجاء ينفض أولا عنهما كل خوف فاسد . . وكل رجاء منحرف ، ثم يعمد إليهما بعد ذلك فيوقع عليهما الإيقاع الصحيح .

ينفض من وتر الخوف أولا كل مايرهق كاهل الإنسان من مخاوف زائفة . . ينفض عنه الخوف من الموت . . إذ أنه لاقيمة له أهو يؤخر الأجل . أو يغير المكتوب ؟ كلا .. وما دام الخوف لايغير شيئا من القدر — فهو إذن أمر لايليق، إنه تبديد للطاقة ، وتدمير للكيان بلا نتيجة .

لذلك يكرر القرآن هذه الحقيقة فى صور شتى ، وإيقاعات متنوعة .

— « أنا نحن نحى ونميت وإلينا المصير » (١)

— « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » (٢)

— « كل نفس ذائقة الموت » (٣)

ثم إن الحذر من الموت لايجدى ، ولن يغير شيئا مما قـــدر ..

- أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » (٤)

- (قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتـــل إلى مضاجعهم) (٥)

- وإذن فالخوف من الموت لايجوز أن يكون .
والخوف على الرزق كذلك

- (قل : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أمن يملك السمع والابصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الامر ؟ فسيقولون الله) (٦) .

- (قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟ قل الله ؟ (٧) .

(١) ق ٤٣
(٢) المنافقون ١١
(٣) العنكبوت ٥٧
(٤) النساء ٨٧
(٥) آل عمران ١٥٤
(٦) يونس ٣١
(٧) سبأ ٢٤

- (هل من خالقٍ غيرُ الله يرزقكم من السماء والأرض) (١)

- (أو لم يروا أنَّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) (٢)

- (وفي السماء رزقكم وما توعدون) (٣)

- (أن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين) (٤)

وكذلك الخوف من مكر الناس وأذاهم .. والخوف مما توقعه بالإنسان قوى الأرض ..

- (قلْ لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكّل المؤمنون) (٥)

- قل : لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرا إلا ماشاء الله) (٦) .

- وإنْ تصبهم حسنةٌ يقولوا هذه من عندالله ، وإن تصبهم سيئةٌ يقولوا هذه من عندك قل : كلٌّ من عند الله) (٧)

- (قل : مَن ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفيةً لئن أنجانا منْ هذه لنكوننّ من الشاكرينْ ؟ قل الله ينجيكم منها ومنْ كلِّ كربٍ ثمّ أنتم تشركون . » (٨)

---

(١) فاطر ٣
(٢) ؛ وم ٣٧
(٣) الذاريات ٢٢
(٤) الذاريات ٥٨
(٥) التوبة ٥١
(٦) الأعراف ١٨٨
(٧) النساء ٧٨
(٨) الأنعام ٦٣ - ٦٤

وكذلك الخوف من النتائج المجهولة المبنية على حاضر معلوم :

(وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم) (١)

(فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيرا) (٢)

(لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) (٣) .

وهكذا يتناول القرآن كل المخاوف البشرية الزائفة واحدا واحدا فينفضها عن النفس، ويرفع عنها إصرها ، ليطلقها تواجه الحياة قوية عزيزة ، مطمئنة إلى قدر الله .

ثم يمسك القرآن وتر الخوف الفطرى فى النفس البشرية فيوقع عليه نغمة الخوف الأصلية التى ينبغى أن تصدر عن هذا الكيان .

أن قوى الأرض جميعا لاتخيف - أو - لاينبغى لها أن تخيف ، لأنها قوى مسخرة لاتستمد من نفسها ولا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا .

إنما القوة التى ينبغى أن تخاف حقا .. هى القوة التى بيدها كل شىء هى المانحة حقا ، وهى المانعة حقا . . وإذن فخوفها هو الخوف الواجب، فالخوف ينبغى أن يكون من الله وعما يخوف به الله .

(إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) (٤) .

(أليس الله بكافٍ عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله فما له من هادٍ)(٥)

(قل إنىّ أخاف ان عصيت ربىّ عذاب يوم عظيم) (٦)

(يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيرا) (٧)

---

(١) البقرة ٢١٦

(٢) النساء ١٩

(٣) الطلاق ١

(٤) آل عمران ١٧٥

(٥) الزمر ٣٦ (٦) الانعام ١٥

(٧) الإنسان ٧

(إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً) (١)

أما هذا اليوم — (الذى كان شره مستطيرا) وهو أخوف ما تخافه النفس الانسانية فهو أوسع أبواب التخويف فى القرآن، والآيات التى تذكر عذاب الآخرة كثيرة .. كثيرة — مبثوثة فى تضاعيف القرآن بحيث لا تحتاج إلى بيان ، ولكن يكفى أن نشير هنا إلى حقيقة بارزة وهى :

أن هذه الآيات القرآنية تشمل جميع أنواع التخويف.. وكذلك جميع المستويات . ولقد يغلب على الظن أن العذاب الحسى هو أداة التخويف الوحيدة فى القرآن ..

من مثل قوله تعالى :

— (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم ناراً كلَّما نضجت جلودُهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) (٢) .

وقوله جل وعلا : (فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة)(٣)

وقوله عز شأنه : (خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ، انه كان لا يؤمنُ بالله العظيم ، ولا يحضُّ على طعام المسكين ، فليس له اليوم ها هنا حميمٌ . ولا طعــامٌ إلاّ من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون)(٤) .

ولكن الحق — ان أدوات التخويف كثيرة ، وصورها متعددة فالقرآن تارة يمزج العذاب الحسى بالعذاب النفسى المعنوى ..

من مثل قوله تعالى :

---

(١) الانسان ١٠
(٢) سورة النساء ٥٦
(٣) البقرة ٢٤
(٤) الحاقة ٣٠

« فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » (١) .

فهنا وصف مفزع لشدة العذاب ، حسى كله إلا فى كلمة « غم » . فهى هنا تلقى ظلال العذاب النفسى ، بجانب العذاب الجسدى الفظيع .

وتارة يغلب العذاب النفسى المعنوى : من مثل قوله تعالى :

« نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة » (٢) .

فليس الوجه البارز للنار هنا هو عذابها الحسى ، وإنما هو إطلاعها على الأفئدة ، وبما يحدثه ذلك من رهبة فى القلب وروعة فى النفس ، حين تفتح النار عيونها وترسل من خلال النفس على الأسرار .

وتارة هو عذاب معنوى نفسى خالص . . من مثل قوله تعالى :

« يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » (٣) .

« يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » (٤) .

وقوله تعالى : « إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد » (٥)

---

(١) الحج ١٩ — ٢٢ (٢) الهمزة ٦ — ٧
(٣) الانفطار ١٩ (٤) عبس ٣٤ — ٣٧
(٥) الحج ١ — ٢

فالهول هنا كله نفسي .. تتذاوب تحته النفس ، وتنسحق سحقا دون ذكر لعذاب الأجسام.

وقد يرتفع العذاب النفسي في بعض المواقع إلى قمة المعنويات :

حيث يقول الحق تبارك وتعالى : (لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم(١)

ويقول أيضاً : (ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم)(٢)

وهكذا يشمل العذاب النفسي جميع الدرجات وجميع المستويات . .

ان الناس — كما عرفهم القرآن - ليسوا سواسية في تركيبهم النفسي منهم الحسيون الذين يأخذون الحياة عن طريق الحس والحواس ، وهؤلاء هم أغلبية البشرية ، ومنهم قلة ترتفع عن ذلك المستوى المادي فتهمها المواقف النفسية والحالات المعنوية وتؤثر فيها . .

من هنا كانت نظرة القرآن الى الناس ، كل حسب مواصفاته ومن ثم وقع القرآن على وتر الخوف جميع الأنغام ، وجميع المستويات ليشمل الناس كلهم من جهة ، ويشمل كل واحد في جميع حالاته من جهة أخرى .

وهنا تظهر عظمة القرآن الكريم ... ويبرز وجه الاعجاز النفسي فيه . .

---

(١) البقرة ١٧٤ . (٢) آل عمران .

٧ - فى تقويم الإنسان

فهم القرآن معادنَ الناس ، وحدّد تراكيبها ، وبيّن خواصها ومعاييرها وأدرك أن الناس ليسوا سواسية فى مفاهيمهم بل يختلفون فى تركيبهم النفسى ، فبعضهم حسيون يتأثرون بالواقع المحسوس .. أى بالماديات ، وبعضهم يرتفع عن هـــذا المستوى المادى الصرف ، فيتأثر بالمواقف النفسية ، والحالات المعنوية الوجدانية .

هكذا فهم القرآن الكائن البشرى .. الإنسان .

ومن ثمَّ عامل كل نوع باختلاف المؤثرات التى تنبع فى التأثير فيه ، ويكون لها صدى فتراه يخاطب الحسيين تارة ... ويلـــح للمعنويين تارة أخرى .. أو هو يعامل الحسيين بالطريقة التى يتأثرون بها ، ويعامل النفسيين المعنويين بالتلميحات التى تؤثر فى وجداناتهم فيتجاوبون معها ..

يوقع على وتر الترهيب تارة ، ويعزف على وتر الترغيب أخرى .

والقرآن بهذا الفهم الشامل ، لا يدع شخصاً واحداً دون أن يحرك مشاعره بالطريقة التى يفهمها . والنغم الذى يناسبه وبالقدر الذى يطيقه ويؤثر فيه . ومن هنا كان القرآن أهم مرجع لفهم ودراسة النفس الإنسانية لأنه أول من استغل كل مقومات علم النفس بمعناه ومصطلحه الحديث فى معالجة الإنسان وتقويمه منذ أربعة عشر قرنا من الزمان وليس كما يدّعى المدّعون ، ويزيف المزيفون مخترعو وواضعو العلوم الوضعية .

ولما كان القرآن الكريم يبدأ دائماً بالخير ويقدم الوسائل الترغيبية لهدى النفس البشرية .. فإننا نجد أن عنصر الرجاء هو أول العنـــاصر التى يسعى إلى إلى وضعها بين يدى الإنسان لكى يعرف ربه ، ويؤمن بقدرته ، ويقتنع بأن ما عند الله خير وأبقى وأنه النافع لكل الناس ، لذا فهو أولى بالتعظيم والتنزيه .

فمثلا نجد أن القرآن وهو فى سبيله إلى ترغيب الإنسان .. يبدأ بتحويل رجائه من الآمال الواهية ، والقيم الزائفة .. ليوجهه بعد ذلك إلى القيم الحقيقية قيم الخير والإيمان ، وليضعه على الطريق الصحيح ولما كان البشر جميعاً يرجون

ألوان النعيم المادى ، ويبغون أنواع المتاع الحسى . المال والبنين والشهوات والجاه ، والعز والسلطان والقوة فإننا نجد أن القرآن يطرق هذه الأبواب جميعا ، بل ويفتحها أمامهم .

فهو لايحرم المتاع الشريف ، ولا يدعو إلى الرهبنة أو الانصراف عن شئون الارض ، بل يدعو إلى ذلك المتاع ويستنكر تحريمه . .

« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ (١) ،

بيد أن القرآن لا يحب للنـــاس الانغماس فى الشهوات ، فتفتنهم عن القيم الحقيقية الباقية الخالدة ، حين يزول هذا المتاع الدنيوى ومن هنا فهو دائما يذكر ويركز على أن « الباقيات الصالحات خير وأبقى » وأن ما عند الله لا يفنى . .

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » .(٢)

« الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً » . (٣)

« وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِىِّ

---

(١) سورة الاعراف الآية ٢٦ .

(٢) سورة آل عمران ، الأيتان ١٤، ١٥ :

(٣) الكهف ٤٦

يريدُون وَجهَهُ ، ولا تعدُ عيناكَ عَنهُم تُريد زِينةَ الحياةِ الدُّنيا ».(١)

« قُل متاعُ الدُّنيا قليل ، والآخرةُ خيرٌ لمن اتّقَى » (٢) .

« وأنّ الدّار الآخرةَ لهِيَ الحَيوانُ لوْ كانُوا يَعلمُون » (٣) .

« وإنْ كلُّ ذلكَ لمَّا متاعُ الحياةِ الدُّنيا والآخرةُ عندَ ربِّكَ للمُتّقين »(٤)

إنه يوجه القلب البشرى ، النفس الإنسانية ألا تفتن بالمتع الدنيوية ويوجهها أن ترجو — فى الدنيا أو فى الآخرة — وجه الله ، وأن تتطلع إلى رضاه .. وإذا كان عذاب الآخرة أوسع مراحل التخويف والترهيب للنفس البشرية .. فإن القرآن يرجئه ليقدم عليه أولا عوامل الترغيب ، بأن نعيم الآخرة أوسع أبواب الرجاء ، حيث النعيم المقيم .. الخالد الباقى أبداً .

والقرآن الكريم — حين يتحدث عن النعيم ، لا يتناول النعيم الحسى وحده ، أو النعيم المعنوى وحده ، بل إنه فى كثير من الأحيان — إن لم يكن فى كل الأحيان — يقدم للإنسان النعيمين معاً ، مقترنين ممتزجين ، لكى يحقق كل إنسان مراده ، ويجد ما يرضى ذاته .

فالنعيم الحسى المادى يقدمه فى صورة الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين . « على سُرُرٍ موضُونة ، متّكئين عليها متقابلين ، يطُوف عليهم ولدانٌ مُخلّدُون ، بأكوابٍ وأباريق ، وكأسٍ منْ معينْ ، لا يُصدّعُون عنهَا ولا ينزفُون ، وفاكهةٍ ممَّا يتخيّرُون ، ولحمِ طيرٍ ممَّا يشتهُون ، وحُورٍ عِين ، كأمثالِ اللؤْلؤ المكنُون ،

---

(١) الكهف ٢٨ .

(٢) سورة النساء الآية ٧٧ .

(٣) سورة العنكبوت ٦٤ .

(٤) سورة الزخرف ٣٥

جزاءً بما كانوا يعملُون »(١)

ثم يعقب هذه الصورة الحسية الملموسة .. بصورة أخرى معنوية روحية .

فالآيات السابقة — وهي أشد مشاهد هذا النعيم حسيه في القرآن يجيء بعدها ، « جزاءً بمَا كانُوا يعملونَ ، لا يَسْمَعُون فِيهَا لغواً ولا تأثِيماً ، إلاّ قِيلاً سلاماً سلاماً » فينقل الإنسان من هذا الجو الحسي المادي .. إلى ذلك الجو المطهر ، الذي لا لغو فيه ولا تأثيم ..

والذي يشمل النفوس فيه سلام يتردد صداه في جنبات الجنان ..

واستمع إلى قوله تعالى :

« إنَّ اللهَ يُدْخِل الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ جنَّاتٍ تجري مِنْ تحتِها الأنهَارُ ، يُحلَّوْن فِيها منْ أساوِرَ منْ ذَهَبٍ ولؤْلؤاً ، ولباسُهُمْ فيها حَرِيرٌ وهدوا إلى الطيِّبِ منَ القوْلِ وهدُوا إلى صراطِ الحمِيدِ »(٢) .

« إنَّ الأبْرارَ لفِي نعيمٍ ، علَى الأرائِكِ ينظرُون ، تعرِفُ في وجوهِهمْ نضْرةَ النَّعيم »(٣) .

« وُجوهٌ يوْمئذٍ ناعِمةٌ لسعْيها راضيةٌ ، في جنَّةٍ عاليةٍ ، لا تسمعُ فيها لاغيةً ، فيها عينٌ جارِيةٌ فيها سُرُرٌ مرفوعةٌ ، وأكوابٌ موضوعةٌ ونمارِقُ مصفوفةٌ ، وزرابيُّ مبثوثةٌ »(٤)

وهكذا دائماً يجيء مظاهر النعيم المعنوي ، ممتزجة بألوان النعيم الحسي ...

---

(١) سورة الواقعة الآيات من ١٥ — ٢٤ .
(٢) سورة الحج ٢٤ .
(٣) سورة المطففين الآيات ٢٢ — ٢٤ .
(٤) سورة الغاشية الآيات ٨ — ١٦ .

بل إننا نجد أن النعيم الروحي الخالص قد يتبدى فى آيات القرآن .. حتى لا تشوبه شائبة من متاع حسى . « يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي » (١) .

إن النفس المطمئنة — فى رحاب الله وملكوته ، والله ينادى هذه النفس فيقول لها : « إرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً » ، ثم يحيطها برعايته العلويه الشفيقة فيقول لها :

« أدْخُلِي فِي عِبَادِي .. وادْخُلِي جَنَّتِي » بما فى الإضافة إليه سبحانه من تقريب وتكريم .

ويرتبط بها أيضاً قوله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا »(٢)

فهنا نجد أن النعيم يرتفع ويسمو حتى يصبح « وُدًّا » من الله لعباده وذلك أروع مظاهر المتاع ، وأبلغ أنواع الترغيب فى الإيمان بالله وفى تقـديره حق قدره ، وتعظيمه جل شأنه .

هكذا يخاطب القرآن النفس البشرية : أيـا كانت ميـولها ، وأياً كانت مفاهيمها ، فمن النفوس البشرية من تأخذ الحياة حسًّا ، ومن النفوس البشرية من تأخذ الحياة معنى وكل امرىء إلى جانب ذلك تعتوره هذه الحالة أو تلك ، أو يمزج بينهما فى اللحظة الواحدة ، ومن ثمّ جاء التوقيع القرآنى أنغاماً شتىّ على ذلك الوتر الواحد ، فشمل الحسيات والمعنويات جميعاً ، وكما أن وصف

---

(١) سورة الفجر الآيات ٢٧ — ٣٠ .

(٢) سورة مريم ٩٦ ،

القرآن للنعيم الحسى يعطيه دائماً طعماً خاصاً حبيباً حتى للذين لا يكفلون كثيراً بعالم الحس والمادة .

وهكذا يمسك القرآن بزمام النفس البشرية ، حتى يقومها ، فيعدها ويمنيها فإذا لم تتجاوب وإذا لم تذعن ، فإنه حينئذ يلجأ إلى تخويفها وترهيبها ، وفيما بين ذلك الترغيب يغرس فيها كل البذور الصالحة التي يقصد إلى غرسها فى أعماق النفوس .

---

٨ – فى الإيمان بالغيب

.. فى فطرة الإنسان طاقتان متقابلتان طاقة الحقيقة وطاقة ما وراء الحقيقة أو قل طاقة الواقع .. وطاقة الخيال ولكى يحقق الإنسان كيانه كله ، ينبغى أن تعمل فيه هذه الطاقة وتلك ، وأن يمارس نشاطه هنا وهناك ..

ولقد تعاقبت على العالم الأرضى – الذى نعيش فيه – نظما شتى ، تقلبت بين الخيال والواقع ، تجنح هنا مرة ، وتميل هناك أخرى ، ولا تتوازن فى معظم الحالات ..

إن العالم اليوم يعانى موجة من الواقعية البغيضة ، وقد جاءت هذه الواقعية بعد أن عاش فترة فى محيط الرومانتيكية المغرقة فى الخيال ، وفى نظر القرآن العظيم .. كلاهما إنحراف .. الواقعية والرومانتيكية .. نعم .. كانت الرومانتيكية تهمل واقع الأرض وتهيم فى الأحلام .. والواقعية اليوم تتنكب الأحلام عمداً ، وتجنح إلى الواقع الصغير ، المحدود الذى تدركه الحواس ، ويمارسه الناس ..

وهم واقعون تحت ضغط المادية المسيطرة ، واقعون تحت ضغط الضرورة لا منفلتين منها ، ولا مترفعين عليها .. واقع المادية الحيوانية ..

إن هذا الواقع الصغير – المحدود النطاق – الذى رسمته النظريات الاوروبية التى تؤمن بتفرد الإنسان ، لينتهى بالحياة عند المطالب القريبة التى تحتمها الضرورة ، ولا يرتفع عن ذلك ، ولا يحلم بما هو أجمل أو أكمل أو أفضل .

هذا الواقع يهبط بمستوى الإنسان ، ويضيق محيطه ، حتى يصل فى النهاية إلى جعل الإنسان آلة حيوانية ، يتصرف كما تتصرف الآلة ، ويعيش كما تعيش

الحيوان ، لأنه يعيش بجناح واحد ، جناح الواقع المحسوس ، ويقص جناحه الآخر جناح الخيال . .

أو قل — إنه يعيش بقدميه المربوطتين إلى الأرض ، ويقص جناحيه المحلقين فى السماء . من هنا قلنا — ونقول : إن الوروماتيكية والواقعية كلاهما إنحراف .

إن القرآن العظيم — كمهده دائماً — يجب أن يوجه ويرشد ، يجب أن يحدد الأصول ، ويقنن القوانين . . لذلك فهو دائماً يجب أن يستغل الطاقات البشرية جميعاً ويوقّع على كلّ أوتار النفس الإنسانية ليصل من ذلك إلى التوازن فى الكيان البشرى ، وليحقق تنمية هذا الكيان ، وتوسيع آفاقه ليليق ببنى الإنسان .

من أجل ذلك — يُوقّع على الوترين المتقابلين ، كل فى نطاقه ، وكل بما يصلح له أو " قل " : يستغل الطاقات المتقابلة فى الإنسان ، تلك الطاقات الفطرية التى تشكل كيانه وتحرك وجدانه ، وتربطه وثيقاً بقدرة الله الخالق . .

ومن هذه الطاقات .. طاقتان فطريتان : ما تدركه الحواس — ومالاتدركه الحواس كلتاهما إنسانية أساسية ، لأن الحيوان لايؤمن بشيء من الأشياء ومع ذلك فالإيمان بما تدركه الحواس ليس هو مزيّة الإنسان العظمى إذ هو أقرب فى طبيعته للطاقة الحسية المشتركة بين الإنسان والحيوان .، أما القدرة على الإيمان بعالم الغيب ، بما لا تدركه الحواس ، فهو المزية الأساسية للكائن البشرى ، والموهبة العظمى التى وهبها الله للإنسان .

هذه بديهية يؤيدها العلم التجريبى الحديث — كما ذكر جوليان هكسلى ومع ذلك . . فإن الجاهلية الاوربية الحديثة ، تطمس بصيرة الإنسان فى هذا الجانب وتقلص كيانه ، وتحصره فى محيط ما تدركه الحواس وحده ... وتزعم أن هذه هى الواقعية (الريالزم) فحقيقة العالم تنحصر فى ماديته . كما يقول المذهب المادى الماركسى .

إن القرآن العظيم .. يعترف بالطاقات الإنسانية جميعاً . ويعطى كل طاقة منها ما يصلح لها من الغذاء ..

فإذا كان الإنسان يمين للإيمان بما تدركه الحواس .. فإنه يعطى غذاء لهذه الطاقة .. الكونَ المادى كله بما فيه من محسوسات وملموسات . .

الكون المادى مفتوح أمام الإنسان ، تدركه حواسه مباشرة بالعين والأذن والشم والذوق واللمس .. أو تدركه بواسطة الآلات المقربة أو المكبرة أو المجسمة . .

وهذا الكون المادى مبسوط أمام تجارب الإنسان ومحاولاته لاستغلال طاقته . . وليست المسائل المادية الغربية هى التى اخترعت هذا الاختراع أو اكتشفته فى القرن العشرين ، فنحن نعرف — أن المذهب التجريبى الحديث إنما هو منقول إلى أوربا على يد الباحثين المسلمين ، وأن ملاحظاتهم العلمية والتفصيلية الدقيقة — هى التى مهّدت للعلم الحديث سبيل الظهور .

لقد كان علماء المسلمين — بتوجيه دينهم المتمشى مع الفطرة — يؤمنون بالكون المادى ، والطاقة المادية فى الإنسان ، ويتدبرون دقائق هذا الكون ويستنبطون قوانينه ، ويستغلون طاقاته ، وكانت علومهم فى هذا الباب علوماً حقيقية نافعة ويكفى أن نذكر أن الطب العربى كان يدرّس فى جامعات أوربا حتى القرن الثامن عشر ، وأن نظريات الحسن بن الهيثم فى البصريات كانت تدرّس هناك حتى القرن التاسع عشر ، وأما لفظة « الكيمياء » فى اللغات الأوربية كلها هى اللفظة العربية وأن كثيراً من ألفاظ الفلك عربية الأصل ..

وليس هذا هو المهم — إنما المهم حقاً أن نعرف أن القرآن العظيم — على طريقته الفذة — قد استغل « ما تدركه الحواس » استغلالا ضخماً فى تربية القلب البشرى ، وربطه بالله ، استغله حين وجه الأنظار إلى « الكون المادى » لتبصر فيه يد الله القادرة المبدعة ...

استغل الحواس كلها فى هذا الأمر، العين، والأذن، والشم، والذوق واللمس.

● فهو يوجه العين للإبصار:

«الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا» (١)

«أفلاَ يَنظُرُونَ إلى الإبلِ كيفَ خلقتْ؟ وَإلى السماءِ كيفَ رُفِعتْ وإلى الجبالِ كيفَ نُصِبتْ وإلى الأرْضِ كيفَ سُطِحت» (٢)

«ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ يُزجى سحاباً ثمَّ يُؤلِّف بينه، ثمَّ يجعله رُكاماً، فترى الودْقَ يَخرُجُ منْ خِلالِهِ وينزِّل منَ السَّماءِ منْ جِبالٍ فيها منْ بَرَدٍ فيُصيبُ بهِ مَنْ يَشاءُ ويصرفه عَنْ مَنْ يشاءُ يكادُ سَنا بَرْقهِ يَذهبُ بالأبصارِ» (٣).

«أنظرُوا إلىَ ثَمَرِهِ إذا أثمر وَيَنعِه» (٤).

● ويوجه الأذن للسمع:

«ويسبِّح الرَّعدُ بحمدِهِ» (٥)

«أوْ كصيِّبٍ منَ السَّماءِ فيهِ ظلماتٌ ورعدٌ وَبَرْقٌ يَجعلونَ أصابعهُمْ فى آذانِهِمْ من الصَّواعقِ حذَرَ الموْتِ» (٦).

«بريحٍ صَرْصَرٍ عَاتية» (٧).

والذوق

«صِنْوانٌ وَغير صنوانٍ يُسقى بماءٍ وَاحدٍ، وَنفضِّل بعضها

---

(١) الرعد ٢ (٢) الغاشية الآيات ١٧ — ٢٠.

(٣) النور ٤٣ (٤) الأنعام ٩٩

(٥) الرعد ١٣ (٦) البقرة ١٩.

(٧) الحاقة ٧

عن بعض في الأكل »(١) .

« فقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين » (٢) .

وهكذا ينبه القرآن كل حاسة من حواس الجسم ويعطيها عملها سواء في تدبير المعاش ، واستخراج الطاقة المادية واستغلالها لصالح الإنسان ، أو في الاطلاع على آيات الله في الكون وتدبير قدرته المعجزة في الخليقة .

ولا يستطيع أي مذهب مادي أن يزعم — أنه يستطيع أن يستغل الحواس وما تدركه الحواس أكثر مما فعل القرآن .

وليت الغرب المادي وقف عند هذا الأمر وسكت ...

ولكنه وقف عند هذه الحقيقة القريبة .. وأنكر ما لاتدركه الحواس أنكر « الروح » لأنه لا يراها ولا يسمعها ولا يذوقها ولا يلمسها . وأنكر « الله » « فالله لا تدركه الابصار » (٣) ، ولا تدركه بقية الحواس ، ومن ثم فهو في حساب الغرب المادي غير موجود ، أو هو من باب الذكرى — موجود ولكن على هامش الحياة . وهامش الوجدان ، سبحانه وتعالى عما يصفون كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ..

إنها النكسة الزرية البغيضة التي تعانيها الجاهلية اليوم بأبشع مما كانت تعانيها بالأمس ، فربما كانت للجاهلية القديمة أعذار من الجهل والتأخر واستغلاق العقول ..

أما الجاهلية الجديدة — فهي تزعم أنها « تعلم » .

« يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون »(٤)

---

(١) الرعد ٤ (٢) النحل ٦٦ (٣) الأنعام ١٠٣

(٤) الروم ٧

وقد وصل الغرب فى نكسته من عدم الإيمان بالروح ، وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر .. وصل إلى الدرك الذى لا هبوط بعده ، وارتكاس دونه، وصل إلى الحيوانية الكاملة فى كل شيء ، فى الأخلاق . . فى السياسة وفى كل مناحى الحيـــاة ..

هذه الإباحية الخلقية التى تدنّس وجه الأرض . . هذه المذابح البشرية القائمة فى كل مكان .. هذا الصراع المجنون على متاع الأرض الحسى ، هذه اللهفة الدائمة والقلق الدائم ، والاضطراب ، هذا الشد والجذب الذى يفسد الأعصاب ويهدد الكيان ...

— إنها النتيجة الحتمية لإنكار وجود الله وإنكار اليوم الآخر وإنكار الروح ..؟

— النتيجة الحتمية لمعاكسة الفطرة ، وعدم الإيمان بما لا تدركه الحواس .

والقرآن الكريم .. كلمة الله للناس .. حاشا أن يقع فى هذه الخطيئة ، خطيئة معاكسة الفطرة ، وسد منافذ النفس البشرية كلها إلا منفذ الحواس . .

استمع إلى قول الحق تبارك وتعالى :

« ألم . . ذلِكَ الكِتَابُ لا رَيبَ فيه هُدًى للمتّقين ، الذينَ يُؤمِنُونَ بالغيبِ ويقيمونَ الصّلاة ومِمّا رزقناهمْ ينفقونْ » (١) .

أول صفة المؤمنين — هى أنهم يؤمنون بالغيب ، وذلك حق من جميـــع جوانبه ونواحيه ..

فالله سبحانه بالنسبة للحواس البشرية «غيب» ، والمؤمنون يؤمنون بالله .. بالغيب — وإن كانت الروح — لا الحواس تتصل به مباشرة بالطريقة التى فطرها الله عليها ، وتحس إحساساً بيّناً بذلك الاتصال . .

---

(١) البقرة ١ — ٣

ومن جهـة أخرى — فالمؤمن : هو الإنسان الكامل . . الإنسان الذى يساوق فطرته كلها والذى يلبي من هذه الفطرة إيمانها بما لا تدركه الحواس ، وهو الجانب الذى تدركه الأرواح .

وقد جعل القرآن العظيم — الإيمان بالغيب قاعدة الإيمان كله وقاعدة الحياة البشرية كلها ، لأنه لا يستقيم فى الواقع وجود للانسانية بغير هـذا الإيمان — كما رأينا فى هذه الجاهلية الأوروبية الحديثة . . فى هذا الزمان . ولـكن القرآن لم يقتصر الإيمان بالغيب على الله سبحانه واليوم الآخر والملائكة . . وهى قواعد العقيدة التى لا بد منها لصلاح الأمور على الأرض . .

. بل أعطى تلك الطاقة الإيمانية غذاء آخر خصيباً فى ذكر الجن والشيطان

إن الشيطان فى العقيدة الإسلامية شخصية تـكاد — من بروز ملامحها — أن تـكون ملموسة — والقرآن يوجه القلب فى مواضع كثيرة إلى الحذر من هـذا الشيطان الذى « يَراكُمْ هُوَ وقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ » (١) .

— ويوجهه أيضاً إلى مخاصمته ، وإعلان الحرب عليه لقاء تسببه فى إخراج آدم من الجنة وتوعده بإغواء بنيه وادخالهم إلى الجحيم . .

والأوصاف الحية « لشيطنة » الشيطان تجعله — كما قلنا — شخصية بارزة الملامح ، واضحة السمات . .

« وإذْ زَيَّنَ لهمُ الشيطانُ أعمالَهم وقالَ لا غالبَ لكمُ اليومَ منَ النَّاسِ وإنِّى جارٌ لكمْ ، فلمَّا تراءتِ الفئتانِ نكصَ على عَقِبيه وقالَ إنِّى بَرِىءٌ منكمْ إنِّى أرَى ما لا تَروْنَ ، إنِّى أخافُ الله ، واللهُ شديدُ العقابِ » (٢) .

---

(١) الأعراف ٢٧
(٢) الأنفال ٤٨

« وقالَ الشيطانُ لما قُضِيَ الأمرُ إنَّ اللهَ وعدكمْ وعدَ الحقِّ ووعدتكم فأخلفتكمْ وما كانَ ليَ عليكمْ منْ سلطانٍ إلاَّ أنْ دعوتكمْ فاستجبتمْ لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكمْ ما أنا بمصرخكمْ وما أنتمْ بمصرخيَّ ، إنِّي كفرتُ بما أشركتمونِ منْ قبلُ إنَّ الظالمين لهمْ عذابٌ أليمٌ »⁽٣⁾.

وواضح — أن الشيطان يؤدي دوراً في العقيدة الإيمانية ، لتوجيه الطاقة البشرية لمكافحة الشر في نفوسهم ، وفي نفوس الآخرين ، لتصلح القلوب وتصلح الحياة .

ولكن دور الجن في العقيدة ليس كذلك

« قلْ : أوحيَ إليَّ أنه استمعَ نفرٌ منَ الجنِّ فقالوا : إنا سمعنا قرآناً عجباً ، يهدي إلى الرُّشد فآمنا به ولنْ نشركَ بربِّنا أحداً وأنَّهُ تعالى جدُّ ربنا ما اتخذ صاحبةً ولا ولداً ، وأنه كانَ يقولُ سفيهنا علىَ اللهِ شططاً ، وأنا ظننا أنْ لنْ تقولَ الإنسُ والجنُّ علىَ اللهِ كــذباً ، وأنه كانَ رجالٌ منَ الإنسِ يعوذونَ برجالٍ من الجنِّ فزادوهمْ رهقاً ، وأنهمْ ظنوا كما ظننتمْ أنْ لنْ يبعثَ اللهُ أحداً ، وأنا لمسنا السماءَ فوجدناها ملئتْ حرساً شديداً وشهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعدَ للسمعِ ، فمنْ يستمعِ الآن يجدْ لهُ شهاباً رصداً وإنا لا ندري أشرٌّ أريدَ بمنْ في الأرضِ أمْ أرادَ بهمْ ربُّهمْ رشداً وإنا منَّا الصَّالحون ومنا دُون ذلك كنَّا طرائق قِدداً ، وإنا ظننا أنْ لنْ نُعجز الله في الأرضِ ولنْ نُعجزه هرباً ، وإنا لما سمعنا الهُدى آمنا بهِ فمنْ يؤمنْ بربه فلاَ يخافُ بخساً ولا رهقاً ، وإنا

(٣) إبراهيم ٢٢ .

منّا المسلمون ومنّا القاسطون . فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشداً .(١)

هذه الإشارة المفصلة فى سورة الجن — والإشارة العابرة فى سورة الأحقاف ليس دورها فى العقيدة كدور الإيمان بالله واليوم الآخر — ولا كدور الشيطان . . وقد كان يمكن أن تستقيم العقيدة وتكتفى بدون ذكر الجن وهذه التفصيلات .. ولكن القرآن العظيم يساير الفطرة البشرية جميعاً ، ويصل إليها من كل منافذها . ولا يترك منفذاً واحداً صغيراً أو كبيراً يمكن أن ينفذ إليه دون يفعل ذلك .

والميل الفطرى إلى الإيمان بكائنات لا تدركها الحواس هو نافذة إلى النفس يمكن أن يلجها الإسلام ليصل منها إلى مكمن العقيدة فى النفس ، فيوقظها ويحييها ويزيد مساحتها . ، ومن أجل ذلك ذكر هذه الحقيقة ، حقيقة الجن — لا لأنها من قواعد العقيدة ولكن لأنها تغذى تلك الطاقة الفطرية البشرية التى يريد أن ينفذ إليها من كل باب . ولكن فلننظر — بأى قدر ذكرها ولأية نتيجة . لقد قلنا إن القرآن العظيم . . يوزع على كل وتر بقدر ما يصلح له وما يحتاج إليه وقد ذكر الجن فى هذين الموضعين — وفى قصة سليمان وفى مواضع أخرى عابرة لا ليشغل البشرية بأبحاث تفصيلية عن الجن وأعدادهم وأخلاقهم وعاداتهم . وطريقة اتصالاتهم بالإنس ، وكيفية تسخيرهم ، وحدود طاقاتهم . . إلى آخر هذه المباحث التى شغلت المسلمين فترة من الزمن .

إنها إشارة عابرة .. جاءت لتوسيع مساحة النفس . لتخرج الإنسان من دائرة حواسه الضيقة ، فيقرّر فى خلده أن الكون أوسع مما تراه حواسه وأشمل وأن لله آيات فى الكون لا يدركها الإنسان بحواسه أصلا ، ولكنها مع ذلك موجودة ، لعل ذلك أن يفتح بصيرته ويوحى إليه الإيمان .

ثم إن الجن — فى سورة الجن — وسورة الأحقاف — يقومون بالدعوة

(١) ... ١١ - ١٤

إلى الإسلام والايمان بالله . فهو لم يجىء ذكرهم لمجرد « الترفيه العقلى » وإنما الهدف جاد ، هو بيان أن كل خلق الله يؤمنون بالله ، ويسبحون بحمده ويدعون بدعوته . . إلا الضالين فمأواهم جهنم وعليهم لعنة الله — ومن ثم يؤدى ذكرهم دوراً فى العقيدة وإن كان بطريقة أخرى غير الدور الذى يؤديه الشيطان .

أما الايمان بالملائكة — فداخل فى أصل الايمان كما أسلفنا .

والقرآن العظيم يصل النفس بهم فى صور شتى : فهم آية من آيات القدرة الخالقة .

« الحمدُ لله فاطرِ السّماواتِ والأرضِ جاعلِ الملائكةِ رُسلاً أولي أجنحةٍ مثنى وثلاثَ ورباعَ ، يزيدُ في الخلقِ ما يشاءَ ، إنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قدير » (١)

وهم الذين ينزلون على قلوب البشر بوحى الله .

« نزل به الروحُ الأمينُ على قلبك لتكون من المنذرين » (٢)

« يُلقى الرُّوحَ منْ أمره على منْ يشاءُ منْ عباده ليُنذر يومَ التَّلاق » (٣)

وهم جند الله . . يجندون فى طاعة الله :

« لا يعصُون الله ما أمرهُم ، ويفعلون ما يُؤمرُون » (٤)

وهم يستغفرون للمؤمنين .

« الَّذين يحملُون العرش ومن حوله يُسبِّحُون بحمد ربِّهمْ ويُؤمنُون به ، ويستغفرون للَّذين آمنوا ، ربَّنا وسعت كلَّ شيءٍ

(١) فاطر ١
(٢) الشعراء ١٩٢ — ١٩٤ .
(٣) المؤمنون ١٥
(٤) التحريم ٦

رحمةً وعلماً فاغفرْ للَّذين تابوا واتَّبعوا سبيلكْ وقِهِمْ عذابَ الجحيمْ » (١) .

وهو بالجملة صورة وضيئة من الايمان الخالص تفسرى بالحب وتوحى بالتطهر والارتفاع ، وبهذا وذاك ينفذ القرآن إلى النفس عن طريق إيمانها بما تدركه الحواس ، وايمانها بما لا تدركه الحواس ، فيكون قد حقق لها كيانها الأكمل ، ويكون قد نفذ إليها من منافذها كلها .. وهداها إلى الله .

وهذه آية أخرى من آيات الاعجاز القرآنى .. آية تشيد بقدرة العلى القدير العليم الخبير ..

---

(١) غافر ٧

الباب الثاني

مباحث في موضوعات القرآن

١ ــ الوحي

٢ ــ الليلة المباركة

٣ ــ فواتح السور

٤ ــ المناسبة بين السور والآيات

٥ ــ الإيقاع الصوتي

٦ ــ الكلمة القرآنية

٧ ــ القصة القرآنية

٨ ــ الأمثال القرآنية

٩ ــ الفواصل القرآنية

١٠ ــ الصورة القرآنية

١ ــ الوحى

أرسل الحق ــ سبحانه ــ رسله « مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . وختمهم بالنبى الأمى ، العربى المكى ، الهادى لأوضح السبل ، أرسله إلى جميع خلقه من الانس والجن من لدن بعثته إلى قيام الساعة كما قال الله تعالى : « قُلْ يا أيها الناسُ إنّى رسول الله إليكمْ جميعاً ، الذى له مُلكُ السّموات والأرض لا إله إلا هو يُحيي ويميت . فآمنوا بالله ورسولهِ النبيّ الأميّ الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » .

وكما قال الرسول الأمين ــ صلى الله عليه وسلم ــ « بُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود » قال مجاهد : يعنى الإنس والجن . . فهو صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن ، مبلغاً لهم عن الله تعالى ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز « الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

ــ فما هو الوحىّ ؟ وما معناه ؟

ــ وهل كان الوحى ضرورة لتبليغ الرسالات ؟

ــ وما هى الكيفية التى كان يتصل بها الله عز وجل برسله ؟

ــ وكيف أوحى الحق سبحانه إلى رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم ؟

معنى الوحي :

جاء في المعجم الوسيط مادة (وحى)(١) ما يلي :

أوْحى إليه .. وله : أشار وأومأ ، وأوْحى إليـــه : كلّمه بكلام يخفى على غيره .. وأرسل إليه .. وألهمه ..

والوحي : كل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه ، وما يُوحيه الله إلى أنبيائه .

وفي القاموس المحيط : الوحي الاشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والالهام والكلام الخفي .

وقال الراغب : : أصل الوحي : الاشارة السريعة ، ولتضمن السرعة قيل : أمرٌ وحيٌ يعني سريع ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقـــد يكون بصوت مجرد عن التركيب ، وبإشارة بعض الجوارح .. وبالكتابة ..

• وقد ورد لفظ الوحي ومشتقاته في القرآن العظيم ٧٨ مرة ، وبمعـــان كثيرة ولكنها لا تخرجُ عن المعاني اللغوية التي وجدناها في المعاجم .

فقد ورد بمعنى الاشارة والايماء في قوله سبحانه : (فأوْحى إليهم أن سبحُوا بكرةً وعشيًّا) (٢) .

وورد بمعنى الإعلام في الخفاء — أي أن تُعلم إنساناً بأمرٍ ما لا تريد أحداً يعلمه ، في قوله سبحانه : (وكذلك جعلنا لكلّ شيءٍ عـــدوًّا شياطين الإنس والجنّ يوحي بعضُهم إلى بعض) (٣) ..

وورد بمعنى الالهام الذي يقع في النفس — في قوله عز وجل : (وأوحينا

---

(١) ج ٢ ص ١٠١٨

(٢) مريم ١١

(٣) الأنعام ١١٢

إلى أمّ موسى أنْ أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليمّ) (١) .

وقد ورد لفظ الوحى بمعنى « الكتاب والرسالة » لما فيهما من التخصيص فى قوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب) (٢) .

كما جاء لفظ الوحى بمعنى « الإسراع » — فى الحديث النبوى الشريف : (إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته ، فإن كانت شرًّا فانته ، وإن كان خيراً فتوحَّه) أى أسرع فى طلبه .

هذا هو المعنى اللغوى لفظ « الوحى » ومشتقاته كما جاء فى معاجم اللغة والقرآن العظيم .

فما هو وحى الله إلى أنبيائه ؟

قال العلماء . . هو الأمر الذى يلقيه إليهم . . أو هو الكلام الذى يلقيه إليهم من العلم الضرورى الذى يخفيه عن غيرهم بعد أن يكون قد أعدَّ أرواحهم لتلقى هذا الوحى . أما بواسطة كالملَك ، أو بغير واسطة كالالهام والرؤيا الصادقة . .

أو هو إعلام الله أنبياءه بما يريد أن يبلغه إليهم من شرع أو كتاب بواسطة أو غير واسطة ، فهو أخص من المعنى اللغوى لخصوص مصدره ومورده . فقد خصَّ المصدر بالله سبحانه ، وخصَّ المورد بالأنبياء . ويطلق عليه الوحى الشرعى (٣) .

وقال الزهرى : الوحى ما يُوحى الله إلى نبيٍّ من أنبيائه ، فيثبته فى قلبه فيتكلم به ويكتبه ، وهو كلام الله ، ومنه ما لا يتكلم به ولا يكتبه

---

(١) القصص ٧ (٢) الشورى ٥١

(٣) الدكتور محمد محمد أبو شهبة — كتابه المدخل لدراسة القرآن الكريم ص ٨٤ .

لأحد ، ولا يأمر بكتابته ، ولكن يحدث به الناس حديثاً . ويبين لهم أن الله أمره أن يبيّنه للناس ويبلغهم إياه) (١) .

أما الشيخ محمد عبده — فقد عرّفه فى رسالة التوحيد بأنه (عرفانٌ يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير بواسطة .. والاول : بصوت يتمثل بسمعه أو بغير صوت ، ويفرق بينه وبين الالهام ، بأن الالهام وجدان تستيقنه النفس ، وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور) .

هل كان الوحى ضرورياً لتبليغ الرسالات ؟

فى كتاب الله الكريم — القرآن العظيم — مجموعة غير قليلة من الآيات البينات التى تتحدث عن ضرورة الوحى الالهى وأهميته لرسل الله وأنبيائه الذين اصطفاهم وكلفهم بهداية البشرية على مر الأزمان .. وفى مختلف بقاع الأرض ..

● من مثل قول الحق سبحانه وتعالى : (ولوْ أنا أهلكناهمُ بعذاب من قبله لقالوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) (٢) .

● وقوله عز شأنه : (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) (٤) .

● وقوله جل وعلا : (وما كان ربّك مهلك القرى حتىّ يبعث فى أمّها رسولا) (٥) .

---

(١) معترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى ٢/٢١٤ .
(٢) طــه ١٢٤ (٣) القصص ٤٧
(٤) القصص ٥٩

● وقوله تعالى : (رُسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للنّاس على الله حُجة بعد الرُّسل)(١) .

● وقوله تبارك اسمه : (وماكنا مُعذّبين حتّى نبعث رسولاً)(٢)

ولقد تحدثت السنة المطهرة أيضاً عن ضرورة الوحي وأهميته . فقد أخرج الشيخان عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال :

(لا أحد أحب إليه العذْر من الله ، ومن أجل ذلك بَعث الرُّسل مُبشرين ومنذرين) .

وهنا نقف برهة لنصحح بعض المفاهيم ...

— فهم بعض أن « هداية العقل تغني عن هداية النبي » ... وذهبوا في تفسير قول الحق تبارك وتعالى (وماكنا مُعذّبين حتى نبعث رسولاً) بأن الرسول هو العقل .. وهو وهم تنفيه وتدحضه الآيات الكريمة الأخرى التي تحدثت عن الرُّسل ، والتي لا يمكن بحال من الأحوال تفسير « الرسول » فيها بالعقل ، كما في قول رب العزة :

(لئلا يكون للنّاس على الله حجةٌ بعد الرُّسل) وقوله سبحانه : (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا) إلى غير ذلك من الآيات البينات ..

والقضية من الوضوح بحيث لا تحتمل الجدل .

وفهم بعض آخر .. أن الرسل الذين أورد القرآن أنباءهم إنما بُعثوا إلى المنطقة العربية وحدها .. وتساءلوا : هل كانت هذه المنطقة موطن النبوات

---

(٢) الإسراء ١٥ .

فقط . وهل خلت الأرض فيما عدا هذه المنطقة من الأنبياء والمرسلين ؟

أقول : لقد أكد الحق — جلت قدرته — أنه أوحى إلى رسل كثيرين.. فى أمم شتى ، منهم من قص علينا نبأه ، ومنهم من لم يقصص علينا نبأه . قال عز وجل :

— (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)(١) .

— (إنا أرسلناك بالحق بشيرًا ونذيرًا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) (٢) .

إذن فقد أرسل الله رسله إلى أمم شتى ، فى أنحاء الأرض ، وأوحى إليهم أن يكونوا هادين ومبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة ، فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ؟ ،

وإذا كان الحــق — تبارك اسمه — قد بعث إلى كل أمة رسولا ... فقد بعث المصطفى صلى الله عليه وسلم للناس كافة ، لكافة الأمم والشعوب والأجناس .. بعثه رحمة للعالمين .

(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا)(٣) .

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)(٤) .

الوحى إذن كلام الله . . وإلهامه . . وإيحاؤه لرســله من البشر . . والسؤال الآن :

كيف كان يتم هــذا الكلام بين الله وبين أنبيائه ورسله ؟

---

(١) النحل ٣٦ (٢) فاطر ٢٤ .
(٣) سبأ ٢٨ (٤) الأنبياء ١٠٧

أو بمعنى آخر : ما هى الكيفية التى كانت بمقتضاها يتم تكليم الله للبشر ؟

أوضح الحق — عظمت مشيئته — هـذه الكيفية فى سورة الشورى — [illegible]وله تعالى :

(وما كانَ لبشرٍ أنْ يكلمه الله إلاَّ وحياً أوْ منْ وراء حجاب ، [illegible] يُرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء أنه علىٌّ حكيم)(١) .

قال ابن كثير :(٢) هذه مقامات الوحى بالنسبة إلى جناب الله عز وجل .

وقال الشوكانى : (٣) أى ما صح لفرد من أفراد البشر أن يكلمه الله بوجه [illegible]ن الوجوه إلا بأن يوحى إليه فيلهمه ، ويقذف ذلك فى قلبه ، قال مجاهد : [illegible]ث ينفث فى قلبه فيكون إلهاماً منه ، كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم فى [illegible]بح ولده .

(أوْ منْ وراءِ حجاب) كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام ، فإنه [illegible]أل الرؤية بعد التكلم فحجب عنها — يريد أن كلامه يسمع من حيث لا يرى ، [illegible]هو تمثيل بحال الملك المحتجب الذى يكلم خواصه من وراء حجاب ، وقد سمى [illegible]له تكليمه لموسى وحياً فى قوله سبحانه : (وأنا اخترْتك فاستمعْ لمـا [illegible]يوحى)(٤) .

وقد استدل العلماء فى قوله تعالى : (وكلّم الله مُوسى تكليماً) على تكليم الله [illegible]اوسى حقيقة لا مجازاً . وقال الفراء : إن العرب تسمى ما وصل إلى الإنسان كلاماً بأى طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر ، فإذا أكـد لم يكن إلا حقيقة [illegible]لكلام .

(أو يُرْسلُ رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء) أى يرسل ملكا ، فيوحى

---

(١) الشورى ٥١ (٢) جـ ١١١/٤
(٣) [illegible] (٤) طـه ١٣ .

ذلك الملك إلى الرسول ابن البشر بأمر الله وتيسيره ما يشاء أن يوحى إليـــه ، والمقصود بالرسول هنا ملك الوحى المعبر عنه بالروح الأمـــين وهو جبريل عليه السلام .

وقد أجمل الزجاج المعنى بقوله : إن كلام الله للبشر إما أن يكون إلهام يلهمهم أو يكلمهم من وراء حجاب كما كلم موسى ، أو برسالة ملك إليهم . وقد خص الحق سبحانه جبريل عليه السلام ليكون رسوله إلى الأنبياء .. وسماه (روح القدس) .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن سابط قال : فى أمّ الكتاب كل شىء هو كائن إلى يوم القيامة ، فوكل ثلاث بحفظه من الملائكة ، فوكل جـــبريل بالوحى والكتب إلى الأنبياء ، وبالنصر عند الحروب وبالمهلكات إذا أراد الله أن يهلك قوماً . ووكل ميكائيل بالقطر والنبات ، ووكل ملك الموت (عزرائيل) يقبض الأنفس ، فإذا كان يوم القيامة وعارضوا بين حفظه وبين ما كان فى أم الكتاب، فيجدونه سواء .

قال عطاء بن السائب : (أوّل من يحاسب جبريل لأنه كان أمين الله إلى رسله)(١) .

● وكما أوحى الحق تبارك وتعالى إلى أنبيـــائه .. فكذلك أوحى إلى مخلوقاته العظيمة وألهمها نواميسها التى لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول ..

من مثل قوله سبحانه وتعالى : (ثمَّ استوى إلى السماءِ وهىَ دخانٌ ، فقال لها وللأرْض : إئتيا طوْعاً أوْ كرْهاً ، قالتا : أتينا طائعين ، فقضاهنّ سبع سموات فى يوْمين ، وأوْحى فى كلُ سماءٍ أمرها)(٢) .

---

(١) معترك الأقران ٢/٢١٦

(٢) فصلت ١١ — ١٢ .

وقوله عز وجل : (إذا زُلزلت الأرضُ زلزالها ، وأخرجت الأرضُ أثقالها ، وقال الإنسانُ مالها ، يومئذٍ تحدّث أخبارها بأنّ ربّك أوحى لها) (١) ،

وقوله جل وعلا : (وأوحى ربّك إلى النحل أنْ اتّخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلي من كلّ الثمرات فاسلكي سُبل ربك ذللاً ، يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه فيه شفاءٌ للناس) (٢) .

وهنا نكون قد وصلنا إلى بغيتنا لنتساءل :

كيف أوحى ربّ العزة إلى رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم ؟

ذكر الراسخون فى العلم للوحى المنزل على قلب النبى الأمى كيفيات :

أولها — الرؤيا :

قالت عائشة أم المؤمنين — رضى الله عنها — فيما رواه البخارى وغيره : « أول ما بدىء به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من الوحى .. الرؤيا الصادقة فى النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » .

والثانية — أن يأتيه الملك فى مثل صلصلة الجرس :

كما صحّ فى مسند أحمد عن عبد الله بن عمرو — سألت النبى صلى الله عليه وسلم : هل تحسّ بالوحىّ ؟ فقال : اسمع صلاصل ثم اسكت عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلىّ إلاّ ظننت أن نفسى تقبض (٣) .

(١) الزلزلة ١ — ٥
(٢) النحل ٦٨ — ٦٩ .
(٣) معترك الأقران ٢/ ٢١٤

أخرج ابن سعد عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم — إذا نزل عليه الوحي يغط في رأسه ، ويتربَّد وجهه ، ويجد بردًا في ثناياه ويعرق حتى يتحدَّر منه مثل الجمان .

قال الخطابي : والمراد بصلصة الجرس — أنه صوت متداول يسمعه ولا يتبيَّنه أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد . وقيل : هو صوت خفق أجنحة الملك . والحكمة في تقدمه ، أن يقرع سمعه للوحي ، فلا يبقى فيه مكاناً لغيره .

وفي الصحيح — أن هذه الحالة أشد حالات الوحي عليه صلى الله عليه وسلم .

وقيل : إنه إنما كان ينزل هكذا إذا نزلت آية وعيد أو تهديد .

والثالثة — أن ينفث في رُوعه — بضم الراء — الكلام نفثاً :

كما قال صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث في روعي » (١) .

وفي رواية ابن حبان : إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت ، حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، خذوا ما حلَّ ، ودعوا ما حرِّم » .

قال العلماء : وهذا يرجع إلى الحالة الأولى أو التي بعدها بأن يأتي في أحد الكيفيتين وينفث في روعه .

الرابعة — أن يأتيه الملك في صفة الرجل فيكلمه : كما في الصحيح .

«... وأحياناً يتمثل لي الملكُ رجلا فيكلمني فأعي ما يقول » .

زاد أبو عوانة في صحيحه : « وهو أهونه عليّ » .

---

(١) الروع : القلب والعقل — أخرجه الحاكم

وفى هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً ، كما فى الحديث الصحيح عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه .

الخامسة — أن يأتى الملك فى صـــورته وهيئته التى خلق عليها :

يوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له — صلى الله عليه وسلم — مرتين ، كما ذكر القرآن فى سورتى التكوير والنجم .

قال تعالى : (إنَّه لقولُ رسولٍ كريمٍ ، ذِي قوةٍ عند ذِي العرش مَكينٍ ، مطاعٍ ثمَّ أمينٍ ، وما صاحبكمْ بمجنونٍ ، ولقدْ رآهُ بالأفق المبين) (١) .

وقال سبحانه : (والنَّجمِ إذا هَوى ، ماضلَّ صاحبكمْ وما غوى ، وما ينطِقُ عن الهوى ، إنْ هو إلاَّ وحيٌ يوحى ، علَّمه شديدُ القوى ، ذو مرَّةٍ فاستوى ، وهو بالأفقِ الأعلى ، ثمَّ دنا فتـــدلَّى ، فكان قابَ قوسين أو أدنى ، فأوحى إلىَ عبدِه ما أوحى ، ما كذب الفؤادُ ما رأى ، أفتُمارونه على ما يرى ، ولقـــدْ رآه نزلةً أخرى ، عِند سِدْرة المنتهى ، عندها جنَّة المأوى) (٢) .

السادسة — أن يأتيه الملك فى النوم :

وقد عدَّ قوم من هذا الوحى سورة الكوثر ، كما روى مسلم عن أنس قال : بينا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءةً ثم رفع رأسه مبتسما ، فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟

فقال : أنزل علىَّ آنفاً سورة الكوثر ... الخ (٣) .

---

(١) الآيات ١٩ — ٢٣ (٢) الآيات ١ — ١٥

قال الإمام الرافعى فى أماليه : « فهموا من الحديث أنهـــا نزلت فى تلك الإغفاءة ، وقالوا : من الوحى ما كان يأتيه فى النوم ، لأن رؤيا الأنبياء وحى ، وقال : وهذا صحيح — لكن الأشبه أن يقال : إن القرآن كلـــه نزل فى اليقظة ، وكأنه خطر له فى النوم سورة الكوثر المنزلة فى اليقظة ، أو عرض عليه الكوثر الذى وردت فى السورة ، فقرأها عليهم وفسرها لهم قال : وورد فى بعض الروايات أنه أغمى عليه ، وقد يحمل ذلك على الحالة التى كانت تعتريه عند نزول الوحى ، ويقال لها برحاء الوحى ».

وعقب السيوطى — فى معترك الأقران (١) على ما قاله الإمام الرافعى بقوله: « الذى قاله الرافعى فى غاية الاتجاه ، وهو الذى كنت أميل إليه قبـــل الوقوف عليه والتأويل الأخير أصح من الأول ، لأن قوله إنما يدفع فى كونها نزلت قبل ذلك ، بل نقول : نزلت فى تلك الحالة ، وليست الإغفاءة إغفاءة نوم ، بل الحالة التى كانت تعتريه عند الوحى ، فقد ذكر العلماء أنه كان يؤخذ عن الدنيا ».

السابعة — أن يكلمه الله إما فى اليقظة — كما فى ليلة الإسراء ، أو فى النوم كما فى حديث معاذ:

« أتانى ربى فقال : فيم يختصم الملأ الأعلى ... الحديث »

قال السيوطى — فى الإتقان (٢) وليس فى القرآن من هذا النوع شىء فيما أعلم ، نعم يمكن أن يعد منه آخر سورة البقرة .. وبعض سورة الضحى ، وألم نشرح، فقد أخرج ابن أبى حاتم من حديث عدى بن حاتم — قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سألت ربى مسألة وودت أنى لم أكن سألته ، قلت : أى ربى .. اتخذت إبراهيم خليلا ، وكلمت موسى تكليماً . فقال يا محمـــد : ألم أجدك يتيماً فآويتك ، وضالاً فهديتك ، وعائلا فأغنيتك ، وشرحت لك

---

(١) ج ٢ ص ٢١٥

(٢) الاتقان فى علوم القرآن ١/١٢٦ ، وانظر معترك الأقران ٢/٢١٨

صدرك ، وحططت عنك وزرك . ورفعتُ لك ذكرك ، لا أذكر إلا ذكرت معى ؟ » .

وقد ذكر ابن القيم (١) حالتين للوحى غير ما ذكرنا :

أولهما : كلام الله للنبى صلى الله عليه وسلم — منه اليه بلا واسطة ملك ، كما كلم الله موسى بن عمران .

وثانيهما : تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب .

ويرى ابن تيمية أن الصواب هو ما ذهبت إليه عائشة رضى الله عنها ، ووافقها عليه جمهور الصحابة ، كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمى اجماعاً للصحابة وهو الحق إذ أن المراجع الصحيحة تنفى أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد رأى ربه فى الدنيا . قال المفسرون — فى قوله تعالى : (فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى) عده أقوال تتفق مع ما ذكرناه . .

الأول : أن المعنى : أوحى إلى عبده محمد ما أوحى .

الثانى : أوحى الله إلى عبـــده جبريل ما أوحى ، وعاد الضمير على الله فى القولين لأن سياق الكلام يقتضى ذلك وإن لم يتقدم ذكره . فهو كقوله (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) .

الثالث : أوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى .

قال السيوطى : والأولى أظهر . بدليل سؤال عائشة له . . ما أوحى إليك ربك ؟ فأبى أن يخبرها ، فألحّت عليه وأقسمت له بالله ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا عائشة أوحى إلى أنه لا يحاسب أمتى غيره لما سألته أن يجعل حسابهم

---

(١) زاد المعاد ١/٣٤ .

إلىّ . وقال : « لا أريد أن يطلع على مساوئهم أنت وغيرك » . وفى رواية . . « أنت شفيع لهم وأنا رحيمهم فكيف تضيع أمة بين شفيع ورحيم » ؟ .

وقالوا فى : (ما كذب الفؤاد ما رأى) — أى ما كذب فؤاد محمد — صلى الله عليه وسلم — ما رأى بعينه ، بل صدق قلبه أن الذى رأى بعينه حق ، والذى رأى هو جبريل ، يعنى حتى رآه قد ملأ الأفق ، وقيل : ملكوت السموات والارض أرجح .

وقيل : الذى رأى — هو الله تعالى . وقد أنكرت عائشة رضى الله عنها ذلك

كما سئل صلى الله عليه وسلم : هــل رأيت ربك ؟ فقال : نُورٌ أنَّى تراه . .

إن الحق سبحانه وتعالى أوحى إلى نبيه المصطفى — صلى الله عليه وسلم فأدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، وأنار الدنيا ، وأرشد الحيارى ، وقعّد قواعد الحق وأصّل أصــول البر ، وحدّد طريق الهدى ، وبيّن الصراط المستقيم الذى لا يضل سالكه ولولا وحى الله لعاش البشر فى ظلام لا ينتهى ، وضلال لا هداية منه ، وفوضى لا نظام لها . .

٢ — الليلة المباركة

مدح الحق — تبارك وتعالى — شهر رمضان من بين سائر الشهور ، وكرّمه ورفع قدره بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن .

« شهرُ رَمَضانَ الذى أنزِلَ فيه القرآن هـدًى للنّاس وبيناتٍ من الهدَى والفرْقان » . وكما اختصه الله بنزول القرآن ، فقد اختصه أيضاً بنزول الكتب الإلهية جميعاً على الأنبياء .

روى الإمام أحمد بن حنبل — بإسناده — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« أنزلت صحف ابراهيم فى أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مَضيْن من رمضان ، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان » . وفى رواية عن جابر بن عبدالله أن الزبور أنزل لثنتى عشرة خلت من رمضان ، والإنجيل لثانى عشرة » :

فاما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل ، فنزل كل منها على النبى الذى أنزل عليه جملة واحدة . وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزّة من السماء الدنيا ، وكان ذلك فى شهر رمضان . . فى ليلة القدر منه ، كما قال الحق سبحانه . .

(إنَّا أنزلناه فى ليلةِ القدْر) وقال جل وعلا (إنَّا أنزلناهُ فى ليلةٍ مباركة)

— فما هى الليلة المباركة . . ولماذا هى مباركة ؟

ـ ومتى موعدها ؟ . . وما سماتها وعلاماتها ؟

ـ وهل كان للأمم السابقة ليلة مباركة . . . كما كان لأمة محمـــد صلى الله عليه وسلم ؟ . .

أم أن هذه الليلة من خصائص الأمة الإسلامية ؟

وهل ليلة القدر كانت مرة واحدة .. أم أنها فى كل رمضان ؟ . .

ما أماراتها . . ولماذا عظّم الله قدْرها ؟ . . . .

لماذا هى مباركة ؟

لأن الحق تبارك وتعالى اختارها لكى ينزل فيها آخر كتبه ، على آخر أنبيائه ورسله ، إلى السماء الدنيا . . فوضع القرآن فى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل به جبريل الأمين مفرقاً على قلب النبى الأمى ـ محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم .

عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال : « فُصِلَ القرآن من الذّكر ، فوضِعَ فى بيت العزّة من السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزل به على النبى صلى الله عليه وسلم . .

وأخرج الطبرانى ـ عن ابن عباس قال : « أُنزِلَ القرآن فى ليلة القدر ، فى شهر رمضان إلى السماء الدنيا جملة واحدة ، ثم أُنزِلَ نجُوماً » . ـ وفى رواية : أنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ؛ ثم أنزل على مواقع النجوم رسلاً فى الشهور والأيام » . أى أنزل مفرقاً يتلو بعضه بعضاً على تُؤَدَةٍ ورفق . .

قال أبو شامة ـ فى المرشد الوجيز ـ أن السرّ فى إنزال القرآن العظيم جملة فى الليلة المباركة . تفخيم أمره وأمر مَنْ نزل عليه ، وذلك بإعلام سكان

السموات السبع من الملائكة أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم . ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجما بحسب الوقائع ، لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزّلة قبله ، ولكن الله بَاينَ بينه وبينها فجعل له الأمرين، إنزاله جملة ، ثم إنزاله مفرقاً ، تشريفاً للمنزّل عليه .

وقال الحكيم الترمذي :

أنزل القرآن جملة إلى السماء الدنيا تسليماً منه للأمة ما كان أبرز لهم من الحظ بمبعث محمد — صلى الله عليه وسلم — وذلك أن بعثته كانت رحمة فلما خرجت الرحمة بفتح الباب ، جاءت بمحمد (ص) وبالقرآن ، فوضـــع القرآن فى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ووضعت النبوة فى قلب محمد (ص) وجاء جبريل بالرسالة ثم بالوحى ، كأنه أراد تعالى أن يسلّم هذه الرحمة التى كانت حظ هذه الأمة من الله إلى الأمة .

وذكر السخاوى — فى جمال القراء وكمال الإقراء — , فى نزوله — أى القرآن الكريم — إلى السماء جملة تكريم بنى آدم ، وتعظيم شأنهم عند الملائكة ، وتعريفهم عناية الله بهم ، ورحمته لهم ، ولهذا المعنى أمر سبعين ألفاً من الملائكة أن تشيع سورة الأنعام ، وزاد سبحانه فى هذا المعنى ، بأن أمر جبريل بإملائه على السّفرة الكرام وإنساخهم إياه ، وتلاوتهم له .

قال : وفيه أيضاً التسوية بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبين موسى صلى الله عليه وسلم فى إنزاله كتابه جملة ، والتفضيل لمحمد (ص) فى إنزاله عليه منجما ليحفظه .

إذا كان الحق تبارك وتعالى أنزل القرآن جملة . . فى الليلة المباركة . .

فما هو السرّ فى نزوله منجّماً بعد ذلك ؟ . وهلاّ نزول القرآن كسائر الكتب السماوية جملة ؟

أقول : للقرآن الكريم نزولان .

الأول : نزول من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا أى نزول من السجل العام الذى كتب الله فيه — فى الأزل — كل ما كان وكل ما يكون .

والثانى : نزوله من السماء الدنيا على النبى صلى الله عليه وسلم .

أما نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، فكان جملة واحدة .

وقد اختلف العلماء — هل كان هذا النزول بعد نبوته صلى الله عليه وسلم ؟ أم كان قبل ذلك ؟. رأيان للعلماء - أرْجَحُهما الأول . وهو الذى تدل عليه الآثار وكان هذا النزول فى رمضان فى ليلة القدر . وكان النازل به جبريل عليه السلام . فألقاه إلى السَّفرة ، الكرام البررة ، فقيَّدوه فى صحفهم المكرمة . كما قال الحق : « كلاَّ إنها تذكرة ، فمنْ شاء ذكرَهُ ، فى صحفٍ مكرَّمةٍ مرفُوعةٍ مُطهَّرة ، بأيدى سَفرَة ، كرامٍ برَرَة (١) .

وهم الملائكة المختصون بذلك .

أما النزول الثانى - وهو نزوله من السماء الدنيا على النبى . فكان هذا النزول بإذن الله - يوم أذن للنور الإلهى أن يسطع فى أرجاء الأرض ، ولهدايته الربانية أن تتدارك الناس وتخرجهم من ظلمات الشرك والجهالة والضلال إلى نور الإيمان والهدى والعرفان ، على يد مخلّص البشرية ، ومنقذ الإنسانية - النبىّ الأمى محمد ابن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - فأنزل عليه القرآن هادياً ومبشراً ونذيراً للخلق أجمعين، ليكون آيته الكبرى ومعجزته الباقية على وجه الدهر ، شاهدة له بالصدق وأنه يوحى إليه من ربه ، وهذا هو النزول الثانى للقرآن .

---

(١) عبس ١١ — ١٦ .

وفى هذا يقول رب العزة : « وإنَّهُ لتنزيلُ ربِّ العالمينَ ، نزلَ بهِ الرُّوحُ الأمينُ ، على قلبكَ لتكونَ من المُنذرينَ ، بلسانٍ عربيٍّ مبين »(١) .

ويقول تعالى . « قُلْ نزَّله روح القدُسِ من ربك بالحقِّ ، ليثبتَ الذين آمنوا ، وهدًى وبشرى للمسلمين »(٢) .

أما السر فى نزول القرآن منجماً - أى مفرقاً - . فقد تولى الحق سبحانه توضيحه فقال : « وقالَ الذينَ كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملةً واحدة »(٣)

يعنون كما أنزل على مَنْ قبله من الرسل .. فأجابهم تعالى بقوله : « كذلك » - أى أنزلناه كذلك مفرقا - « لنُثبِّتَ به فؤادك » . أى لنقوى به قلبك ، فإن الوحى إذا كان يتجدد فى كل حادث كان أقوى للقلب . وأشد عناية بالمرسل إليه ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك اليه وتجديد العهد به ، وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة ، ولهذا كان أجود ما يكون فى رمضان لكثرة لقائه جبريل . وقال المفسرون : (لنثبت به فؤادك) أى لنحفظه فإنه صلى الله عليه وسلم كان أميـــا لا يقرأ ولا يكتب ، ففرّق عليه حفظه ، بخلاف غيره من الأنبياء ، فإن كان كاتبا قارئا ، فيمكنه حفظ الجميع .

وقال صاحب البرهان : (٤) إنما لم ينزل جملة واحدة ، لأنه منه الناسخ والمنسوخ ولا يتأتى ذلك إلا فيما نزل مفرّقا ، ومنه ما هو جواب لسؤال ، ومنه ما هو إنكار على قول قيل ، أو فعلٍ فعل ، ونزله جبريل بجواب كلام العباد وأعمالهم . وفسّر به قوله « ولا يأتونك بمثلٍ الا جئناك بالحقّ وأحسن تفسيراً » .

---

(١) الشعراء ١٩٢ — ١٩٥
(٢) النحل ١٠٢
(٣) الفرقان ٣٢
(٤) الزركشى ١/٢٣١

فإذا أضفنا إلى ذلك — أن من أهم الحكم فى نزوله مفرقا — هو تفضيل القرآن الكريم على غيره من الكتب السماوية . بأن جمع الله له النزول جملة واحدة والنزول مفرقاً — أدركنا سراً عظيما أراده الحق سبحانه ، وهو أن يشارك القرآن الكتب السماوية فى الأولى ، والانفراد بالفضل فى الثانية . وهذا يعود بالتفضيل لنبينا محمد (ص) على سائر إخوانه من الأنبياء المرسلين ذوى الكتب المنزلة — وأن الله جمع له من الخصائص ما لغيره وزاد عليها .

وقال الدكتور محمد محمد أبو شهبة : (١) أن هناك حكمة أخرى أرادها الحق سبحانه . وهى التدرج فى تربية الأمة دينياً وخلقياً واجتماعياً ، وعلماً وعملا ، وهذه الحكمة هى التى أشار إليها الحق تبارك وتعالى بقوله : ﴿ وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ﴾(٢) .

ولقد كان نزول القرآن منجماً مدعاة الشك والتلميز من جانب أعداء الإسلام فقد أخرج ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس قال : قالت اليهود (للنبى) يا أبا القاسم — لولا أنزل هذا القرآن جملة ، كما أنزلت التوراة على موسى ؟ . . فنزلت الآية وفى رواية : قال المشركون .

فإن قيل : ليس فى القرآن التصريح بذلك ، وانما هو على تقدير ثبوت قول الكفار .

قلنا : سكوته تعالى عن الرد عليهم فى ذلك ، وعدوله الى بيان حكمته ، دليل على صحته ، ولو كانت الكتب كلها مفرقة لكان يكفى فى الرد عليهم أن يقول : ان ذلك سنة الله فى الكتب التى أنزلها على الرسل ، كما أجاب سبحانه بمثل ذلك عن قولهم :

---

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم ص ٨٢

(٢) الإسراء ١٠٦

(وقالوا مَا لِهذا الرَّسول يأكل الطَّعام ويمشى فى الأسواق)(١)

فقال: (ومَا أرسلنا قبلك مِنَ المرسلينَ إلا إنَّهُم ليأكلونَ الطَّعامَ ويمشونَ فى الأسواقِ)(٢).

وقولهم: (أبعث الله بشراً رسولاً)(٣).

فقال: (ومَا أرسلنا مِنْ قبلكَ إلا رجالاً نُوحى إليهم)(٤).

وقولهم: كيف يكون رسولا ولا هم له إلا النساء؟.

فقال الحق سبحانه: (ولقدْ أرسلنا رُسلاً مِنْ قبلك وجعلنا لهُم أزواجاً وذريَّة)(٥).

ومن المهم أن نعرف أن الحق سبحانه حين نزل القرآن منجما على قلب نبيه الأمين، انما قصد إلى حكمة ناصعة. ذلك أن نزوله مفرقاً كان أدعى الى قبوله بخلاف ما لو نزل جملة واحدة، فإنه كان ينفر من قبوله كثير من الناس، لكثرة ما فيه من الفرائض والمناهى:

ويوضح رأينا هذا ما أخرجه البخارى عن عائشة ـ قالت: «انما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام. ولو نزل أول شيء (لا تشربوا الخمر) لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل (لا تزنوا) لقالوا لا ندع الزنا أبداً».

---

(١) الفرقان ٨
(٢) الفرقان ٢٠
(٣) الإسراء ٩٤.
(٤) يوسف ١٠٩
(٥) الرعد ٣٨

وأخرج البيهقي عن عمر قال : تعلموا القرآن خمسَ آيات خمسَ آيات فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي (ص) خمساً خمساً . ومعناه - إن صح - إلقاؤه الى النبي (ص) بهذا القدر حتى يحفظه ، ثم يلقي إليه الباقي لا إنزاله خاصة بهذا القدر .

ويوضح ذلك أيضاً - قول أبي العالية : تعلموا القرآن خمس آيات ، فإن النبي (ص) كان يأخذه من جبريل خمساً خمساً .

— ٢ —

اتفق أهل السنة والجماعة على أن القرآن منزل . . فما معنى الإنزال؟ وما الفرق بين الإنزال والتنزيل ؟

« الإنزال » كما جاء في لغة العرب - معناه . . ما نزل جملة واحدة بخلاف « التنزيل » فإنه يعبر به في جانب ما نزل مفرقاً . . فدلت الآيات على أن القرآن الكريم نزل جملة واحدة في ليلة القدر أخذاً من « سورة القدر » وهي الليلة المباركة أخذاً من آية « الدخان » وهي ليلة من شهر رمضان أخذاً من آية « البقرة » . .

فالباحث المتأمل في كتاب الله - يرى أن الغالب في التعبير القرآني ، ما نزل دفعة واحدة بلفظ « الإنزال » ، وما نزل مفرقاً بلفظ « التنزيل » ولهذا لما جمع الله بين القرآن والتوراة والإنجيل ، عبر في جانب نزول القرآن على النبي « بالتنزيل » ، وفي جانب التوراة والإنجيل بالإنزال ، لأنهما نزلا دفعة واحدة وهذا ما لاخلاف فيه ، وقال تعالى في سورة آل عمران « نَزَّلَ عليكَ القرآنَ بالحقِّ مُصدقاً لِما بين يديه وأنزلَ التوراةَ والإنجيلَ » فنزل من التنزيل وأنزل من الإنزال .

ولقد اختلف العلماء في معنى الإنزال . .

- فمنهم من قال اظهار القراءة . . .

ـ ومنهم من قال : ان الله ألهم كلامه جبريل وهو فى السماء ، وهو عال من من المكان . وعلّمه قراءته ثم إن جبريل أداه فى الأرض ، وهو يهبط فى المكان . . .

ولكنهم ذكروا فى التنزيل طريقين :

أحدهما . . أن النبى (ص) انتقل من صورة البشرية الى صورة الملكية . وأخذه من جبريل .

والثانى . . ان الملك انخلع الى البشرية حتى يأخذه الرسول منه . .

وقالوا ، ، والأول أصعب الحالين ،

وقال الطيبى : لعل نزول القرآن على الرسول (ص) أن يتلقّفه الملك من الله تلقفاً روحانياً أو يحفظه من اللوح المحفوظ ، فينزل به الى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويلقيه عليه .

وقال القطب الرازى ـ فى حواشى الكشاف ـ التنزيل لغة الإيواء ـ وبمعنى تحريك الشىء من علو الى أسفل ، وكلاهما لا يتحققان فى الكلام ، فهو مستعمل فيه فى معنى مجازى . فمن قال : القرآن معنى قائم بذات الله تعالى ، فإنزاله أن يوجد الكلمات والحروف الدالة على ذلك المعنى ، ويثبتها فى اللوح المحفوظ ، ومَنْ قال القرآن هو الألفاظ ـ فإنزاله مجرد إثباته فى اللوح المحفوظ . وهذا المعنى مناسب لكونه منقولا عن أول المعنيين اللغويين .

ويمكن أن يراد بإنزاله اثباته فى السماء الدنيا بعد الإثبات فى اللوح المحفوظ وهذا يناسب المعنى الثانى . والمراد بإنزال الكتب على الرسل . أن يتلقفها الملك من الله تلقفاً روحانياً . أو يحفظها من اللوح المحفوظ . وينزل بها فيلقيها عليهم . .

، وذكر بعض العلماء فى المنزّل على النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أقوال(١)،

أحدها : أنه اللفظ والمعنى ، وأن جبريل حفظ القرآن من اللوح المحفوظ ونزل به .

(١) البرهان فى علوم القرآن ٢٢٩/١

والثانى : أن جبريل لما نزل بالمعانى خاصة ، وأنه — صلى الله عليه وسلم — علم تلك المعانى وعبر عنها بلغة العرب ، وتمسك قائل هذا — بظاهر قوله تعالى : (نزل به الروح الأمين على قلبك)(١).

والثالث : أن جبريل ألقى عليه المعنى ، وأنه عبر بهذه الألفاظ بلغة العرب . وأن أهل السماء يقرءونه بالعربية ، ثم انه نزل به كذلك بعد ذلك ..

وقال البيهقى فى تفسير معنى قوله تعالى : (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) — يريد — والله أعلم — انا أسمعنا الملك وأفهمناه إياه ، وأنزلناه بما سمع ، فيكون الملكُ منتقلا به من علو إلى سفل » .

وأضاف أبو شامة .. « هذا المعنى مطّرد فى جميع ألفاظ الإنزال المضافة إلى القرآن أو إلى شىء منه يحتاج إليه أهل السنة المعتقدون قِدَم القرآن ، وأنه صفة قائمة بذات الله تعالى . .

وزاد السيوطى (٢) : ويؤيد أن جبريل تلقفه سماعاً من الله ، ما أخرجه الطبرانى من حديث النواس بن سمعان مرفوعا .. « إذا تكلم الله بالوحى أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله ، فإذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا وخروا سجداً فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، فينتهى به إلى الملائكة كلما مر بسماء سأله أهلها . ما ذا قال ربنا ؟ قال : الحق .. فينتهى به حيث أمر .

وجاء فى الصحيح عن ابن مسعود .. اذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السموات صلصلة كصلصلة السلسلة على الصفوان ، فيفزعون ، ويرون أنه من أمر الساعة ..

(١) الشعراء ١٩٣ .
(٢) معترك الأقران ٢/٢١٤ .

واستناداً إلى قول الحق تبارك وتعالى — في سورة النجم — « وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوَى إنْ هُوَ إلاَّ وحيٌ يوحَى ، علَّمَه شديدُ القُوَى » .

قسم الجوينى كلام الله المنزل على رسوله المصطفى قسمين :

١ — قسم قال الله لجبريل : قل للنبى الذى أنت مرسل إليه ، إن الله يقول إفعل كذا وكذا ، وفسر بكذا وكذا ، ففهم جبريل ما قاله ربه ، ثم نزل على ذلك النبى . وقال له ما قاله ربه .

٢ — وقسم آخر — قال الله لجبريل : اقرأ على النبى هذا الكتاب ، فنزل جبريل بكلمة الله من غير تغيير . كما يكتب الملك كتابا ويرسله إلى أمين ، ويقول اقرأه على فلان . فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفاً .

قال السيوطى (١) : القرآن هو القسم الثانى . . والقسم الأول هو السنة كما ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن .

قال . . ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى . لأن جبريل أداه بالمعنى - ولم تجز القراءة - أى قراءة القرآن - بالمعنى ، لأن جبريل أداه باللفظ ، ولم يُبحْ له إيحاؤه بالمعنى .

والسر فى ذلك - كما نرى - أن المقصود منه التعبد بلفظ القرآن العظيم والإعجاز به فلا يقدر أحد أن يأتى بلفظ يقوم مقامه ، وأن تحت كل حرف من حروفه معانى لا يحيط بها كثير من الناس ، فلا يقدر أحد أن يأتى ببدله بما يشتمل عليه .

إذا أضفنا الى ذلك مشيئة الحق - جلت قدرته - فى التخفيف على عباده حيث جعل الكلام المنزل اليهم على قسمين ، قسم يَرْوُونه بلفظه المُوحَى به وهو القرآن وقسم يَرْوُونه بالمعنى ، وهو السنة . ولو جعل الله سبحانه كل الكلام المنزل على رسوله مما يروى باللفظ لشق على الناس ، ولو جعله مما يروى بالمعنى لم يؤمن التبديل والتحريف .

---

(١) معترك الأقران ٢ / ٢١٤ .

أنزل القرآن العظيم .. فى شهر رمضان .. وفى الليلة المباركة .. فمتى كان موعدها ؟ وما علاماتها ؟ .

أما موعدها .. فقد اختلف العلماء فيه ..

ــ روى عن أبى رزين .. أنها تكون فى أول ليلة من شهر رمضان .

ــ وقال أبو داود .. أنها تقع ليلة سبع عشرة ، وروى فى ذلك حديثا مرفوعا عن ابن مسعود .

ــ ويحكى عن الحسن البصرى : أنها تقع ليلة بدر . وكانت ليلة جمعة هى السابعة عشر من شهر رمضان . ومن صبيحتها كانت وقعة بدر . وهو اليوم الذى قال الله تعالى فيه (يوم الفرقان) .

ــ ويحكى عن على وابن مسعود أيضاً .. أنها تقع فى ليلة تسع عشرة .

وقيل ليلة احدى وعشرين ــ لحديث أبى سعيد الخدرى ، قال : اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فى العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه ، فأتاه جبريل . فقال : ان الذى تطلب أمامك ، ثم قام النبى صلى الله عليه وسلم خطيبا صبيحة عشرين من رمضان فقال ؛

من كان اعتكف معى فليرجع ، فإنى رأيت ليلة القدر ، وإنى أنسيتها ، وإنها فى العشر الأواخر ، فى وتر ، وإنى رأيت كأنى أسجد فى طين وماء ، وكان سقف المسجد جريداً من النخل وما نرى فى السماء شيئاً ، فجاءت قزعة فمطرنا ، فصلى بنا النبى حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تصديق رؤياه .

وقيل ليلة ثلاث وعشرين — لحديث عبد الله بن أنيس فى صحيح مسلم .

وقيل ليلة أربع وعشرين .. قال أبو سعيد .. قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليلة القدر ليلة أربع وعشرين .. وعن بلال قال : قال رسول الله (ص) ليلة القدر ليلة أربع وعشرين وروى ابن مسعود وابن عباس وجابر والحسن وقتادة وعبد الله بن وهب أنها ليلة أربع وعشرين .

وقيل ليلة خمس وعشرين .. لما رواه البخارى عن عبد الله بن عباس — أن رسول الله (ص) قال : التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان ، فى تاسعة تبق ، فى سابعة تبق ، فى خامسة تبق ..

وقيل إنها تكون فى ليلة سبع وعشرين لما رواه مسلم فى صحيحه عن أبىّ ابن كعب عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنها ليلة سبع وعشرين .

وعن معاوية وابن عمر وابن عباس وغيرهم .. عن رسول الله (ص) أنها ليلة سبع وعشرين ، وهو أيضاً قول أحمد بن حنبل وطائفة من السلف .

وقد حكى عن بعض السلف أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن من قوله (هى) — فى الآية الكريمة « سلام هى حتى مطلع الفجر » لأن (هى) الكلمة السابعة والعشرين من السورة .

وقال ابن عباس : دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فسألهم عن ليلة القدر ، فأجمعوا أنها فى العشر الأواخر ، قال ابن عباس : فقلت لعمر انى لأعلم أى ليلة القدر هى ، فقال عمر : وأى ليلة هى ؟ فقلت سابعة تمضى أو سابعة تبق ، من العشر الأواخر . فقال عمر : من أين علمت ذلك ؟ قال ابن عباس : فقلت خلق الله سبع سموات وسبع أرضين وسبعة أيام . وأن الشهر يدور على سبع ، وخلق الإنسان من سبع ، ويأكل من سبع ، ويسجد على سبع ، والطواف بالبيت سبع ، ورمى الجمار سبع لاشياء ذكرها ، فقال عمر : لقد فطنتَ لأمر ما فطنا له .

وقيل إنها فى ليلة تسع وعشرين — فعن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله (ص) عن ليلة القدر . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى رمضان فالتمسوها فى العشر الأواخر ، فإنها فى وتر إحدى وعشرين ، أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين ، أو سبع وعشرين ، أو تسع وعشرين ، أو فى آخر ليـــلة .

وقد حكى عن مالك رحمه الله ـ أن جميع ليالى العشر تطلب ليلة القدر على السواء لا يترجح منها ليلة على أخرى .

وهنا نقف قليلا لنتساءل ؛ لماذا كان هذا الخلاف فى تحديدها .. مع أن الأسانيد كلها كانت تنتهى إلى صحابى جليل ثم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولماذا تعددت الأقوال وتباينت ؟

الذى يحس به المرء من تتبع كل هذه الروايات أن هناك حكمة كبرى ، قصد إليها الرسول الكريم من عدم تحديد ليلة بعينها . لأن هذه الليلة المباركة إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها فى ابتغائها فى جميع محال رجائها ، فكان أكثر للعبادة بخلاف ما إذا علموا عينها . فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط ، وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر فى ابتغائها ، ويكون الاجتهاد فى العشر الأخير أكثر . ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل . ثم اعتكف أزواجه من بعده .

قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إذا دخل العشر أحياها الليل ، وأيقظ أهله وشدّ المِئزَر . وفى رواية أخرى لمسلم . « كان رسول الله (ص) يجتهد فى العشر ما لا يجتهد غيره ، وهذا معنى قولها (وشد المئزر) ، وقيل المراد بذلك اعتزال النساء ، ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين .

ويؤيد هذا الرأى ـ ما فطن إليه الشافعى إذ قال فى تعدد الروايات وتباينها أنها إنما صدرت جواباً للسائل إذ قيل له : أنلتمس ليلة القدر فى الليلة الفلانية ؟ يقول : نعم ـ وانما ليلة القدر ليلة معينة لا تنتقل ،

أما عن أمارة هذه الليلة المباركة :

فقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ان امارة ليلة القدر أنها صافية بلجة ، كأن فيها قمراً ساطعاً . ساكنة ساجية ، لا برد فيها ولا حر . ولا يحل لكوكب يرمى به حتى يصبح ، وأن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر ، ولا يحل للشيطان ان يخرج معها يومئذ » .

وعن ابن عباس ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال فى ليلة القدر ؟

« ليلة سمحة طلقة ، لا حارة ولا باردة ، وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء » .

وروى عن جابر بن عبد الله ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« أنى رأيت ليلة القدر فأنسيتها ، وهى فى العشر الأواخر من لياليها ، طلقة بلجة لا حارة ولا باردة ، كأن فيها قمراً ، لا يخرج شيطانها حتى يضىء فجرها » .

وسؤال يطرح نفسه الآن .. هل كانت ليلة القدر فى أمم سابقة ؟ أم أنها من خصائص أمتنا المحمدية ؟ :

اختلف العلماء فى هذا الأمر ، ولكنهم وقفوا عند قولين .

قال الامام ... حدثنا مالك : أنه بلغه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

أريَ أعمار الناس قبله أو ما شاء الله ذلك ، فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل الذى بلغ غيرهم من طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر .

وهذا الذى قاله مالك يقتضى تخصيص هذه الأمة بليلة القدر ، وحكى الخطابى الإجماع عليه . والذى دل عليه الحديث . أنها كانت فى الأمم الماضين كما هو فى أمتنا . .

قال مرثد — سألت أبا ذرّ قلت : كيف سألت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن ليلة القدر ؟ قال : أنا كنت أسأل الناس عنها ، قلت يا رسول الله أخبرنى عن ليلة القدر .. أفى رمضان هى أو فى غيره ؟ قال : « بلى هى فى رمضان » قلت : تكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا قبضوا رُفِعَت أم هى إلى يوم القيامة ؟ قال : « بلى هى إلى يوم القيامة » . . الحديث .

وفى الحديث دلالة أخرى — وهى أنها تكون باقية إلى يوم القيامة فى كل سنة بعد النبى — صلى الله عليه وسلم — لا كما زعمه بعض طوائف الشيعة عن رفعها بالكلية .

ومن المعلوم — أن هذه الليلة المباركة عظّم الله قدرها ، ورفع شأنها . فهى خير من ألف شهر . عن على بن عروة ، قال : ذكر رسول الله (ص) يوما أربعة من بنى إسرائيل ، عبدوا الله ثمانين عاما لم يعصوه طرفة عين ، فذكر أيوب وزكريا وحزقيل بن العجوز ، ويوشع بن نون ، قال : فعجب أصحاب رسول الله (ص) من ذلك ، فأتاه جبريل فقال : يا محمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة لم يعصوه طرفة عين ، فقد أنزل الله خيرًا من ذلك ، فقرأ عليه (إنّا أنزلناهُ فى ليلةِ القدْرِ ، وما أدراكَ ما ليلةُ القدْرِ ، ليلة القدْرِ خيرٌ من ألف شهر) هذا أفضل مما عجبت أنت وأمتك ، قال : فسر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس معه .

وعن مجاهد فى قوله تعالى (ليلةُ القدْرِ خيرٌ منْ ألفِ شهْرٍ) قال :

عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر (١) .

وليس أدل على مكانتها ومنزلتها مما رواه أبو هريرة قال : لما حضر رمضان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قد جاءكم شهر رمضان .. شهر مبارك ، افترض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حُرِم خيرها فقد حُرِم» (٢)

ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر ، ثبت فى الصحيحين عن أبي هريرة . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه» .

ففى هذه الليلة يكثر تنزل الملائكة لكثرة بركتها ، فينزلون مع تنزل الرحمة كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ، ويحيطون بحلق الذكر ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيماً له وتقديراً، وهى سلام حتى مطلع الفجر — أى سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ، أو يعمل فيها أذى ، فيها تقضى الأمور وتقدر الآجال والأرزاق كما قال الحق (فيها يفرق كل أمر حكيم) .

ومن المهم أن نعرف أن الدعاء مستحب فى جميع الأوقات ، وفى شهر رمضان أكثر ، وفى العشر الأخير منه ، ثم فى أوتاره أكثر ، والمستحب أن يكثر هذا الدعاء «اللهم إنك عفوٌ تحبُّ العفو فاعفُ عنِّى» لما رواه الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر فما أدعو ؟

قال : قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى (٣) .

(١) رواه ابن جرير
(٢) رواه النسائى .
(٣) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه .

٣ ـ فواتح السور

القرآن كلام الله ، المعجزُ للخلق فى بلاغته وأسلوبه ونظمه ، وفى تأثير هدايته ، وفى علومه وحكمه ، وفى كشف الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة ... وفى كل باب من هذه الأبواب للإعجاز فصول ، وفى كل فصل منها فروع ، ترجع إلى أصول .. ولقد حار العلماء فى كشف حجب البيان عن وجوه إعجاز القرآن ، فمن آيات هذا الإعجاز « فواتح السور » .

إن سور القرآن العظيم مائة وأربع عشرة سورة . وقد افتتح سبحانه وتعالى كتابه العزيز بعشرة أنواع من الكلام ، لا يخرج شيء من السورعنها(١)

أولها : الاستفتاح بالثناء ، وهو قسمان :

ـ إثبات لصفات المدح : نحو قوله تعالى : (الحَمْدُ لِلهِ) وقد جاء هذا الإثبات فى خمس سور هى : الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر ، ونحو قوله عز وجل : (تبارك) وقد جاء هذا فى سورتين هما : الفرقان والملك .

ـ والقسم الثانى من الاستفتاح بالثناء ـ هو تنزيه الحق تبارك وتعالى من صفات النقص .

نحو قوله تعالى : (سُبْحَانَ الذِى أسرَى بعبْدِهِ) فى الإسراء .

و (سَبَّحَ لله ما فِى السَّموات) فى الحديد والحشر والصف .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ١/٢٦٤ ؛ وانظر الاتقان فى علوم القرآن ٢/١٦

و (يُسَبِّح لله ..) في الجمعة والتغابن .

و (سَبِّح اسمَ ربِّك الأعلى) في الأعلى ..

وكلا القسمين — أي إثبات صفات المدح ، والتنزيه عن صفات النقص — جاء في سبع سور ، فهذه أربع عشرة سورة استفتحت بالثناء على الله ، نصفها لثبوت صفات الكمال ، ونصفها لسلب النقائص . قال الكرماني — في كتابه والعجائب في تفسير القران ، : «التسبيح . كلمة استأثر الله بها ، فبدأ بالمصدر منها (سُبحَان) في سورة بني إسرائيل لأنه الأصل ، ثم الماضي (سَبَّح لله) في الحديد والحشر والصف ، لأنه أسبق الزمانين ، ثم المضارع (يُسَبِّح) في الجمعة والتغابن ، ثم بالأمر (سبِّح) في سورة الأعلى ، استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها . وهي أربع : المصدر والماضي والمستقبل والأمر المخاطب ، فهذه أعجوبة وبرهان » . ..

النوع الثاني من أنواع استفتاح الصور : النداء :

نحو قوله تعالى : (يَاأيُّهـا الذين آمنُوا) في المائدة والحجرات والممتحنة .

وقوله تعالى : (يَا أيُّها النَّبيّ) في الأحزاب والطلاق والتحريم .

ونحو قوله سبحانه : (يا أيُّها الناس) في النساء والحج .

ونحو قوله عز وجل : (يا أيُّها المدّثر) و (يا أيُّها المزّمل) وذلك في عشر سور . .

والنوع الثالث : الاستفتاح بالجمل الخبرية :

نحو قوله تعالى : (يَسألونكَ عنِ الأنفَالِ) في الأنفال .

و) بَرَاءَةٌ من الله) في التوبة .

و (أتى أمرُ الله) فى النحل .

و (اقتربَ للناسِ حسابهم) فى الأنبياء .

و (قد أفلحَ المؤمنون) فى المؤمنون .

و (سورة أنزلناها) فى النور .

وقد جاء الاستفتاح بهذه الجمل الخبرية فى ثلاث وعشرين سورة .

والنوع الرابع : الاستفتاح بالقسم :

نحو قول الحق تبارك وتعالى : (والصّافّات) (والذّاريات) (والطور) (والنجم) (والمرسلات) (والنازعات) (والسماء ذات البروج) (والسماء والطارق) (والفجر) (والشمس) (والليل) (والضحى) (والتين والزيتون) (والعاديات) (والعصر) فتلك خمس عشرة سورة .

والنوع الخامس : الاستفتاح بالشرط :

نحو قوله تعالى : (إذا وقعت الواقعة) (إذا جاءك المنافقون) (إذا الشمسُ كُوِّرت) (إذا السّماءُ انفطرت) (إذا السّماءُ انشقّت)(إذا زلزلت الأرض)(إذا جاءَ نصر الله) فذلك سبع سور .

والنوع السادس : الاستفتاح بالأمر :

نحو قوله تعالى : (قُل أُوحيَ) (إقرأ باسم ربك (قُل يا أيّها الكافرون) (قُل هو اللهُ أحد) (قل أعوذ برب الفلق) (قل أعوذ برب الناس) وفى ذلك ست سور .

والنوع السابع : الاستفتاح بالاستفهام :

نحو قوله تعالى : (هل أتى) (عمّ يتساءلون) (هل أتاكَ) (ألم نشرح) (ألم تر) (أرأيتَ) فتلك ست سور .

والنوع الثامن : الاستفتاح بالدعاء :

نحو قوله تعالى : (وَيْلٌ للمطففين) (ويلٌ لكل همزة) (تبَّت يدا أبي لهب) .

والنوع التاسع : الاستفتاح بالتعليل :

وقد جاء التعليل في موضع واحد ، في سورة واحدة ، وهو قوله جل شأنه (لإيلاف قريشٍ) .

النوع العاشر ــ والأخير ــ هو الاستفتاح بحروف التهجي :

وهذا النوع ــ هو محور بحثنا ومدار دراستنا وفهمنا للإعجاز القرآني الوارد في فواتح السور القرآنية ــ المكية منها خاصة .

لقد شاء العلي القدير أن يفتتح بعض سور القرآن العظيم بحروف تحمل إعجازاً كما تحوي أسراراً ، حار فيها العلماء ولا زالوا متحيرين في معرفة كنهها ومضمونها .

إن في القرآن المجيد صيغاً مختلفة من هذه الفواتح :

ــ منها البسيط ، المؤلف من حرف واحد ، وذلك في سور ثلاثة هي: صاد وقاف والقلم إذ تفتتح الأولى بحرف (ص) والثانية بحرف (ق) والثالثة بحرف (ن) ..

ــ ومن هذه الفواتح عشر مؤلفة من حرفين ، سبع منها متماثلة تسمى (الحواميم) لأن أوائل السور المفتتحة بها هي : (حم) وذلك إبتداء من السورة الأربعين إلى السادسة والاربعين ، وهذه السور هي : غافر ، فصلت الشورى ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف ، والسورة الثانية والاربعون منها خاصة مضموم إلى (حم) فيها (ع س ق) ، تتمة العشر

(طه) فى السورة العشرين و (طس) فى السورة السابعة والعشرين ، و (يس) فى السورة الثامنة والثلاثين .

— أما الفواتح المؤلفة من ثلاثة أحرف فنجدها فى ثلاث عشرة سورة . ست منها أولها (أ ل م) وهى البقرة ، وآل عمران ، والعنكبوت ، والروم ولقمان ، والسجدة . وخمس منها بلفظ (أ ل ر) فى مستهل كل من سورة يونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحجر ، واثنتان منها تأليفهما (ط س م) فى سورتى الشعراء والقصص .

— بقى أن ثمة سورتين مفتتحتين بأربعة أحرف . إحداهما سورة الأعراف التى أولها (أ ل م ص) ، والأخرى سورة الرعد التى فى مستهلها (أ ل م ر) .

— وتكون سورة مريم أخيراً هى السورة الوحيدة المفتتحة بخمسة حروف (ك ه ي ع ص) .

يتضح من هذا العرض المفصل ، أن مجموعة الفواتح القرآنية تسع وعشرون وأنها على ثلاثة عشر شكلا ، وأن أكثر الحروف وروداً فيها الألف واللام ، ثم الميم ، ثم الحاء ، ثم الراء ، ثم السين . ثم الطاء ، ثم الصاد ، ثم الهاء والياء والعين والقاف ، وأخيراً الكاف والنون . وجميع هذه الحروف الواردة فى فواتح السور من غير تكرار — يساوى أربعة عشر . وهى نصف الحروف الهجائية ، وبذلك يستأنس المفسرون القائلون : « إن فواتح السور إنما ذكرت لتدل على أن هذا الكتاب الكريم مؤلف من حروف التهجى المعروفة ، فجاء بعضها مقطعاً منفرداً ، وجاء تمامها مؤلفاً مجتمعا ، ليتبين للعرب أن القرآن نزل بالحروف التى يعرفونها ، فيكون ذلك تقريعاً لهم ، ودلالة على عجزهم أن يأتوا بمثله (١) .

---

(١) انظر الكشاف ١/ [illegible]

وقد أسهب فى بيان هذا الرأى — من المفسرين — الزمخشرى ، وتبعه البيضاوى كما انتصر لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية . ولاحظ أصحاب هذا الرأى — وهم فى أوج حماستهم لفكرتهم هذه — أن تحدى القرآن للعرب أن يأتوا بمثله يزداد وضوحا ويكتسب قوة بظاهرة عجيبة حقاً ، نعجب لدراستهم لهـا ، والتفاتهم إليها .

إن الإعجاز القرآنى لم يقف عند حد اشتماله على فواتح مختلفة يبلغ تعدادها تمام حروف الهجاء . ولا بتأليفه تلك الفواتح من نصف الحروف الهجائية ، بل حوى فوق ذلك من كل جنس من الحروف ..

فمن حروف الحَلْق : الحاء ، والعين ، والهاء .

ومن الحروف المهموسة : السين ، والحاء ، والكاف ، والصاد ، والهاء ...

ومن الحروف المجهورة : الهمزة ، والميم ، واللام ، والعين ، والراء ، والطاء ، والقاف ، والياء ، والنون .

ومن الحرفين الشَّفَهيين : الميم .

ومن حروف القَلْقَلة . القاف والطاء .

وهذا ما تنبه إليه الزمخشرى — وإنْ لم يُوضّحه . قال :

« إذا تأملت الحروف التى افتتح الله بهـا السور ، وجدتها نصف أسامى حروف المعجم أربعة عشر ، ثم تجدها مشتملة على أصناف أجناس الحروف المهموسة والمجهورة والشديدة . والمطبقة ، والمستعلية ، والمنخفضة ، وحروف القلقلة . ثم إذا استقريت الكلام ، تجد هذه الحروف هى أكثر دوراً ممّا بقى ، ودليله أن الألف واللام لما كانت أكثر تداوراً جاءت فى معظم هذه الفواتح ، فسبحان الذى دقّت فى كل شىء حكمته .

وقال القاضي أبو بكر : وإنما جاءت على نصف حروف المعجم . كأنه قيل ، من زعم أن القرآن ليس بآية فليأخذ الشطر الباقي ويركب عليه لفظاً معارضة للقرآن .

ولنتأمل معاً — كيف اجتهد العلماء في محاولة الوصول إلى سر الإعجاز الناجم من تآلف هذه الحروف .

قال بعضهم أن الحروف التي افتتح الله بها هذه السور يجمعها قولك (نصٌّ حكيم قاطع له سِرٌّ) وجمعها بعض آخر بقوله (طرق سمعك النصيحة)

وجمعها بعض ثالث : (صُنْ سِرّاً يقطعك حمله) .

واتسع نشاطهم الفكري حول مداول هذه الحروف . فأما ما بدىء بحرف واحد فقد اختلفوا فيه ، فمنهم من لم يجعل ذلك حرفاً وإنما جعله إسماً لشيء خاص ، ومنهم من جعله حرفاً وقال : أراد أن يتحقق الحروف مفردها ومنظومها ،

وأما ما ابتدىء بثلاثة أحرف ، فقالوا إن فيه سراً ، وذلك أن الألف إذا بدىء بها أولا كانت همزة ، وهي أول المخارج من أقصى الصدر ، واللام من وسط مخارج الحروف ، وهي أشد الحروف اعتماداً على اللسان ، والميم آخر الحروف ومخرجها من الفم ، وهذه الثلاثة — الألف واللام والميم — هي أصل مخارج الحروف ، أي الحلق واللسان والشفتين ، وترتبت في التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية ، فهذه الحروف تعتمد المخارج الثلاثة التي يتفرع منها ستة عشر مخرجاً ، ليصير منها تسعة وعشرون حرفاً عليها مدار كلام الخلق أجمعين ، مع تضمنها سرا عجيباً ، وهو أن الألف للبداية واللام للتوسط ، والميم للنهاية ، فاشتملت هذه الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما . هكذا قال العلماء ...

قلتُ . . . وليس هذا فحسب ، بل إن كل سورة استفتحت بهذه الأحرف

(ا ل م) فهى مشتملة على مبدأ الخلق ونهايته وتوسطه ، مشتملة على تخلق العالم وغايته وعلى التوسط بين البداية من الشرائع والأوامر .. فلنتأمل ذلك فى البقرة وآل عمران وتنزيل السجدة ، وسورة الروم ،

ولنتأمل معاً أيضاً — اقتران الطاء بالسين والهاء فى القرآن ، فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات لم يجمعها غيرها . وهى الجهر والشدة والاستعلاء والإطباق والاصمات ، و حرف السين مهموس رخو مستفل صفير منفتح فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها كالسين والهاء ، فذكر الحرفين اللذين جمعا صفات الحروف .

ولنتأمل كذلك السورة التى اجتمعت على الحروف المفردة ، كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف .

فمن ذلك : (ق والقرآن المجيد) فإن السورة مبنية على الكلمات القافية ، من ذكر القرآن ، ومن ذكر الخلق ، وتكرار القول ومراجعته مراراً والقرب من ابن آدم وتلقى الملكين ، وقول العتيد ، وذكر الرقيب ، وذكر السابق والقرين ، والإلقاء فى جهنم ، والتقدم بالوعد ، وذكر المتقين ، وذكر القلب والقرن والتنقيب فى البلاد وذكر القتل مرتين .. وتشقق الأرض ، وإلقاء الرواسى فيها وبسوق النخل . والرزق ، وذكر القوم ، وخوف الوعيد وغير ذلك ..

وسر آخر عظيم — وهو أن كل معانى السورة مناسب لما فى حرف القاف من الشدة والجهر والقلقلة والانفتاح .

وزيادة أيضاً فى توضيح الأمر — أقول : فلنتأمل معاً ما اشتملت عليه سورة (ص) من الخصومات المتعددة ، فأولها خصومة الكفار مع النبى — صلى الله عليه وسلم — وقولهم (أجعل الآلهة إلها واحداً ..) (١) إلى آخر كلامهم ،

---

(١) سورة ص الآية ٥

ثم اختصام الخصمين عند داود ، ثم تخاصم أهل النار ، ثم اختصام الملأ الأعلى فى العلم ، ثم تخاصم إبليس واعتراضه على ربه وأمره بالسجود ، ثم اختصامه ثانياً فى شأن بنيه ، وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم ..

وكذلك سورة (ن والقلم) فإن فواصلها كلها على هذا الوزن مع ما تضمنت من الألفاظ النونية . لذلك كله كانت هذه الحروف من أسرار الفواتح . . وآية من آيات الرحمن التى أودعهـــا قرآنه . . وقف العلماء أمامها مذهولين عاجزين عن الوصول إلى كنهها ، أو معرفة مضمونها ، وتشعبت بهم السبل ، ولكنهم وقفوا عند قولين :

القول الأول : أن هذا علم مستور ، وسر محجوب ، استأثر الله به .

ولهذا قال الصديق رضى الله عنه : فى كل كتاب سر ، وسره فى القرآن أوائل السور . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه . أن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى . وقال الشعبى : أنها من المتشابه . نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله عز وجل .

والقول الثانى : أن المراد منها معلوم . وذكروا فيه ما يزيد على عشرين وجها فمنها البعيد ومنها القريب .

أحدها : ويروى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن كل حرف منها مأخوذ من إسم من أسمائه سبحانه ، فالألف من « الله» واللام من « لطيف » والميم من « مجيد » أو الألف من (آلائه) واللام من (لطفه) والميم من (مجـــده) .

قال ابن فارس : وهذا وجه جيد وله فى كلام العرب شواهد .

والثانى : أن الله أقسم بهذه الحروف بأن هذا الكتاب الذى يقرؤه محمد هو الكتاب المنزل لا شك فيه ، وذلك يدل على جلال قدر هذه الحروف إذ كانت

مادة البيان وقد أقسم الله تعالى بـ « الفجر » و « الطور » فكذلك شأن هذه الحروف في القسم بها ...

والثالث : أنها أسماء للسور فـ (أ ل م) اسم لهذه ، و (حم) إسم لتلك ، وذلك أن الأسماء وضعت للتمييز ، فهكذا هذه الحروف وضعت لتميز هذه السور من غيرها . ونقله الزمخشري عن الأكثرين . وقال فخر الدين الرازي : هو قول أكثر المتكلمين .

الرابع : أن لكل كتاب سراً ، وسر القرآن فواتح السور — قال ابن فارس — أراد أنه من السر الذي لا يعلمه إلا الله والرسخون في العلم .

قلت : وقد استخرج بعض أئمة المغرب من قوله تعالى (الم ، غلبت الروم) فتوح بيت المقدس واستنقاذه من العدو في سنة معينة ، وكان كما قال .

ومن الطبيعي أن يكون للمخالفين لأهل السنة والجماعة آراء وشطحات ...

فالشيعة يرون أن في مجموعة هذه الفواتح — إذا حذف المكرر منها مايفيد مذهبهم فيقولون أنها تعني (صراط على حق نمسكه) .

ومن الطريف — أن أهل السنة لا يتركونهم . فيردون عليهم برأي مستنبط من الفواتح نفسها بحروفها ذاتها (صح طريقك مع السنة) (١)

وهذا النوع من الاستخراج يعرف باسم (عدّ أبي جاد) وقد شدد علماء السلف في إنكاره والزجر عنه ، ويعتبره ابن حجر العسقلاني « باطلا » لا يجوز الاعتماد عليه فقد ثبت عن ابن عباس — رضي الله عنهما — الزجر عن عدّ أبي جاد ، والإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر ، وليس ذلك ببعيد ، فإنه لا أصل له في الشريعة (٢) .

---

(١) انظر تفسير الألوسي ١/ ١٠٤

(٢) الاتقان في علوم القرآن ٢/ ١٦

ولا ريب أن يكون للصوفية في مجال هذه التفسيرات الباطنية آراء أبعد شطحاً، وأغرب لفظاً، وأغمض معنى، ولا نرى أدل على ذلك من قول محيي الدين ابن عربي (١).

« أعلم أن مبادىء السور المجهولة لا يعلم حقيقتها إلا أهل الصور المعقولة فجعلها الله تبارك وتعالى تسعاً وعشرين سورة ، وهو كمال الصورة (والقمر قدرناه منازل) والتاسع والعشرون القطب الذى به قوام الفلك ، وهو علة وجوده ، وهو سورة آل عمران (الم الله) ولولا ذلك لما ثبتت الثمانية والعشرون »... إلى أن يقول في موضع آخر : « ثم جعل سبحانه وتعالى هذه الحروف على مراتب ، منها موصول ومنها مقطوع ومنها مفرد ومثنى ومجموع ثم نبه أن في كل وصل قطعاً ، وليس في كل قطع وصل ، فكل وصل يدل على قطع ، وليس كل فصل يدل على وصل ، والوصل والفصل في الجمع وغير الجمع ، والفصل وحده في عين الفرق ، فما أفرده من هذا فإشارة إلى فناء رسم العبد أزلا ، وما أثبته فإشارة إلى وجود رسم العبودية حالا ... » إلى آخر هذه الشطحات الصوفية التي تعبر عن رأى أصحابها وتستمد سريتها من مصطلحاتهم.

ومهما يكن من شيء — فعندى — أن ثمة قوماً أحبوا أن يدخلوا البيوت من أبوابها . وأن يكونوا أصح رأياً وأوضح تفسيراً في محاولة الوصول إلى سر هذا الإعجاز القرآني الذى أودعه الله في أوائل السور . وقد مرت فكرتهم بأطوار عدة حتى استحالت رأياً نضيجاً قيماً .. لاحظوا أن بعض السور القرآنية تفتتح بهذه الحروف — كما تفتتح القصائد بـ (لا) و (بل) فلم يزيدوا في بادىء الأمر على أن يسموا هذه الحروف فواتح ، وأن يعتبروها — في الواقع نفسه — مجرد فواتح وضعها الله لقرآنه ، وله أن يضع ما يشاء ، كما وضع العرب فواتح لقصائدهم . وقد قال بهذا مجاهد من كبار التابعين (٢).

---

(١) الفتوحات المكية — نقلا عن تفسير الألوسى ١٠١/١

(٢) الاتقان ١٥/٢ .

ثم انتقلت هذه الفكرة إلى مجال أوضح وأوسع حين أصبحت هذه الفواتح في نظر بعضهم تنبيهات وأدوات تنبيه ، لم تستعمل فيها الكلمات المشهورة (ألا) و (أما) الاستفتاحيتين ، لأنها من الألفاظ التي يتعارفها الناس في كلامهم ، والقرآن كلام لا يشبه الكلام ، فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد لتكون أبلغ في قرع السمع .

وقد جعل بعض العلماء — التنبيه للنبي — الذي يجوز أن يكون قد علم في بعض الأوقات كونه — صلى الله عليه وسلم — في عالم البشر مشغولا ، فأمر جبريل بأن يقول عند نزوله (الم ، والر ، وحم) ليسمع النبي صوت جبريل ، فيقبل عليه ويصغي إليه .

لكن السيد رشيد رضا — صاحب تفسير المنار — يستبعد جعل التنبيه للنبي لأنه عليه السلام كان يتنبّه وتغلب الروحانية على طبعه الشريف بمجرد نزول الروح الأمين عليه ودنوه منه ، كما يعلم مما ورد في نزول الوحي من الأحاديث الصحيحة ، ولا يظهر فيه وجه تخصيص بعض السور بالتنبيه . ويرى السيد رشيد رضا — أن التنبيه إنما كان أولا بالذات للمشركين في مكة ثم لأهل الكتاب في المدينة . ولم يكن يعلم السيد رشيد رضا — أنه مسبوق في هذا التأويل ، الذي وجدناه في القول الثاني عشر من تفسير الرازي — فقد نقل الرازي عن قطرب : أن الكفار لما قالوا « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »(١) ...

وتواصوا بالإعراض عنه أراد الله تعالى لما أحب من صلاحهم ونفعهم أن يورد عليهم ما لا يعرفونه ليكون سبباً لإسكاتهم واستماعهم لما يرد عليهم من

---

(١) فصلت ٢٦ .

القرآن ،فأنزل الله عليهم هذه الحروف ، فكانوا إذا سمعوها قالوا متعجبين مذهولين : اسمعوا إلى ما يجىء به محمد ، فإذا أصغوا هجم عليهم القرآن ، فكان ذلك سبباً لاستماعهم وطريقا إلى انتفاعهم (١) .

وهكذا . . سيبقى السيد رشيد رضا فى نظرنا خـــير مَنْ حاول توضيح الغرض من افتتاح بعض السور القرآنية بهذه الحروف المقطعة فى عصرنا الحديث، لذلك فنحن نقول معه ، مستعيرين عباراته بنصها : « من حسن البيان وبلاغة التعبير . التى غايتها إفهام المراد مع الإقناع والتأثر ، أن ينبه المتكلمُ المخاطبَ إلى مهمات كلامه والمقاصد الاولى بها ، ويحرص أن يحيط علمه بما يريده هو منها ، ويجتهد فى إنزالها من نفسه فى أفضل منازلها ، ومن ذلك التنبيه لها قبـــل البدء بها لكيلا يفوته شىء منها .

وخلاصة القول . . أن لفواتح السور سرّاً عجيباً ، وهذا السر آية من آيات الرحمن أودعها فى القرآن ، لا زال الناس متحيّرين فى معرفة مضمونها وعميق كنهها ، أراد الحق بها أمراً لا يعلمه إلا هو ، وإذا كان بعض الصحابة قد اجتهدوا ، وإذا كان بعض التابعين قد أدلوا برأيهم ، وإذا كان من العلماء من فسّر وأوّل ووصل إلى نتائج مقبولة . . إلاّ أن سرّ هـــذه الفواتح القرآنية لا زال وسيبقى فى يد الله إلى أبد الآبدين .

إن الحق تبارك وتعالى افتتح سور قرآنه بهذه الحروف إرادة منه ، للدلالة بكل حرف منها على معانٍ كثيرة يقصدها هو ، ولم يعلمها لأحد . . فقد تكون هذه الحروف جامعة لأن تكون افتتاحا ، وقد يكون كل حرف منها فى آجال قوم وأرزاق آخرين وقد يكون ذلك كله وغيره .

---

(١) تفسير المنار ٣٠١/٨ وانظر البرهان ١٧٥/١ ، والاتقان ١٧/٢ وابن جرير ٦٩/١ وابن كثير ٣٧/١ فى تفسيرهما .

إلا أننا نرى ما هو أهم وأسمى . . أن هذه الفواتح آية من آيات الله التى لا تنفد، ودليل على عظمة القدرة الإلهية التى أودعها الحق تبارك وتعالى كتابه العظيم ، فظهرت فيه بوصفها آية جديدة من آيات الإعجاز القرآنى . وصدق الله العظيم إذ يقول : « قُلْ لَئِنِ اجتمعت الإِنسُ والجنّ عَلىَ أنْ يأتوا بِمثلِ هذا القرآن لا يأتون بمثلِه ، ولو كانَ بعضُهم لِبعضٍ ظهيرًا » .

---

٤ ــ المناسبة بين السور والآيات

من أروع صور الإعجاز التي وجدناها في كتاب رب العالمين : « المُنَاسَبة بين سور القرآن العظيم وآياته » ، أي الترتيبات والروابط بين سور القرآن وآياته » . نقصد :

ــ الحكمة في جعل هذه السورة بعد هذه السورة . .

ــ والحكمة في وضع هذه الآية إلى جنب هذه . . وكل هذه الأمور تشهد بعظمة الحق سبحانه ، وتنطق بإعجاز كتابه الكريم . .

وقبل أن نتطرق إلى موضوعنا.. سأوضح أولا : « معنى المناسبة » ومضمون علمها (١) .

المناسبة في اللغة : المقاربة . وفلان يناسب فلاناً ، أي يقرب منه ويشاكله ، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل . كالأخوين وأبناء العمومة وغيرهم ، وإن كانا متناسبين بمعنى رابطٍ بينهما وهو القرابة .

وفي باب القياس : المناسبة في العلة هي الوصفُ المقاربُ للحكم ، لأنه إذا حصلت مقاربته له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم . ولهذا قالوا :

« المناسبةُ أمرٌ معقولٌ . إذا عرِضَ على العقول ، تلقَّتْه بالقَبُول » .

وكذلك المناسبة في فواتح السور وخواتمها ، ومرجعها إلى معنى ما رابط بينهما . عام أو خاص ، عقلي أو حسي أو خيالي ، وغير ذلك من أنواع

---

(١) انظر الاتقان في علوم القرآن ٢/١٠٨ والبرهان ١/٣٥

العلاقات . وقد يكون مرجعها إلى التلازم الذهنى ، كالسبب والمسبّب ، والعلّة والمعلول والنظيرين ، والضدّين . ونحوه .. أو التلازم الخارجى ، كالمرتّب على ترتيب الوجود والواقع . فالمناسبة إذا علم شريف . تحرزُ بِه العقول ، ويعرف به قدر الكلام ، وفائدته . . جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم . المتلائم الأجزاء .

أستطيع أن أقول . . أن أكثر لطائف القرآن العظيم مودعة فى ترتيب سوره وروابط آياته ، ومع ذلك فهذا العلم قل اعتناء المفسرين به ، لدقته وعمقه ، فلم نظفر منه إلا بإشارات قليلة عند بعض العلماء ، منهم فخر الدين الرازى ، قال فى تفسيره : « أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط » ولم يزد على ذلك .

وقال القاضى أبو بكر فى كتابه سراج المريدين : « ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعانى ، منتظمة المبانى — علم عظيم لم يتعرض له إلا عالمٌ واحدٌ عمل فيه سورة البقرة ، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه ، فلما لم نجد له حملة ، ختمنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين الله ، ورددْناه إليه » . أ . هـ . وقال الشيخ أبو الحسن الشهرابانى « أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ، ولم نكن سمعناه من غيره هو الإمام أبو بكر النيسابُورى ، وكان غزير العلم فى الشريعة والأدب ، وكان يقول على الكرسى إذا قرىء عليه القرآن لِمَ جعلت هذه الآية إلى جنب هذه وما الحكمة فى جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة » .

هذا ما تحدثت به المصادر القديمة ، ومنه نعلم أن « علم المناسبة » يبحث معرفة سر هذا الإعجاز القرآنى الناجم عن الترتيبات والروابط بين الآيات بعضها البعض وبين السور ذاتها . والحكمة الآلهية فى جعل هذه السورة بعد تلك .

ويبدو أن هذا العلم قد تعرض للإنكار والجحود — فى القديم — وهذا ما أدّى إلى وقف البحث فيه ، لأننا سمعنا بعض الواهمين والجاحدين ينكرونه ، ويُسَبهْسِرجُون على من يحاول الاقتراب منه ، وحجتهم فى ذلك .. قولهم لا يُطلب للآى الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المتفرقة » .

أقول : شاء العلى القدير ، أن يكون ترتيب قرآنه العظيم . وإن كان حسب الوقائع تنزيلا ، إلا أنه حسب الحكمة ترتيباً . فقد رُتّبت سوره كلها وآياته توقيفاً . أضف إلى ذلك — أن حافظ القرآن الكريم لو أستُفْتى فى أحكام متعددة، أو ناظر فيها، أو أملاها، لذكر آية كل حُكمٍ على ما سئل ، وإذا رجع إلى التلاوة لم يَقل كما أفتى ، ولا كما نزل جملة على قلب النبى الأمىّ — صلى الله عليه وسلم، ومن المعجز البين أسلوبه ، ونظمه الباهر، فإنه « كتابٌ أحكِمت آياتِه ، ثمَّ فُصّلت من لدن حكيمٍ خبير » (١) .

إن قمة الإعجاز القرآنى . الناجمة عن المناسبة . نستطيع أن نلمسها إذا تعمقنا آياته البينات ، من حيث كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة ، ثم المستقلة .. ماوجه مناسبتها لما قبلها . إذا أدركنا هذا — فقد أدركنا علماً عظيما — هو علم المناسبة وهذا أيضاً فيما يتصل بسور القرآن العظيم ،

إننا إذا أنعمنا النظر فى افتتاح كل سورة ، لوجدناها فى غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها .. ثم هو يخفى تارة ، ويظهر أخرى ..

فافتتاح سورة « الأنعام » بالحَمْد فى قوله تعالى : (الحَمْدُ لِله الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأرْضَ ..) — الآية ، فإنه مناسب لختام سورة المائدة بقوله تعالى : (لِله مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ ومَا فِيهِنَّ وهو

(١) هود ١ .

علىَ كلِّ شيءٍ قَديرٌ)(١) فنى ذلك فصلُ القضاء كما قال سبحانه : (وقُضيَ بَينَهُمْ بالحقِّ وقيلَ الحَمْدُ لله ربِّ العالمينَ)(٢) .

وافتتاح سورة « فاطر » بالحمد أيضا ، فى قوله تعالى : الحَمْدُ للهِ فاطِرِ السَّمَواتِ والأرضِ جاعِلِ الملائكةِ رُسلاً أولى أجنِحَةٍ مُثنى وثلاثَ ورُباعَ يزيدُ فى الخَلْقِ ما يَشاء إنَّ الله علىَ كلِّ شيءٍ قَديرٌ) .

فإنه مناسب لختام ما قبلها — فى سورة سبأ — من قوله :

(وحِيلَ بينَهُمْ وبينَ ما يَشتَهُونَ كما فعِلَ بأشياعِهِمْ من قَبلُ)(٣) .

وكما قال سبحانه (فقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذينَ ظلَمُوا والحَمْدُ للهِ ربِّ العالمين)(٤) .

◦ وافتتاح سورة الحديد بالتسبيح فى قوله (سَبَّحَ للهِ ما فى السَّمواتِ والأرضِ ، وهُوَ العَزيزُ الحَكيمُ) — فإنه مناسب لختام سورة الواقعة — من الأمر به — بقوله تعالى (فسَبِّحْ باسمِ ربِّكَ العظيمِ)(٥) .

◦ وافتتاح سورة البقرة بقوله سبحانه (ألم ذَلِكَ الكِتابُ لا رَيبَ فِيهِ) — إشارة إلى « الصِّراط » فى قوله (اهْدِنا الصِّراطَ المُستَقيمَ) كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم : ذلك الصراط الذى سألتم الهداية إليه هو « الكتاب » .

---

(١) الآية ١٢٠
(٢) الزمر ٧٥
(٣) سبأ ٥٤
(٤) الأنعام ٤٥
(٥) الآية ٩٦

وهذا معنى حسن يظهر فيه مدى ارتباط سورة البقرة بالفاتحة ..

ولنتأمل معاً ارتباط سورة (لإيلافِ قُرَيشٍ) بسورة الفيل . نجد ارتباطاً وثيقاً . قال عنه الأخفش : إنّ اتصالها بها من باب قوله تعالى : (فالتقطهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيكُونَ لَهُمْ عدوّاً وحزناً)(١) .

ومن آيات هذا الإعجاز القرآني — الناجم عن المناسبة — ما نراه من لطائف « سورة الكوثر » : إنها كالمقابلة للتي قبلها ، لأن « سورة الماعون » قد وصف الله فيها المنافق بأمور أربعة : البُخل ، وتركِ الصَّلاة ، والرِّياء فيها ، ومنعِ الزكاة .

فذكر هنا في مقابلة البُخل : (إنَّا أعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرْ) — أي الكثير .

وفي مقابل ترك الصلاة قال : (فَصَلِّ) — أي دُمْ عليها .

وفي مقابلة (الرِّياء) قال : (لِرَبِّكَ) — أي لِرِضاءِ ربِّك لا للناس .

وفي مقابلة مَنْع الماعون أمر بقوله : (انْحَرْ) وأراد به التصدق بلحم الأضاحيُ ، فانظر يا أخي القارىء واعتبر هذه المناسبة العجيبة .

ومن أبدع آيات هذا الإعجاز — مناسبة فاتحة سورة الإسراء بالتَّسْبيح وسورة الكهف بالتحميد، لأن التسبيح حيث جاء فهو مُقَدَّم على التَّحْميد . فنحن نقول : « سبحان الله والحمد لله » . قال الشيخ كمال الدين الزملكاني في كتابه « البرهان في إعجاز القرآن » عن مناسبة افتتاح سورة الإسراء ، ما معناه : « أن سورة بني إسرائيل أفتتحت بحديث الإسراء وهو من الخوارق الدالة على صدق

(١) القصص ٨

رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأنه رسول من عند الله . والمشركون كذبوا ذلك وقالوا ، كيف يسير في ليلة من مكة إلى بيت المقدس ، وعادُوا وتعنَّتُوا وقالوا : صِفْ لنـا بيت المقدس ، فرُفِعَ لَهُ حتى وصَفَهُ لهم .

والسبب في الإسراء أولا لبيت المقدس ، ليكونَ ذلك دليلاً على صحّة قوله بصعود السموات ، فافتتحت بالتسبيح تصديقاً لنبيه فيما ادّعاه ، لأن تكذيبهم له تكذيب عناد ، فنَزَّه نفسه قبل الإخبار بهذا الذى كذبوه .

وأما الكهف — فإنه لما احتبسَ الوحي ، وأرجف الكفّار بسبب ذلك أنزلها الله ردًّا عليهم ، وأنه لم يقطع نِعَمَهُ على نبيه — صلى الله عليه وسلم — بل أتمَّها عليه ، بإنزال الكتاب ، فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة .

هذا ما قاله الزملكاني ، وهو جيد ، ونقول أيضاً :

● إن استفتاح سورة الإسراء بقوله تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً من المَسْجِدِ الأقصَى ..) الآيات إلى قوله (وآتينَا مُوسَى الكتاب)(١) ووجه اتصالها بما قبلها .. إن التقدير : أطلعناهُ على الغيب عِياناً ، وأخبرْناه بوقائع مَنْ سلف بياناً . لتقومَ أخبارهُ على معجزته بُرْهاناً — أى سبحان الذى أطلعك على بعض آياته لتقصها ذكرًا . وأخبرك بما جرى لموسى وقومه فى الكرّتين . لتكون قصتهما آية أخرى .. أو أنه أسرى بمحمد إلى ربه كما أسرى بموسى من مصر حين خرج منها خائفاً يترقب ثم ذكر بعده (ذُرِّيَّة مَنْ حملنا مع نوحٍ إنه كان عبداً شكورًا) ليتذكر بنو إسرائيل نعمة الله عليهم قديماً ، حيث نجّاهم من الغرق ، إذْ لو لم ينجِّ أباهم من أبناء

---

(١) الإسراء ١ — ٣

نوح لما وجدوا ، وأخبرهم أن نوحاً كان عبداً شكوراً وهم ذريته ، والولد سر أبيه ، فيجب أن يكونوا شاكرين كأبيهم ، لأنه يجب أن يسيروا سيرته فيشكروا .

ولنتأمل معاً — كيف أثنىَ عليه ، وكيف جعل صفته تليق بالفاصلة ؛ ويتم النظم بها مع خروجها مخرج المرُور من الكلام الأول إلى ذكره ومدحه بشكره . وأن يعتقدوا تعظيم تخليصه إياهم من الطوفان بما حملهم عليه ، ونجاهم منه ، حين أهلك مَنْ عداهم وقد عرَّفهم أنه إنما يؤاخذهم بذنوبهم وفسادهم فيما تسلط عليهم من قتلهم . ثم عاد عليهم بالإحسان والإفضال ، كي يتذكروا ويعرفوا قدر نعمة الله عليهم. وعلى نوح الذى ولدهم وهم ذريته ؛ فلما صاروا إلى جهالتهم وتمرَّدوا عاد عليهم التعذيب .

ثم ذكر الحق سبحانه وتعالى فى ثلاث آيات بعد ذلك معنى القصة ، بكلمات قليلة العدد ، كثيرة الفوائد، ولا يمكن شرحها إلاَّ بالتفصيل الكثير ، والكلام الطويل، مع ما اشتمل عليه من التدرج العجيب ، والموعظة العظيمة بقوله : (إنْ أحسنتمْ أحسنتمْ لأنفسكم ، وإنْ أسأتم فلها) ولم ينقطع بذلك نظام الكلام إلى أن خرج بقوله :

(عَسىَ رَبُّكُمْ أنْ يَرْحمكمْ وإنْ عُدْتُم عُدْنا)(١) .

يعنى إنْ عُدْتم إلى الطاعة عُدْنا إلى العفو ، ثم خرج خروجا آخر إلى حكمة القرآن لأنه الآية الكبرى .

إذا ثبت لنا الآن هذا الإعجاز بالنسبة إلى السور ، فما ظنكَ بالآيات ، وتعلق بعضها ببعض ، بل عند التأمل يظهر لنا أن القرآن كله كالكلمة الواحدة وهذا سر عظمته ومنتهى روعته ..

فهناك روابط وثيقة تربط الآيات بعضها ببعض ، وتجعله كالبناء الشامخ

---

(١) الإسراء ٨

العظيم منها : أن تكون معطوفة : ولا بد أن تكون بينهما جهة جامعة : كقوله تعالى :

(يَعلَمُ ما يَلِجُ في الأرضِ وَمَا يَخرُجُ منها ، وَمَا ينزلُ من السَّماءِ وما يَعرُجُ فِيها) (١) وقوله : (واللهُ يقبضُ ويبسطُ وإليهِ تُرجعون)(٢) .

وفائدة العطف هنا : أن جعلهما كالنظيرين والشريكين .

وقد تكون العلاقة بينهما المضادَّة أو التضاد . وهذا كمناسبة ذكر الرحمة بعد ذكرِ العذاب ، والرغبة بعد الرهبة ، وعادة القرآن العظيم إذا ذَكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعيداً ، ليكون ذلك باعثاً على العمل بما سبق ، ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه ليُعلم عظم الآمر الناهي . وتأمل يا أخي سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها ... تجد أوضح آيات الحكمة الإلهية التي أودعها العلي القدير في كتابه المجيد ، لتشهد بعظمته وإعجاز آياته .

وقد تأتي الجملة معطوفة على ما قبلها ، ويُشكل وجه الارتباط بينهما . وهذا أمر يحتاج إلى شرح وتوضيح .

فلنتأمل معاً قوله تعالى : (يَسألُونَكَ عنِ الأهِلَّةِ ، قُلْ هيَ مَواقِيت للنَّاسِ والحجِّ ، وليسَ البرُّ بأنْ تأتُوا البيوتَ منْ ظهُورِهَا . ولكنَّ البرَّ منْ اتقى ، وأتوُا البيوتَ منْ أبوابِها ، واتقوُا الله لعلَّكمْ تفلحون) (٣)

وهنا قد يُقال : أي رابط بين أحكام الأهلة وبين حكم إتيانِ البيوت ؟

---

(١) الحديد ٤ .

(٢) البقرة ٢٤٥ .

(٣) البقرة ١٨٩ .

فنقول : أن الجواب يتضح من وجوه .

أولهما : كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الحكمة فى تمام الأهلة ونقصانها ؛ معلوم أن كلَّ ما يفعله الله فيه حكمة ظاهرة ، ومصلحة لعباده ، فدعوا السؤال عنه ، وانظروا فى واحــدةٍ تفعلونها أنتم ، مما ليس من البر فى شىء وأنتم تحسبونها برًّا .

الثانى : أنه من باب الاستطراد ، لمَّا ذكر أنها مواقيت للحج ، وكان هذا أفعالهم فى الحج ، فى الحديث الشريف ، أن ناساً من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطاً ولا داراً ، ولا فُسطاطاً من باب ، فإنْ كان من أهل المدَرَ نقَبَ نقباً فى ظهر بيته ، منه يدخل ويخرج ، أو يتخذ سلماً يصعد به وإن كان من أهل الوَبَرْ خرج من خلف الخباء ، فقيل لهم : ليس البر بتحرجكم من دخول الباب — لكن البرَّ برَ منْ اتقى ما حــرم الله ، وكان من حقهم السؤال عن هذا ، وتركهم السؤال عن الأهلة .

ونظيره فى الزيادة على الجواب — قوله صلى الله عليه وسلم — لما سئل عن المتوضىء بماء البحر فقال : « هُو الطهور ماؤه ، الحلّ مِيتَته (١) .

الثالث : أنه من قبيل التمثيل لِما هُمْ عليه من تعكيسهم فى سؤالهم ، وأن مثلهم كمثل من يترك باباً ويدخل من ظهر البيت ، فقيل لهم : ليس البرَّ ما أنتم عليه من تعكيس الأسئلة ، ولكن البر من اتقى ذلك . ثم قال سبحانه (وأتوُا البيُوتَ منْ أبوابها) أى باشروا الأمور من وجوهها التى يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا . والمراد أن يصمم القلب على أن جميع أفعال الله حكمة منه ، وأنه سبحانه (لا يُسألُ عمَّا يَفعلُ وهُمْ يسئلون)(٢) .

---

(١) رواه ابن ماجه فى كتاب الطهارة : ١٣٦/١ (بسنده عن أبى هريرة) .
(٢) الأنبياء ٢٣ .

فإن فى السؤال اتهاماً .

ومن هذا الوجه أيضاً — قول الحق سبحانه وتعالى : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت ..)(١) .

فقد يقول قائل : ما وجه الجمع بين الإبل والسماء والجبال والأرض فى هذه الآية ؟ ..

فأقول : أنه جمع بينها على مجرى الإلف والعادة بالنسبة إلى أهل الوبر ، فإن كل انتفاعهم فى معايشهم من الإبل ، فتكون عنايتهم مصروفة إليها ، ولا يحصل إلا بأن ترعى وتشرب وذلك بنزول المطر ، وهو سبب تقلب وجوههم فى السماء . ثم لا بد لهم من مأوى يؤويهم ، وحصن يتحصنون به ، ولا شىء فى ذلك كالجبال ، ثم لا غنى لهم — لتعذر طول مكثهم فى منزل عن التنقل من أرض إلى سواها ، فإذا نظر البدوى فى خياله ، وجد صورة هذه الأشياء حاضرة فيه على الترتيب المذكور .

• وقد تكون الروابط التى تربط بين آيات القرآن العظيم غير أدوات العطف ..

حينئذ نجد أن هناك دعائم تؤذن باتصال الكلام — وهى قرائن معنوية مؤذنة بالربط ، فتنزل الآية الثانية من الأولى منزلة جزئها الثانى . ولهذا الأمر وسائل :

منها — التنظير : فإن إلحاق النظير بالنظير من دأب العقلاء .

إقرأ قول الحق تعالى : (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) عقب قوله تعالى :

---

(٣) الغاشية ١٧ — ١٨ .

(أولئكَ هُم المؤمنونَ حقًّا لهمْ درجاتٌ عندَ ربِّهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريم) (١) .

فإن الله سبحانه أمر رسوله أن يمضى لأمره فى الغنائم على كُرْه من أصحابه ، كما مضى لأمره فى خروجه من بيته لطلب العـــير وهم كارهون ، وذلك أنهم اختلفوا فى القتال يوم بدر فى توزيع الأنفال ، وحاجُّوا النبي — صلى الله عليه وسلم ، وجادلوه ، فكرهَ كثيرٌ منهم ما كان من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم — فى النفل . فأنزلَ الله هذه الآية ، وأنفذ أمره بها ، وأمرهم أن يتقوا الله ويطيعوه ، ولا يعترضوا عليه فيما يفعله من شيء ما ، بعد أن كانوا مؤمنين ، ووصف المؤمنين ثم قال : (كما أخرجَكَ ربكَ منْ بيتك بالحقِّ ، وأنَّ فريقاً منَ المؤمنين لكارهُون) يريد أن كراهتهم لمـــا فعلته من الغنائم . ككراهتهم للخروج معك .

ومنها — المضادَّة .. من مثل قوله تعالى فى سورة البقرة :

(إن الذينَ كفرُوا سَوَاءٌ عليهمْ أأنذرتهمْ أمْ لمْ تُنذرْهُمْ لا يُؤمنونَ)(٢)

فإن أول السورة كان حديثاً عن القرآن الكريم . وأن من شأنه كيتَ وكيت وأنه لا يهدى القوم الذين من صفاتهم كيت وكيت ، فرجع إلى الحديث عن المؤمنين، فلما أكمله عقب بما هو حديث عن الكفار ، فبينهما جامـــعٌ وهيَّ بالتضاد من هذا الوجه ، وحكمته للتشويق والثبوت على الأول ، كما قيل : وبضدِّها تتبينُ الاشياء ..

فإن قيلَ .. ولكن هذا جامع بعيد ، لأن كونه حديثاً عن المؤمنين

---

(١) الأنفال ٤ .

(٢) الآية ٦

بالعرض لا بالذات ، والمقصود بالذات الذى هو مساق الكلام — إنما هو الحديث عن الكتاب لأنه مفتتح القول .

قال العلماء .. لا يشترط فى الجامع ذلك ، بل يكفى التعلق على أى وجه كان ، ويكفى فى وجه الربط ما ذكرنا ، لأن القصد تأكيد أمر القرآن والعمل به والحث على الإيمان به ؛ ولهذا لما فرغ من ذلك قال : (إنْ كُنتم فى ريبٍ مما نزّلنا على عبدِنا فأتوا بسورةٍ منْ مثله ، وادْعوا شهداءَكُمْ منْ دُونِ اللهِ إنْ كنتمْ صادِقين)(١)

وبعد — فإن معرفة المناسبات بين السور والآيات لهو علم شريف . لا يصل إليه إلا من أعمل عقله ، وكدّ فكره ، وتأمل فى هذا الكتاب العظيم ، حينئذ تصفو روحه ، وتهدأ نفسه ، بما يمده الله من نور فى قلبه ، فيدرك سر هذا الإعجاز القرآنى ..

---

(٢) البقرة ٢٣ .

٥ — الإيقاع الصوتي والتناسق الفني

القرآن كلام الله ، المعجز الخلق في بلاغته وأسلوبه ونظمه ، وفي تأثير هدايته وفي علومه وحكمه ، وفي كشف الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة. وفي كل باب من هذه الأبواب للإعجاز فصول ، وفي كل فصل منها فروع ترجع إلى أصول .. ولقد حار العلماء في كشف حجب البيان عن وجوه إعجاز القرآن ، فمن آيات هذا الإعجاز ما ذكروه تحت باب :

« الرَّوْعة التي تَلحق قلوبَ سامعيه وأسماعهم عند سماعه ، والهَيْبَة التي تَعتريهم عند تلاوته لقوة حاله وإبَانَة خَطَره » .

هذه الروعة قد اعترف بها جماعة قبل الإسلام وبعده ، فمنهم من أسلم لها لأول وهلة وآمن به ، ومنهم من كفر . جاء في الصحيح عن جُبَيْر بن مطعم قال : « سمعت النبي — صلى الله عليه وسلم — يقرأ في المغرب : « والطور » . « فلما بلغ هذه الآية ، (أمْ خُلِقُوا منْ غَيْرِ شيءٍ أمْ هُمُ الخَالِقُون ، أمْ خَلَقُوا السَّموات والأرْضَ بلْ لا يُوْمنُون ، أمْ عِندَهمْ خزَائن ربِّك أم هُمُ المصَيْطِرُون)(١) كاد قلبي أن يطير » . وفي رواية : « ذلك أول ما دخل الإيمان قلبي » .

وجاء في المصادر القديمة ، أن عُتبة بن ربيعة كلَّم النبي — صلى الله عليه وسلم — فيما جاء به من خلاف قومه ، فتلا عليه « حمَ فصلت .. إلى قوله (صاعقةً مثلَ صاعِقةِ عاد وثمُود)(٢) فأمسك عُتبة بيده على في النبي — صلى الله عليه وسلم ، وناشده الرحم أن يكف .. » وفي رواية : فجعل النبي

---

(١) الآيات ٨٤ — ٣٧ .

(٢) فصلت ١٣ .

صلى الله عليه وسلم يقرأ وعتبة مصغٍ مُلقٍ يديه خلف ظهره ، معتمداً عليهما حتى انتهى إلى السجدة (١) فسجد النبي – صلى الله عليه وسلم ، وقام عُتبة لايدري بما يراجعه ورجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قومه حتى أتوه ، فاعتذر لهم ، وقال : لقد كلمني بكلام الله ما سمعت أُذُناي بمثله قط ، فما دريت ما أقول له » .

وحكى عن بعضهم أنه كان إذا أخذ المصحف بيده يغشى عليه من هيبته ..

فما السر فى ذلك ؟ ما سر روعة القرآن تلك ؟

يستطيع الباحث المدقق ، والقارىء المتأمل . أن يقف على أشياء كثيرة وعوامل عديدة . يمكن أن تكون وراء هذه الرّوعة .. ولقد زخرت كتب القدماء والمحدثين بالحديث عن هذه الرّوعة وما تحويه . وتحـدثوا أيضاً عن الهيبة التى تعترى الإنسان عند قراءته . .

ولكنى سأقف عند عنصر فريد ، وهو فى رأيى – من أهم العناصر التى تُبْرِز سرّ هذه الرّوعة وهذه الهيبة،وتضع أمام بصائرنا وأبصارنا وجهاً جميلا من وجوه الإعجاز القرآنى .. أقول .. أن هذه الرّوعة وتلك الهيبة إنما ترجع إلى « الإيقاع الصوتى والتناسق الفنى » بين كلمات القرآن المظيم وآياته ، هـذا التناسق . . وهذا الإيقاع ، هو الذى أذهل سامعيه ، فلم يلبثوا حين وقعت على مسامعهم آياته ، أن يتحولوا عن رأيهم المعادى ، وأن يركنوا إلى مسالمته – صلى الله عليه وسلم – ويدخلوا فى دينه ، ثم صارت عداوتهم موالاة ، وكفرهم إيماناً، وما هذا التأثير النفسى إلا آية من آيات الرحمن ، تشهد بعظمة وسحر هذا البيان الإلهى ، الذى أودعه الله – سبحانه – مكنـون كتابه ، ليشهد بعظيم آلائه ونعمائه ..

---

(١) آية السجدة هى الآية ٣٨ .

إن هذا القرآن العظيم . يمتاز بأسلوب إيقاعى جميل ، غنى بالموسيقى ، مملوء نغماً وسحراً ، فى كل سورة منه وآية ، وفى كل مقطع منه وفقرة ، وفى كل مشهد منه وقصة ، وفى كل مطلع منه وختام .. نجد هذه الخصيصة البارزة الواضحة ، حتى ليُعَدّ من الخطأ الكبير فى هذا المجال ، أن نفاضل فيه بين سورة وسورة ، أو نوازن بين مقطع ومقطع .. لكننا حين نشير إلى تفَرّد سورة منه بنسق خاص ، وإيقاع متميز ، إنما نقرر ظاهرة أسلوبية بارزة نؤيدها بالأدلة . وندّعمها بالشواهد ، مؤكـــدين أن القرآن المجيد نسيج واحد فى بلاغته وسحر بيانه . إلا أنه متنوع فى إيقاعه الصوتى ، وتناسقه الفنى ، تنوع موسيقى الوجود .

ولعلنا لا نتجاوز الحقيقة إن رَدَدْنا سحرَ القرآن إلى نسقه الذى يجمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً ... فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة ، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة ، وأخذ فى الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلية ، والفواصل المتقاربة فى الوزن التى تغنى عن التفاعيل ، والتقفية التى تُغنى عن القوافى ، وضم ذلك إلى الخصائص التى ذكرناها فسبق النثر والنظم جميعاً(١) .

إن هذا الإيقاع الصوتى ، لينبعث فى القرآن المجيد حتى من اللفظة المفردة ، فى كل آية من آياته ، فتكاد تستقل بجرسها وموسيقاها ، بتصوير لوحة فيها اللون زاهياً أو خفيفاً ، وفيها الظل كثيفاً أو شفيفاً ..

فلنقف قليلا .. لنتأمل معاً هذه الصورة ..

— هل هناك لون أزهى وأبهى من نضرة الوجوه السعيدة ، الناظرة إلى خالقها ..؟

— وهل هناك لون أشد تجهماً من سواد الوجوه الشقية الكالحة الباسرة ،

---

(١) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ٨٦ .

فى قول الحق عز شأنه (وُجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ إلى ربِّها ناظرةٌ ، ووجوهٌ يومئذٍ باسرةٌ ، تظنُّ أن يُفعل بها فاقرةٌ)(١) ..

لقد استقلت فى لوحة السعداء لفظة (ناضرة) بتصوير أزهى لون وأبهاه ..

كما استقلت فى لوحة التعساء لفظة (باسرة) برسم أمقت لون وأنكاه .. هذه واحدة .

● ولنستمع معاً إلى همسات السين المتعاقبة المكررة .. فإننا لنكاد نستشف نعومة ظلها . مثلما نستريح إلى خِفَّة وَقْعِها فى قوله جل شأنه :

(فلا أُقسِم بالخُنَّسِ ، الجَوار الكُنَّس ، واللَّيل إذا عسعس والصُّبح إذا تنفَّس)(٢) .

بينما تقع الرهبة فى أعماقنا ونحن نسمع لاهثين مكروبين صوت (الدَّال) المنذرة المتوعدة ، مسبوقة (بالياء) المشبعة المديدة ، فى لفظة « تَحِيدُ » بدلا من « تنحَرِف » أو « تبتعد » فى قول سبحانه : (وَجَاءَت سكرةُ الموتِ بالحقِّ ، ذلكَ ما كنتَ منهُ تحيدُ)(٣) .

ولنقرأ معاً قوله تعالى (فمنْ زُحزِحَ عن النَّ   الجنَّةَ فقدْ فاز)(٤) .

فلا ترى — يا أخى — فى المعجم غيرَ
الإبعاد والتَّنحية بكل ما يقع فى هذا
ذُعر الذى يمر بحسيس النار ، ويسه

---

(١) القيامة ٢٢ — ٢٥ .
(٢) التكوير ١٥ — ٨
(٣) سورة ق ١٩ .
(٤) آل عمران ٩٥

وليأخذنّك من الغيظ مثل ما يأخذ جهنم حتى تسمع لفظ « تَميّز » من قوله تعالى : (تكادُ تميزُ منَ الغيظِ)(١) .

وليستولين عليك القلقُ — يا أخي — وأنت تكرر (هاء) السّكت في أكثر فواصل سورة « الحاقة » ، فتنسى وأنت تتلو قول تعالى : (ما أغنى عنّي ماليهْ هلكَ عنّي سُلطانيه)(٢) .

أن الذي هلك سلطانه ، من أوتي كتابه بشماله . . فتظل من الآيات في قلق شديد . . وما أحسب شفتيك إلا مُنقبضتين استقباحاً واستهجاناً لحال الكافر الذي يتجرع صديدَه ، ولا يكاد يسيغه في قوله جلا وعلا(وُيسقى منْ ماءٍ صديدٍ يتجرّعهُ ولا يكادُ يُسيغه)(٣) . فتستشعر في لفظ « التجرع » ثقلا وبطأً يدعوان إلى التقزز والكراهية .

ولا أحسبكَ — يا أخي — إلا مستشعراً عُنف لفظة « الكبكبة » في قوله سبحانه : (فكُبكبوا فيها هم والغاوون) (٤) حتى لتكاد تتصور أولئك المجرمين يكبّون على وجوههم ، أو على مناخرهم ؛ ويلقوْن إلقاء المهملين ، فلا يُقيم أحدٌ لهم وزناً .

فإن يكُ هذا كله في اللفظة المفردة ، تعبر مستقلة عن لوحة كاملة ، فكيف يا أخي — بالآية التي تتناسق في جوّها الكلمات ، أو في السورة التي تنسجم حول فكرتها جميع الآيات؟؟

● من ذا الذي يقرأ قوله تعالى : (يُرسلُ عليكما شواظٌ منْ نارٍ

---

(١) فصلت ١٢ .

(٢) ٢٠ .

(٣) انظر الكشاف ٢ / ٢٩٧ .

و نحاس فلا تنتصران) (١) . ثم لا يتخيل فى جو هذه الآية وحدنا شواظ النارى يتطاير ، والنحاس الملتهب يذوب فوق رءوس المجرمين ، وهم يحاولون النفاذ من أقطار السموات ؟

● ومن ذا الذى يقرأ سورة كاملة من سور القرآن العظيم ، طويلة أو قصيرة ، مكية أو مدنية ، ثم لا يوقظ نسقها الرائع قلبه ، ويهز إيقاعها العجيب مشاعره ؟ . .

إن المرء ليحار إذا سمع مثلا « سورة الرحمن » فيتساءل :

هل انبعث إيقاعها الرخىّ المنساب من مطلعها أم من ختامها ، أم من خلال آياتها ؟ وإذا هو يُدرك أن الإيقاع المنتظم يسرى فيها كلها . . فى فواصلها ومقاطعها وفى ألفاظها وحروفها ، وفى انسيافها وانسيابها ، حتى لو انتقى على حدة مقطعاً واحداً من مقاطعها ، أو موضوعا من موضوعاتها الجزئية ، والتمس فى أجزائه الإيقاع والنغم . لكان فى كل جزء منه نغمة ، وفى كل حرف منه لحن من ألحان السماء .

هذا هو الأساس الأول فى الإعجاز الناجم عن الإيقاع والتناسق . . وعلى هذا الأساس من انفراد القرآن بالحفاظ على تناسقه الإيقاعى ، سواء اجتمعت — على تعاقب سوره — وحدة كاملة ، أم اقتطعت بغير تمسد بعض أجزائه على حدة ... على هذا الأساس يطيب لنا الآن أن ننتخب من سور قرآنية متنوعة بعض مواقف الدعاء ، ليستدل منها على عظمة هذه الآية الإعجازية ، التى تطوف بنا على مواطن السحر فى إيقاعه الجذاب .

ونحن نعرف أن الدعاء بطبيعته نمط من النشيد الصاعد إلى السماء ، ولا يحلو وقعه فى نفس المتضرّع المبتهل إلا أن تكون ألفاظه منتقاه ، وإيقاعه منتظم . .

فلا غرو إذاً — أن وجدنا الرسول الكريم — صلى الله عليه وسلم — فى

---

(١) الرحمن ٣٥ ، وانظر بدع القرآن ٢٢٢ .

دعائه المأثور ، كان كالحريص على شيء من التقطيع المقصود ، من سجع هين ، أو طباق رشيق أو رنّة خاشعة، حين دعا ربه :

● اللّهم إني أعوذُ بك من الهمّ والحزَن
وأعوذ بك من العجز والكسل .
وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال .

● اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلاّ إليك . .
ومن الذل إلا لك .
ومن الخوف إلا منك .

● وأعوذ بك أن أقول زُوراً .
أو أغشى فجوراً .
أو أكون بك مغروراً .

● وأعوذ بك من شماتة الأعداء
وعضال الداء . .
وخيبة الرجاء . .

● اللهم إني أعوذ بك من شر الخلق . .
وهمّ الرزق . .
وسوء الخُلُق . .
يا أرحم الراحمين . . يا رب العالمين .

أما القرآن العظيم . . فلم ينطق - على لسان النبيّين والصديقين والصالحين - إلا بأحلى الدعاء نغما . وأروعه إيقاعاً ، وسحر بيان . . فإذا عرفنا أن ابتهال الصالحين كما جاء في الكتاب المبين — أكثرُ رَغباً أو رَهباً ، طمعاً أو خوفاً ، استعجالا لخير أو دَفعاً لِشرّ (١) — أدركنا سرّاً من أسرار الإيقاع والتنغيم ينبعث من كل مقطع من مقاطع الذكر الحكيم . .

---

(١) إحياء علوم الدين ١/٣٠١ . وانظر كتاب الأذكار والدعوات .

فلنتصور معاً — ونحن نرتل معاً دعاء زكريا — شيخاً جليلا مهيباً . على كل لفظة ينطق بها مَسحة من رهبة ، وشعاع من نور .. ولنتمثل معاً — هذا الشيخ الجليل على وقاره — متأجج العاطفة . متهدّج الصوت ، طويل النَّفَس ، ما تبرح أصداء كلماته تتجاوب فى أعماق قلوبنا شديدة التأثير .

إن زكريا فى دعائه إلى ربّه ليُذيب القلوبَ المتحجرة ، بتعبيره الصادق عن حزنه العميق . خوفا من انقطاع عقبه ، وهو قائم فى المحراب ، يُصلى .. وينادى إسم ربه نداء خفياً ، ويكرر اسم «ربه» بكرة وعشياً ، ويقول فى لوعة الإنسان المحروم ، وفى إيمان الصدّيق الصفى :

(رَبِّ إنّى وَهَنَ العظمُ منى ، واشتعلَ الرَّأسُ شيباً ، ولمْ أكُنْ بدُعائِكَ ربِّ شقيًّا ، وإنى خفتُ الموَالىَ منْ وَرائِى وَكانتْ امرأتِى عَاقرًا ، فهَبْ لِى منْ لدُنكَ وليّاً .. يرثُنِى ويرثُ منْ آل يعقوبَ واجْعلْهُ ربِّ رضياً)(١) ..

إن البيان لا يرقى هنا إلى وصف العذوبة التى ينتهى إليها الإيقاع ، فى فاصلة كل آية بـ (يا ئها المشدّدة) وتنوينها المحول عند الوقف (ألفاً لينة) كأنهـــا ألف الإطلاق فى الشعر ، فهذه الألف اللينة الرخية المنسابة تناسقت بها « شقيًّا — وليًّا — رضيًّا ، مع عبد الله — زكريا — ينادى ربه نداءًا خفياً .

لقد استشعرنا هذا الجو الروحى كله ، ونحن نتصور نبياً يبتهل وحـــده فى خلوة مع الله . وكنا نُصغى إلى ألحانه الخفية تصاعد إلى السماء .. فكيف بنـــا لو تصورنا جماعة من الصدّيقين الصالحين ، الذين وصفهم رب العزة بأنهم من أولى الألباب (الذين يتفكّرُون فى خلق السموات والأرض) كيف بنا لو تصوَّرنا هؤلاء جميعاً يشتركون ذكرانا وأناثا . شيبا وشبانا ، بأصوات رخية متناسقة ، تصّعد معا ، وتهبط معا ، وهى تتوسل إلى الله ، منشدة هذا النشيد الضخم الجليل :

---

(١) آل عمران ١٩١—١٩٤ .

(ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النّار)
(ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار)
(ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا)
(ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار)
(ربّنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة)
(إنك لا تخلف الميعاد)(١) .

إن فى تكرار عبارة « ربنا » لما يلين القلب ، ويبعث فيه نداوة الإيمان ، وإن الوقوف بالسكون على (الراء المذلقة) المسبوقة بهذه (الألف اللينة) لما يعين على الترنيم والترخيم . ويعوّض فى الأسماع أحلى نبضات الإيقاع الصوتى والتناسق الفنى .

ولئن كان فى موقفى الدعائين هذين نداوة وطلاوة .. ففى بعض مواقف الدعاء القرآنية الأخرى صخب رهيب .

فلنستمع إلى هدير نوح — عليه السلام — بعد أن دأب ليلاً ونهارًا على دعوة قومه إلى الحق ، وداوم على إسداء النصح لهم سراً وعلانية ، وهم يلجّون فى عنادهم وكفرهم ، ويفرّون من الهدى فراراً ، ولا يزدادون إلا ضـــلالا واستكبارا ، فما كان من نوح — وقد يأس من صلاحهم — إلاّ أن يتملكه الغيظ ، ويمتلىء فوه بكلمات الدعاء الهادرة الغضبى ، تنطلق فى الوجود بجلجلة مدويه ، بهديرها الرهيب ، وإيقاعها العنيف .. وما أظننا نتخيل الجبال إلا مدكوكة والسماء إلا متجهمة عابسة ، والأرض إلا مهتزة مزلزلة ، والبحار إلا هائجة ثائرة .. حين وقف نوح داعياً على قومه بالهلاك والتبار :

(ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا . . .
(إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجرًا كفارًا . .

---

(١) آل عمران ١٩١ — ١٩٤ .

(ربِّ اغفرْ لى ولوالدىَّ ولمنْ دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزدِ الظالمينَ إلاَّ تبارًا)(١) .

إننا لو أردنا أن نستعرض نماذج أخرى من الدعاء لإبراز الإيقاع القرآنى العجيب لطال بنا الحديث . . ويكفى أن نعلم - أن الإيقاع الصوتى والتناسق الفنى - فى القرآن - آية عظمى من آيات الرحمن ، فليس الإيقاع فيه كقافية الشعر يقاس بالتفعيلات والأوزان ، ويضبط بالحركات والسكنات ، ولا النظم فيه يعتمد على الحشو والتطويل ، أو الزيادة والتكرار ، أو الحذف والنقصان ، ولا الألفاظ تحشد حشداً ، وتلصق إلصاقاً ، ويلتمس فيها الإبهام والإغراب ، بل الإيقاع طليق من كل قيد ، والنظم بنجوة من كل صنعة . والألفاظ بمعزل عن كل تعقيد وهذا هو سر الإعجاز .

إن الإيقاع الصوتى ، والتناسق الفنى ، يؤدى - فى القرآن العظيم - غرضه كاملا غير منقوص . يلين أو يشتد ، ويهدأ أو يهيج ، ينساب إنسياباً كالماء إذ يسق الغراس ، أو يعصف عصفاً كأنه صرير ريح عاتية ، تبهر الأنفاس .

---

(١) سورة نوح ٢٦ — ٢٨ .

٦ ـ الكلمة القرآنية

لغتنا العربية أبعد اللغات السامية مدى ، وأبلغها عبارة ، وأغزرها مادة وأقواها جلادة ، وأدقها تصويراً لما يقع تحت الحسّ ، وأصدقها تعبيراً عما يجول فى النفس ، لمرونتها على الاشتقاق ، وقبولها للتهذيب ، ولما جبل عليه أهلها من فصاحة المنطق ، واتصفت به أرضها من صفاء الطبيعة .

لقد مارس أهل العربية فنونها منذ نشأت لغتهم حتى شبت وترعرعت وأصبحت فى عنفوان شبابها عملاقا معطاء ،واستظهروا شعرها ونثرها ، حكمها وأمثالها ، وطاوعهم البيان فى أساليب ســـاحرة ، حقيقية ومجازا ، إطنابا وإيجازا حديثا وفعالا . .

بلغ العرب ــ فى الجاهلية ــ مرتبة رفيعة من البلاغة والبيان ، شهد بذلك القرآن المجيد فى غير موضع . من مثل: (وإنْ يَقُولوا تَسْمَعْ لقوْلهم)(١) (ومِنَ النَّاسِ منْ يُعجِبك قوله فى الحياة الدُّنيا)(٢) كما صور شدة عارضتهم، وقوة لسانهم فى الحجاج والجدل بمثل : (فإذا ذَهبَ الخوفُ سلقوكُم بألسنة حدَاد)(٣) (ما ضربُوه لكَ إلاّ جدَلاً بلْ هُمْ قوْمٌ خصِمُون)(٤)

ومن أكبر الدلالات على بلاغتهم وقوة تعبيرهم ، وما حذقوه من حسن البيان ان كانت معجزة الرسول الكريم ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحجته القاطعة لهم .. هى دعوتهم ، أقصاهم وأدناهم . إلى معارضة القرآن فى بلاغته الباهرة . وهى دعوة تدل فى وضوح على ما أتوه من اللسن والفصاحة والقدرة على نحوك الكلام ، كما تدل على بصرهم بتمييز أقدار الألفاظ والمعانى ، وتبين ما يجرى فيها من جودة الافهام وبلاغة التعبير .

---

(١) المنافقون ٤ — (٢) البقرة ٢٠٤

(٣) الأحزاب ١٩ — (٤) الزخرف ٥٧

دعاهم — صلى الله عليه وسلم — إلى معارضة القرآن ، معجزته الخالدة لأن فى هذه الدعوة ما يوجب الاهتمام بمعرفة وجوه الأعجاز .. (كتابٌ أنزلناهُ إليكَ لتُخرجَ النَّاسَ من الظُّلمات إلى النُّور بإذنِ ربهمْ إلى صراط العزيز الحميد)(١) ..

(وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فأجرهُ حتَّى يسمع كلام الله)(٢) وتحداهم أن يأتوا بمثله ، وهو يعلم أنهم أفصح الفصحاء . ومصاقع الخطباء ، وأمهلهم طول السنين .. فلم يقدروا ، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله حين قالوا : « افتراه » ، فأنزل الله عز وجل (أمْ يقُولون افتراه قل فأتوا بعشْر سورٍ مثْله)(٣) .. فعجزوا ، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة (وإنْ كنتمْ فى رَيْبٍ ممَّا نزَّلنا على عبدنا فأْتوا بسورةٍ منْ مثله)(٤) — أى من كلام مثله ، فلما عجزوا عن أن يأتوا بسورة تشبه القرآن على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء قال : (قُل لئن اجتمعت الإنْسُ والجنُّ على أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأْتون بمثله ، ولوْ كان بعضهمْ لبعضٍ ظهيرًا)(٥) .

فقد ثبت أنه تحداهم به ، وأنهم لم يأتوا بمثله لعجزهم عنه ، لأنهم لو قدروا على ذلك لفعلوا ، ولما عدلوا إلى العناد تارة ، والاستهزاء أخرى ، فتارة قالوا (سحر) وتارة قالوا (شعر) وتارة قالوا (أساطير الاولين) .. كل ذلك من التحيّر والانقطاع .

وعكف العلماء — على تعاقب العصور — يتدارسون وجوه الاعجاز فى القرآن العظيم ووجدناهم يسيرون مسارات شتى .. معظمها تتجه إلى بلاغته ودقة نظمه ..

---

(١) ابراهيم ١

(٢) التوبة ٦ .

(٣) هود ١٣ .

(٤) البقرة ٢٣ .

(٥) الإسراء ٨٨ .

فذهب الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) إلى أن مرجع الإعجاز فى القرآن إلى نظمه وأسلوبه العجيب المباين لأساليب العرب فى الشعر والنثر ، وما يطوى فيه من سجع(١) .

ووقف الخطابى (ت ٣٨٨ هـ) يتحدث عن الأقسام الثلاثة للكلام المحمود ومراتبها فى نسبة التبيان ودرجاتها فى البلاغة ، فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلق الرسل ، فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثانى أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث أدناه وأقربه ، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد فى نعوتهما كالمتضادين ، لذلك كان اجتماعها فى نظم القرآن فضيلة خص بها ، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ، لتكون آية بينة لنبيه(٢) .

وجاء الرمانى (ت ٣٨٦ هـ) ليقرر أن البلاغة ثلاث طبقات ، منها ما هو فى أعلى طبقة ، ومنها ما هو فى أدنى طبقة ، ومنها ما هو فى الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة ، فما كان فى أعلاها طبقة فهو معجز وهو بلاغة القرآن ، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس(٣) .

وجاء الباقلانى بعدهم (ت ٤٠٣ هـ) ليقول : أنه (أى نظم القرآن) خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد فى كلامهم ، ومباين لأساليب خطابهم ، ومن ادعى ذلك لم يكن له بدٌّ من أن يصحح — أنه ليس من قبيل الشعر ولا من السجع ، ولا الكلام الموزون غير المقفى ، فالقرآن الكريم متناه فى البلاغة

---

(١) البيان والتبيين ٣٢٣/١ .

(٢) انظر رسالته بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن .

(٣) انظر رسالته النكت فى اعجاز القرآن — ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام والدكتور محمد خلف الله طبع دار المعارف بمصر .

إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه(١) .

وتابعهم الجرجانى (ت ٤٧١ هـ) فركز على موضوع النظم ، وجعله المحور الأساسى الذى يدور حوله كل موضوع ، وينتهى إليه كل طريق ، لذلك كان النظم من وجهة نظره — هو الوجه المشرق للإعجاز القرآنى ، أما بقية الأوجه التى توصل إليها الباحثون والعلماء السابقون ، وسجلوها فى مصنفاتهم ورسائلهم فلم يعيرها إلتفاتا ولم يعطها اهتماما(٢) وكانت هذه الآراء والبحوث إرهاصا للبحث العلمى المنظم الذى يربط بين أساليب البلاغة العربية والدراسات القرآنية .

هذه هى نظرة العلماء القدماء إلى الإعجاز القرآنى . شغلتهم المسائل الكبرى، والقضايا الكلية عن النظر فى الجزئيات ، شغلهم البناء الكلى للقرآن الكريم عن أن يلتفتوا إلى لبنات هذا البناء .

ان الشىء الذى فات هؤلاء العلماء وغيرهم هو الحديث عن الكلمة القرآنية بوصفها آية من آيات هذا الاعجاز . كلهم وجهوا انتباههم صوب الإعجاز الكلى للقرآن ، المضمون والمشمول ، السور والآيات ، وغفلوا عن الاعجاز الرائع الناجم عن الكلمة القرآنية من حيث جرسها ووقعها ، وموضعها ومدلولها . .

والحق أقول — ان ذلك لم يكن قصورا منهم أو تقصيرا . . ولكنه اهتمام بالكليات التى تضم تحت أعطافها الكثير من الجزئيات .

ان القرآن العظيم أولى الكلمة أهمية عظمى لا تقل عن الأهمية التى أولاها للعبارة ، وحرص على أن تكون هذه الكلمة دقيقة فى تصوير المعنى الذى أراده الحق تبارك وتعالى ، واضحة ناصعة مباشرة ، غنية بالمضامين . وحرص أيضا على أن تكون هذه الكلمة مكملة للبناء الكلى للآية وللسورة وللقرآن جميعه ،

---

(١) انظر كتابه اعجاز القرآن .
(٢) انظر رسالته الشافية فى اعجاز القرآن .

بما لها من إيحاء خاص ، ومدلول عجيب ، ومن هنا كانت الكلمة القرآنية فى مقدمة الوسائل التى جسّدت المعنويات فى القرآن المجيد .

ان آيات القرآن المجيد — رغم تكرار بعض المعانى فيها ، وتشابه أساليب الخطاب واتحاد الأفكار المشتملة عليها ، إلا أنها تحتفظ لكل كلمة بدلالتها الواضحة فلا يمكن أن تستعيض عن كلمة . . خذ مثلا — قول الحق سبحانه (فالِقُ الإصْباحِ وجَعَلَ الليلَ سَكناً ، والشَّمْسَ والقَمَرَ حُسْباناً ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيزِ العليم)(١) وابحث عن كلمة أخرى تحل محل (فالق) تؤدى معناها ، وتقوم مقامها فى تصوير المراد وتجسيم الفكرة ، وابحث أيضا عن أى كلمة أخرى تضعها موضع (الإصباح) فى دلالتها على الحركة والانبثاق ، وفى بث حقيقة المعنى المطلوب ، ثم فتّش فى اللغة كلها عن كلمة أخرى تضعها فى مكان (سكنا) فيها هدوءها ولينها المنبعث من فتحاتها المتتابعة ، وفيها ما تبثه من الصورة فى الخيال والنفس ، ثم ابحث ما شئت عن كلمة أخص وأدل وأجمع من هذه الكلمة البليغة (حُسبانا) . . ابحث عن كل ذلك ، وقلّب الآية على ما تختاره وتراه من الوجوه . . فستجد أن اللغة كلها أعجز من أن تأتى لك بألفاظ مثلها أو خير منها ، ومهما غيرت فى الآية أفسدت من بهائها ، وتقصت من روعتها واشراقها . وستجد أيضا أن كل كلمة من القرآن العظيم ، أنما تستقر فى مكانة لا يطولها أى تغيير أو تحوير .

من هنا كان مرد البلاغة الكلامية فى القرآن العزيز ، إنما ترجع إلى الدقة المتناهية فى مطابقة اللفظ المعنى ، ومدى القدرة الفائقة على تسخير اللفظ لتجلية المعنى ، وعرضه فى المظهر المطلوب ، والمكان المناسب .

إننا إذا تأملنا الكلمة القرآنية ، التى تتألف منها الجمل والآيات ، رأيناها تمتاز إلى جانب الايقاع الخاص فى السمع — باتساقها الغريب مع المعنى ، حتى لكأننا نحس باطلالة المعنى المطلوب . أو لكأن فيها اشراقاً تتألق فيه صورة المعنى

---

(١) الانعام ٩٦ .

أمام أذهاننا وأبصارنا ، أضف إلى ذلك أننا نحس باتساع دلالتها لأشياء ومعان لا تتسع لها دلالات الكلمات الأخرى من المعانى والمدلولات . ورُبَّ معنى لا يستطيع الكاتب البليغ أن يعبر عنه إلا ببضع كلمات أو جمل ، يعبر عنه القرآن تعبيرا جيلا دقيقا بكلمة واحدة لا أكثر ، وقد نجدها تتحلى بهذه الميزات جميعا باطراد لا يتخلف فذلك مالا يمكن ان نراه إلا فى القرآن العظيم وحده .

فلنستمع إلى قول رب العزة فى وصف كل من الليل والصبح . . (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)(١) سنجد أن هناك تجسيما واضحا للمعنى فى كل من هاتين الكلمتين (عَسْعَسَ وتَنَفَّسَ) وسنجد أيضا ، أن كل كلمة منها تبعث فى خيالنا صورة بارزة ، محسوسة المعنى ، دون ما حاجة للرجوع إلى معاجم اللغة ، ولن نجد فى مقدورنا أن نصور إقبال ظـــلام الليل وتمدده فى الآفاق بكلمة أدل من (عَسْعَسَ) . ولن نجد كلمة تصور إنفلات الضحى من مخبأ الليل وسجنه ، أورع من (تَنَفَّسَ) .

ولما أراد الحق تبارك وتعالى ، أن يصور كيف أنه طبع الليل بالسواد والظلمة التامة — وهو معنى فى مضمونه ومشموله غير المعنى السابق — عبر عن ذلك بهذه الكلمة العجيبة فى دلالتها على هذا المعنى وتصويره له ، وذلك فى قوله عز وجل : (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا)(٢) .

أننا إذا تأملنا كلمـــة (أَغْطَشَ) وتنبهنا إلى طبيعة حروفها ووقعها فى آذاننا ، نجد أنها تقدم لنا مدلول معناها فى تلافيف حروفها قبل أن تقدمه لنا فى معناها اللغوى المحفوظ .

أن طبيعة الإنسان ، مهما كانت ثقافته ، ومهما اتسعت دراسته تجعله لا يستطيع أن يطوّع ألفاظ اللغة لكل ما يتصوره من دقائق المعانى ولطائف

(١) التكوير ١٧ ، ١٨ (٢) النازعات ٢٧ — ٢٩ .

الأخيلة فهو كثيرا ما يضطر إلى النزول عن بساط خياله المحلق ، لحاقا بكلمة هي دون خياله الخصيب ، ولكنه لا يجد من حوله سواها ، فيهبط إلى مستواها . وبذلك تفسد تصوراته ، ويفسد سير فكره . بيد أن القرآن العظيم ، لا يعجزه إطلاقا تكون أن الكلمة دوما فى مستوى المعنى المراد ، على أدق وجه وفى أكمل صورة ، وهذا سر إعجازه وآية من آيات بلاغته وروعته .

ولننظر معا كيف وصف القرآن دعوة امرأة العزيز للنسوة اللاتى تحدثن منتقدات عن مراودتها لفتاها يوسف عن نفسه — إلى جلسة لطيفة رائقة فى بيتها لتطلعهن فيه على جمال يوسف حتى يعذرنها فيما أقدمت عليه ، لقد قدمت لهن فى ذلك المجلس طعاما ولا شك ، ولقد أوضح القرآن هذا — ولكنه لم يعبر عن ذلك بالطعام . فهذا الأمر انما يصور شهوة الجوع ، وينتقل بالفكر إلى حيث يطهى ويعد الطعام . وهى صورة لا تتفق مع جلال الآية ، ولا مع ما تريد أن تضعه أمام أذهاننا من مظهر المجلس الأنيق ، فانظر إلى الكلمة التى عبر بها البيان القرآنى عن الطعام فى هذا الجو وهذه الحال . . (﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾)(١)

« مُتَّكأ » . . كلمة تصور لنا ذلك النوع من الطعام الذى إنما يقدم إلى المجلس تفكهًا وتبسطا وتجميلا للمجلس . وتوفيرا لأسباب المتعة والراحة فيه ، ولذلك فالشأن فيه أن يكون الاقبال عليه فى حالة من الاسترخاء والاتكاء . . فأى تعبير هذا الذى تمتد به الدقة فى تصوير المعنى إلى هذا الحد غير تعبير القرآن؟.. وأى كلمة يمكن أن تحل محل هذه الكلمة . . فى هذا الموضع ؟

وحين صور لنا القرآن المجيد كيف أن ربَّ القدرة قد أهلك عادًا بريح عاتية داهمتهم . فأخذت تقتلعهم من الأرض اقتلاعا ، وتطيرهم فى الفضـــــاء ، شبه أجسامهم الفارعة وهى تتطاير فى سهولة سريعة ، بنخيل طوال قد نُخِرت واقتلعت جذورها من باطن الأرض ، فهى تتحرك لا يمسكها أى شىء . فانظر

(١) يوسف ٣١ .

كيف عبر عن ذلك . « إنّا ارسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » (١) .

(منقعر) — كلمة واحدة طوعها وألانها التعبير القرآني لتصوير رائع ، وجعلها تدل في إشراق جميل على ما لا يمكنك أن تعبر عنه بكلمة واحدة مهما حاولت ، فهي تدل على أن النخيل قد انقلعت جذورها من باطن الأرض ، ولم تعد إلا عمداً نائمة على سطحها ، فكأن الكلمة منحوتة مصنوعة من كلمتي (منقلع) و (قعر) صنعت منها هذه الكلمة الرائعة المصورة العجيبة (منقعر) وهي — كما يقول الزمخشري « من المجاز الذي يهتز له رأس البليغ طربا »(٢) .

ومن هذا الباب أيضا قوله تعالى : (تضحى) من قوله : (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى(٣) وقوله تعالى : (قرارا) من قوله : (أمن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً(٤) .

وحينما حدثنا القرآن العزيز عن مظاهر عظمه الحق ، ونعمه على عباده ومن جملة هذه النعم « النار » نبهنا الى مختلف فوائدها واستعمالاتها في حياتنا ، فأوضح أنها متاع يحتاج اليه في حالات السفر ، واجتياز القفار ، ولتحضير الطعام ولما وراء ذلك من أسباب المتعة والرفاهية ، فكم هي الكلمات التي وفت بالتعبير عن هذه الفوائد كلها ؟ .. أنها ليست أكثر من كلمة واحدة استمع في ذلك الى قول القرآن (أفرأيتم النار التي تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين)(٥) .

(المقوين) — هذه هي الكلمة التي تحمل تلك المعاني كلها ، فالمقوين جمع مقو ، أي نازل في القواء وهو المكان القفر ، أو يجتاز بها ، وعليه قول النابغة الذبياني :

---

(١) القمر ٢٩ — ٣٠ .

(٢) أساس البلاغة ص ٥١٦ .

(٣) طه ١١٨ — ١١٩ .

(٤) النمل ٦١ .

(٥) الواقعة ٧٢ — ٧٣ .

يا دَارَ ميَّةَ بالعَلياءِ فالسَّنَدِ
أقوتْ وطَالَ عليها سَالِفُ الأَمَدِ

والمقوين أيضاً من القَوَى وهو الجوع ، والمقوين كذلك جمع مُقو بمعنى مستمتع — كما قال مجاهد فى لسان العرب ، وإطلاق الاستمتاع فى هذا المعنى الأخير ، إنما يفسره الزمن وتطور الأحوال وتقدم أسباب الحياة . وهكذا لا يمكن لبشر أن يخضع اللغة لمقاصده هذا الإخضاع العجيب فيحشد كل هذه المعانى المتباعدة فى كلمة واحدة تأتى طوع قصده ومراده ، بدون تَمَحُّل أو تكلف أو تقعّر ، ولكنها صنعة رب العالمين .

وقد يكون للكلمة القرآنية معنى قريب وآخر بعيد ، أو معنى ظاهر وآخر باطن أو معنى واضح وآخر خفى . . ومع ذلك فإن هـــذه الكلمة دائماً تحتفظ بدلالتها وروعتها ولا يمكن أن يستعاض عنها بكلمة أخرى . فلنستمع إلى قول الله سبحانه (كيف أن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذِمّة) ولنتأمل ذلك التصوير البديع الذى انطوت عليه كلمة (يظهروا) عليكم .

إن معناها القريب يغلبونكم ويظفرون بكم ، ولكن مرماها البعيد إظهار الضعف وتصوير الاستسلام أمامهم — تماما كما يمتطى الإنسان ظهر دابة من الدواب . ولا تملك من الأمر شيئاً . . أضف إلى ذلك — أن الصورة هنا — التى أبرزتها الكلمة — تثير النخوة والعزة وتؤلب كرامة وإرادة وعقيدة المسلم ضد هؤلاء ، وتمسح بوادر التعاطف معهم من النفوس .

كذلك قول الحق سبحانه (يرضونكم بأفواهِهم وتأبَى قلوبُهم وأكثرَهم فاسقُون) نجد أن كلمة (بأفواههم) تحمل بين ثنايا حروفها من المعـــانى والمضامين كل عناصر الكذب والتضليل إذ المعروف أن (الأفواه) هى مصدر الكلام الصادر عنها — وليس عن القلب والعقل . كذب وهُراء ، ثم انظر إلى كلمة (تأبَى) — أى تمتنع ، وتأمل ما فيها من التشدد والإصرار على

الكفر والمراوغة ما تنقله لك من معانى متحركة ، سواء فى حركاتها أوسكناتها.

ولنستمع أخيراً إلى قوله جلا وعلا (.. إلاَّ الذينَ عاهدتُم مِنَ المُشركين ثم لم ينقُصُوكم شيئاً ولم يُظاهروا عليكم) ولنتأمل الصورة البديعة التى تتألق من اكتمال المعنى الذى ورد فى كلمتى (ينقصوكم شيئاً) — وهى أبلغ من القراءة الأخرى (ينقضوكم) لأن الإنقاص تعنى النقص أو الإخلال بجزء من الإلتزام . وكلمة (شيئاً) تحمل معنى التأكيد والتمييز للمعنى الأول .

وهذا كله إنما يعنى فى مجمله — أن الإتساق بين اللفظ والمعنى ، والالتحام بين الكلمة ومضمونها إنما يصور عظمة الحــق سبحانه ، وتؤكد الاعجاز فى كلامه .

ولا يتسع المجال لعرض المزيد من الشواهد والأمثلة ، ولكن بإمكاننا أن نتأمل فيما شئنا من كلام الله ، لنقف على عظمة هذا الإعجاز البيانى ، الذى لاتصوره الآيات فقط . بل الكلمات أيضا لذلك نقول — إن من أعظم آيات إعجاز القرآن العزيز — أنه يجرى على نسق خاص فى أسلوبه ، يجرى على نسق بديع خارج عن المعروف والمألوف من نظام جميع كلام العرب ، وتعبيراته البلاغية تجرى على مستوى رفيع واحد ، من السمو المتناهى فى جمال اللفظ ، ودقة الصياغة ، وروعة التعبير . أما ألفاظه — فهى مصوغة بشكل غريب ، وعلى هيئة عجيبة ، بحيث تصلح أن تكون خطابا للناس كلهم على اختلاف عقولهم وتفكيرهم وثقافاتهم ، أى أنها تقدم لكل قارىء من معناها ما يقدر على فهمه واستيعابه ، ومن هنا كانت الكلمة القرآنية آية من آيات الإعجاز القرآنى تنطق بقدرة القادر ، وتشهد بعظمته وسرّ إبداعه لآيات كتابه العزيز .

٧ – القصة القرآنية . . هدفها ومنهجها

فى القصة سحرٌ يسحر النفوس . . أى سحر هو ؟ وكيف يؤثر فى النفوس ؟ لا يدرى أحد على وجه التحديد ..

أهو انبعاث الخيال حين يتابع مشاهد القصة ويتعقب أحداثها من موقف إلى موقف ، ومن تصرف إلى شعور ؟

أهو المشاركة الوجدانية لأشخاص القصة وما تثيره فى النفس من انفعالات ؟

أهو انفعال النفس وتأثرها بالمواقف الإنسانية حين يتخيل الإنسان نفسه بين ثنايا هذه الأحداث ؟

قد يكون هذا وذاك . . وأياً ما كان الأمر فسحر القصة قديم قدم البشرية ذاتها ، وسيظل معها حياتها كلها لا يزول ، لذلك فقارىء القصة وسامعها لا يملك أن يقف موقفاً سلبياً أو حيادياً من أشخاصها وأحداثها . .

إنه عن وعى منه – أو غير وعى – يدسّ نفسه على مسرح الأحداث ، ويتخيل أنه كان فى هذا الموقف أو ذاك ، ويروح يوازن بين نفسه وبين أبطال القصه فيوافق أو يستنكر ، أو يتملكه الإعجاب .

أدرك القرآن العظيم تماما هذه الحقيقة منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، وعرف هذا الميل الفطرى إلى حب القصة ، وفطن كذلك إلى ما لها من تأثير ساحر على القلوب والنفوس ، لذلك استغل كل عناصر القصة ومقوماتها استغلالا تاما دقيقاً لتحقيق الغرض الأسمى الذى من أجله نزل . .

ونظرة فاحصة فى الكتاب الكريم نجد الدليل على ما نقول ..

لقد استخدم القرآن المجيد كل أنواع القصة :

القصة الواقعية .. التي تعرض نماذج متفاوتة للنفس البشرية .

والقصة التمثيلية .. التي لا تمثل واقعة بذاتها . ولكنها يمكن أن تحدث في أية لحظة من اللحظات ، وفي أي وقت من الأزمان .

والقصة التاريخية .. بكل أماكنها وأشخاصها وأحداثها ..

من النوع الواقعي .. قصة بني آدم كما سجلتها آيات سورة المائدة (١) .

« واتلُ عليهم نبأ ابني آدمَ بالحقّ إذ قرّبا قُرْباناً فتقبّل من أحدِهما ولمْ يتقبّل منَ الآخر ، قال لأقتُلنّك .. قال إنّما يتقبّلُ اللهُ من المتقين ، لئن بسطتَ إليّ يدكَ لتقتلني ما أنا بباسطٍ يدي إليكَ لأقتلكَ ، إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمين ، إنّي أريدُ أنْ تبوء بإثمي وإثمك فتكونَ منْ أصحاب النار ، وذلك جزاءُ الظالمين ، فطوّعتْ لهُ نفسهُ قتل أخيه فقتلهُ فأصبح من الخاسرين » .

ومن النوع التمثيلي — في القرآن الكريم — قصة صاحب الجنتين ، التي سردتها ورسمت وقائعها وأحداثها سورة الكهف (٢) .

« واضربْ لهمْ مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين منْ أعنابٍ وحففناهما بنخلٍ وجعلنا بينهما زرعاً ، كلتا الجنتين آتتْ أكلها ولمْ تظلم منهُ شيئاً . وفجّرنا خلالهما نهراً ، وكان لهُ ثمرٌ فقال لصاحبه وهو يحاورهُ أنا أكثرُ منك مالاً وأعزّ نفراً ، ودخل جنتهُ وهو ظالمٌ لنفسه قال ما أظنُّ أنْ تبيد هذه أبداً ،... »

---

(١) الآيات : ٢٧ — ٣٠

(٢) اقرأ الآيات : ٣٢ — ٤٤

أما القصة التاريخية .. فالأمثلة عليها كثيرة .. كل قصص الأنبياء ، وقصص المكذبين بالرسل ، وما أصابهم من جراء هذا التكذيب .. وهي قصص يذكرها القرآن المجيد بكل أشخاصها وأحداثها وأماكنها على وجه التحديد والحصر ، كقصة موسى وفرعون ، وقصة عيسى وبني إسرائيل ، صالح وثمود ، هود وعاد ، شعيب ومدين ، نوح وقومه ، إبراهيم وإسماعيل ... الخ

والقرآن المجيد إذ يستخدم القصة باختلاف أنواعها ، وفي المناسبات المتباينة والأغراض المتعددة التي حددها وارتآها .. فإنه يستخدمها أيضاً وسيلة في التربية والتوجيه ، وسبيلا إلى الوعظ والإرشاد . لذلك يمكننا القول :

« إن القصة القرآنية سجل حافل لجميع التوجيهات الآلهية »

فإذا عرفنا أن القصة القرآنية رغم قلة الألفاظ المستخدمة في أدائها حافلة بكل أنواع التعبير والعناصر الفنية : من حوار ، إلى سرد ، إلى تنغيم إيقاعي إلى إحياء للشخوص ، إلى دقة في رسم الملامح ، أدركنا مدى سحر هذا الإعجاز الفني الناشيء عن القصة القرآنية ، ومدى عظمة القدرة الإلهية في إخراجها .

وهنا احترز — فأسرع لأقول ... إن القرآن العظيم ، ماكان ليستخدم القصة لغاية ترفيهية أو ترويحية ، انما كان يرمى الى هدف أسمى يشترك مع غيره من الأهداف . في القصد الى تحقيق الغرض الكلي الذي نزل من أجله القرآن الى الناس ، لذلك نجد أن استخدامه للقصة كان تحقيقاً لأمور هامة :

منها .. اثبات الوحي الإلهي . وصدق النبوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم

فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام — كما نعلم أمياً ، وقد سجل التاريخ ، وتأكد المؤرخون ، القدماء والمحدثون — أن النبي لم يقصد الى أحد من علماء اليهود أو النصارى ليسمع منهم أخبار موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء السابقين فلما جاء القرآن بقصص الأنبياء والأمم الغابرة على نحو يتفق جملة وتفصيلا مع ما أثبتته التوراة والإنجيل من عرض تلك الأخبار والقصص ، كان

ذلك دليلا لا يقبل الشك بأن هذا القرآن ما كان حديثا يفترى ، ولكنه وحي من عند الله عز وجل ، ولتنبيه الناس إلى هذه الحقيقة ، يعقب القرآن على كل قصة ينتهي من عرضها بما يثير الانتباه الى أن هذه المعلومات لا يمكن أن تكون قد أتت الى محمد عليه الصلاة والسلام الا عن طريق الوحي المجرد ، فهو يقول بعد الانتهاء ذكر قصة مريم وولادتها وكفالة زكريا لها : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم اذ يختصمون »(١) .

ويقول بعد عرض قصة يوسف بدقائقها وتفاصيلها : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » (٢) .

ويقول بعد ذكر قصة موسى وفرعون : « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا » (٣) .

ومن الأمور الهامة التي من أجلها استخدم القرآن القصة « العبرة والموعظة » وقد اتخذ القرآن في سبيله الى ذلك مظهرين :

أولهما : بيان مدى قدرة الله تعالى ، وللكشف عما حاق بالأمم الماضية من ألوان العذاب والهلاك لتجبرها وعنادها ، واستكبارها على الحق ، للتنبيه الى أن مثل ذلك يوشك أن يقع بمن أبى الا أن يسير على منوالهم متبعا خطاهم .. وأول مثال على ذلك — تلك القصة المتعاقبة السريعة التي نقرأها في سورة القمر فقد سيقت على هذا المساق . وهو الكشف عن جبروت الله وبالغ قدرته ، وأن أخذه للظالمين أخذ عزيز مقتدر . ثم نجد أن القرآن العظيم حين ينتهي من عرض القصة إثر الأخرى ، وبيان ما حاق بكل أمة من الأمم الباغية من أنواع الدمار

---

(١) آل عمران ٤٤
(٢) يوسف ١٠٣
(٣) طه ٩٩ .

المختلفة يتجه بالخطاب الى الناس متسائلا : (أكفارُكم خيرٌ منْ أولئكم أمْ لكُم بَراءَةٌ فى الزُّبرْ ، أمْ يقولون نحنُ جميعٌ منتصرٌ ، سيُهزم الجمعُ ويوَلون الدُّبر)(١) .

ومن ذلك ما تقرأه من قصص الأمم الغابرة فى سورة هود (٢) فقد أريد منها التنبيه إلى ضرورة عدم الاغترار بشىء مما يتخيله الإنسان فى نفسه قوة أو علماً ، وإلى أن الله تعالى إنما يمهل ، فإذا شاء أخذ ، وإذا أخذ لم يفلت .

وثانيهما : إثبات أن دين الله الذى بعث به الأنبياء واحد ، وأن رسالات الرسل والأنبياء واحدة ، فليس هناك تعارض بينها ولا إختلاف . والدليل على ذلك ما ذكره القرآن فى سورة مريم عن قصة عيسى عليه السلام ، وكيفية ولادته فهو يقول فى آخرها : (ذلكَ عيسى بنْ مريمَ قولَ الحقّ الذى فيه يمترون ما كانَ لله أنْ يتخذ منْ ولدٍ سبحانهُ إذا قضىَ أمرًا فإنما يقولُ لهُ كنْ فيكُون) (٣) .

ودليل آخر — ذكره القرآن فى سورة الاعراف . من قصة عاد وثمود وأهل مدين ، فهو يبدأ قصة كل أمة من هذه الامم ببيان أن الحق — جلّت حكمته — أرسل إليها رسولا يخبرها بوجود الله ، وأنه واحد لا شريك له ، فهو يقول :

(وَإلى عَادٍ أخاهمْ هوداً قالَ يا قوْم اعبُدوا الله مَا لكم منْ إلهٍ غيره أفلاَ تتقون) (٤)

(وإلى ثمود أخاهمْ صالحاً قال يا قوْم اعبدوا الله مالكم منْ إلهٍ غيره)(٥)

(وإلى مدْين أخاهمْ شعيباً قال يا قوْم اعبدوا الله مالكم من إلهٍ غيره)(٦)

---

(١) القمر ٤٣ — ٤٥
(٢) الآيات ١٠٠ — ١٠٢
(٣) مريم ٣٤ — ٣٥
(٤) الاعراف ٦٥
(٥) الاعراف ٧٣
(٦) الاعراف ٨٥

وإنما ذلك ، ليتبين أن بعثة هؤلاء الرسل إنما كانت لتأكيد حقيقة واحدة لا خلاف حولها .

وأمر ثالث : من أجله استخدم القرآن الحكيم القصة . هو تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم — في مجال الدعوة ، وحمله على الصبر على ما قد يراه من أذى قومه له ، وبيان أن الله عز وجل ينصر رسله مهما نزل بهم من العذاب ، وطاف حولهم من البلاء اقرأ قول الحق عز شأنه وهو يبث الطمأنينة في قلبه :

(فاصْبرْ كما صبر أولو العزْم من الرُّسل ولا تستعجل لهمْ) (١)

(اصبرْ على ما يقولون واذْكرْ عبدنا داود ذا الأيد إنَّه أوابٌ) (٢)

وليس معنى هذا الذي ذكرناه من أغراض القصة القرآنية ، أن هذه الأغراض موزعة على النصوص القصصية في القرآن بحيث ينفرد كل نصٍّ منها بغرض ، بل الغالب هو اجتماع هذه الأغراض أو الحكم — التي ذكرناها — معاً في مختلف النصوص القصصية في القرآن العظيم . ومن هنا تظهر آية الإعجاز ، كما تظهر أهداف القصة .

أما منهج القصة القرآنية ... فهو منهج فريد اختصَّ به القرآن الحميد ..

أن أسلوب القصة القرآنية لا يشبه أي أسلوب من الأساليب المعروفة أو المعهودة للقصة — ذلك أن القصة القرآنية — كما فهمناها — ليست عملاً فنياً مقصوداً لذاته وإنما هي مسوقة لحكمة إلهية قصد إليها الحكيم الخبير ، مثبوتة لغرض ديني محدد وان تنوعت أقسامه ، وتباينت أشكاله .

ان منهج القصة القرآنية — كما وضعه الرحمن — له عدة مظاهر :

المظهر الأول : التركيز على أحداث القصة بما يفي بالغرض .. ودليل ذلك أننا قلَّما نجد القرآن العظيم يسرد أحداث القصة سرداً تاريخياً تبعاً لتطور الوقائع

---

(١) الأحقاف ٣٥ (٢) ص ١٧

لان ذلك يبعد القصة عن مقصدها ويخرجها بعيداً عن الهدف الذى من أجله سردت .

فعندما يقص علينا القرآن قصة خلق آدم ، وسكناه فى الجنة ، ثم نزوله الى الأرض ، لا يتحدث عن وصف نزوله الى الأرض وحياته فيها بأكثر من قوله :

« قالَ اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدًى فمن تبع هداى فلا يضل ولا يشقى »(١) .

فى أى مكان من الأرض هبط ؟ وكيف كانت معيشته ؟ وأين كان سكناه إذ ذاك ؟ ان الاجابة على مثل هذه التساؤلات والاستفسارات ، وان كانت مما يتشوف اليه الفكر ، وتتشوق اليه النفس — إلا أنها تقص القارىء أو السامع عن الانتباه المقصود من سرد القصة ، فحسبه لكى لا يشتت ذهنه وراء الأحداث التاريخية . أن يعلم من القصة ما يحمله على الانصياع للمقصد الدينى الذى تنطوى عليه .

وكذلك قصة أهل الكهف — حين سردها القرآن الكريم ، بدأ فوصف أصحاب الكهف بأنهم فتية انفردوا عن أقوامهم بالإيمان بالله عز وجل ، ووحدانيته مخالفين ماعليه سائرهم من الشرك والكفر ، وأنهم من أجل ذلك عزموا على أن يعتزلوهم وتمضى القصة على هذا المنوال .، فمن هم هؤلاء القوم ؟ وفى ى أ بلدة كانوا يسكنون ؟ وكم كان عددهم ؟ وما أسماؤهم ؟ هذه أسئلة كان من مقتضى السرد التاريخى أن تجيب القصة عنها ، ولكنها لو أوضحت ذلك لما وفت بالغرض الدينى الذى استهدفته ، ولانصرف فكر القارىء أو السامع الى تتبع أحداث تاريخية ولغفل بذلك عن الغرض الاسمى الذى من أجله سيقت القصة وهو العبرة .

---

(١) طه ١٢٣ .

والمظهر الثانى فى منهج القصة القرآنية — هو بث العظات وتوجيه النصائح بين ثنايا القصة . فالقرآن العظيم لا يدع القارىء أو السامع يندمج مع موضوع من مواضيعه وينصرف إليه بكل تفكيره دون أن يفصل بين أجزائه بفواصل من العظات تنبهه إلى المقصود من كل هذا السرد والعرض ، وتغلف قلبه بغشاء من الخشية وتشعره بالمراقبة الإلهية عند قراءتها والتأمل فيها . ومن هنا لم نر فى القرآن فصولا خاصة فى التشريع ، أو فصولا خاصة فى سرد المغيبات من جنة ونار ، وإنما تأتى هذه الموضوعات متداخلة متغلغلة .

فلنقرأ قول الحق سبحانه من سورة طـــه — أثناء عرض قصة موسى مع فرعون فسنرى صورة واضحة لتغلغل عبارات الموعظة والتأكيد بخشية الله بين ثنايا القصة وخلال سردها .

« قالَ فمَن ربكُما يا موسى . قالَ ربنا الذى أعطى كلَّ شىءٍ خلقَه ثمَّ هدى قالَ فما بالُ القرونِ الأولى ، قالَ علمُها عندَ ربِّى فى كتابٍ لا يضلُّ ربِّى ولا ينسى الذى جعلَ لكمُ الأرضَ مهدًا ، وسلكَ لكم فيها سُبُلاً ، وأنزلَ منَ السماءِ ماءً فأخرجنا بهِ أزواجًا من نباتٍ شتى ، كلوا وارعوا أنعامَكم ، إنَّ فى ذلكَ لآياتٍ لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أخرى » (١) .

فلنتأمل معاً .. لقد تحولت الآيات هنا عن القصة ومتابعة الأحداث وسرد الحوار إلى التذكير بعظمة الحق سبحانه ، وتوضيـــح مظاهر ألوهيته ودلائل وجوده حتى أن ضمير الخطاب فيها تحول (٢) عن خطاب موسى لفرعون — إلى خطاب الله للناس أجمعين .

---

(١) طه ٤٩ — ٥٤

(٢) هذا التحول يسمى فى علم البلاغة الإلتفات

أما المظهر الثالث — فى منهج القصة القرآنية — فهو التكرار

فنحن نجد أن القصة الواحدة قد تكررت فى القرآن مرات عديدة ، كقصة خلق آدم . وقصة نوح ، وقصة موسى وفرعون . قال صاحب كتاب « العواصم من القواصم » ذكر الله قصة نوح فى خمسة وعشرين آية ، وقصة موسى فى سبعين آية .

وهنا قد يتبادر لى الأذهان سؤال .. لماذا كرّر القرآنُ القصة الواحدة فى أكثر من موضع ؟ إن الإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى صفحات . . ولكنى سأذكر الآن ما يسمح به المقام ويتسع له المقال . .

إن القصة القرآنية إنما كررت فى أكثر من موضع لغايات جُلّى وفوائد عظمى

أحدها . . أنه إذا كرر القرآن القصة زاد فيها شيئاً . ألا ترى أنه ذكر الحيّة فى عصا موسى فقال : (فألقاها فإذا هِيَ حيّةٌ تسعَى)(١) ثم ذكرها فى موضع آخر ثعباناً ، فقال : (فألقى عصاه فإذا هى ثعبانٌ مبين)(٢) وهذا الأمر يتصل بالبلاغة القرآنية والفصاحة ، وهذه عادة البلغاء والفصحاء . أن يكرر أحدهم فى آخر خطبته أو قصيدته كلمة لصفة زائدة .

الثانية : أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله ، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين ، وكان أكثر من آمن به مهاجريا ، فلولا تكرر القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى آخرين ، وكذلك سائر القصص ، أراد الله سبحانه وتعالى إشتراك الجميع فيها ، فيكون فيه إفادة القوم ، وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين وهم الحاضرون .. هكذا قال ابن الجوزى .

---

(١) طه ٢٠ (٢) الأعراف ١٠٧ .

الثالثة : تسليته لقلب النبي — صلى الله عليه وسلم — بما اتفق للأنبياء مثله مع أممهم ، قال الحق تبارك وتعالى (وكلاً نقصُّ عليكَ منْ أنباءِ الرُّسُلِ ما نثبِّتُ بهِ فؤادك)(١) .

الرابعة : أن الله تعالى أنزل هذا القرآن وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد — صلى الله عليه وسلم — ثم بين وأوضح الأمر فى عجزهم ، بأن كرر ذكر القصة فى مواضع ، إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله ، بأى نظم جاءوا ، وبأى عبارة عبروا . قال ابن فارس : « وهذا هو الصحيح »(٢) .

الخامسة : أن القصة الواحدة من هذه القصص — كقصة موسى مع فرعون ، وإن ظن أنها لا تغاير الأخرى ، فقد يوجد فى ألفاظها زيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير وتلك حال المعانى الواقعة بحسب تلك الألفاظ ، فإن كل واحدة لابد وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد فيه، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها . فكأن الله تعالى فرق ذكر ما دار بينهما وجعله أجزاء ، ثم قسم تلك الأجزاء على تارات التكرير لتوجد متفرقة فيها ، ولو جمعت تلك القصص فى موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة ، من انفراد كل قصة منها بموضع . كما وقع فى القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام . فاجتمعت فى هذه الخصيصة من نظم القرآن عدة معان عجيبة ..

منها : أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع فى اللفظ هجنة ، ولا أحدث مللاً فباين بذلك كلام المخلوقين .

ومنها : أنه ألبسها زيادة ونقصاناً وتقديماً وتأخيراً ، ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها ، فيكون شيئاً معاداً ، فنزهه عن ذلك بهذه التغييرات .

---

(١) هود ١٢٠ (٢) فقه اللغة ١٧٨

ومنها : أن المعانى التى اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة فى تارات التكرار ، فيجد البليغ — لما فيها من التغيير — ميلا إلى سماعها لما جُبلت عليه النفوس من حب التنقل فى الأشياء المتجددة التى لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة .

ومنها : ظهور الأمر العجيب فى إخراج صور متباينة فى النظم بمعنى واحد ، وقد كان المشركون فى عصر النبى — صلى الله عليه وسلم — يعجبون من اتساع الأمر فى تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير أنواع النظم ، وبيان وجوه التأليف ، فعرفهم الله سبحانه أن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية ولا يقع على كلامه عدد ، لقوله عز وجل :

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)(١) .

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال آخر : إذا كان القرآن العظيم قد احتفل بذكر قصة موسى وفرعون ، وقصة نوح وقومه . وغير ذلك من القصص ، وتكررت كل منها فى غير موضع ..

فما الحكمة فى عدم تكرار قصة يوسف عليه السلام وسوقها مساقا واحدا فى موضع واحد دون غيرها من القصص ؟

الجواب عندى له أكثر من وجه ..

أولها : قد يكون ذلك بسبب ما فيها من تشبيب النسوة به ، وتضمن الأخبار عن حال امرأة ونسوة ، افتتن بأبدع الرجال جمالا ، وأرفعهم مثالا ، فناسب عدم تكرارها ، لما فيها من الاغضاء والستر عن ذلك .

الثانى : أنها اختصت بحصول الفرج بعد الشدة ، بخلاف غيرها من القصص

(١) الكهف ١٠٩

فإن مآلها إلى الوبال كقصة إبليس ، وقوم نوح ، وقوم هود وغيرهم . فلما اختصت قصة يوسف بذلك ، إتفقت الدواعى على عدم تكرارها .

ووجه ثالث ذكره المفسرون — أن القرآن إنما كرر قصص الأنبياء ، وساق قصة يوسف مساقا واحداً ، إشارة إلى عجز العرب ، كأن النبي صلى الله عليه وسلم — قال لهم : إن كان من تلقاء نفسى تصديره على الفصاحة ، فافعلوا فى قصة يوسف ما فعلت فى قصص الأنبياء .

هكذا كانت القصة القرآنية آية من آيات الرحمن ، وعنصراً من عناصر الإعجاز القرآنى . بمضمونها ومشمولها ، بعناصرها وخصائصها ، كانت إثباتا للوحى الإلهى . وتدعيما للرسالة النبوية ، كما حوت العبرة والموعظة لإثبات قدرة الله العلى القدير ، وبالغ جبروته وسطوته . وكشفت عما حاق بالأمم الماضية من فنون العذاب والهلاك . . فإذا عرفنا أن القصة القرآنية كانت إلى جانب ذلك وسيلة من وسائل تثبيت قلب النبي وتشجيعه على تحمل أعباء الرسالة . ادركنا مدى القيمة الحقيقية لهذه القصة بوصفها آية من آيات الله التى لا تعد ولا تحصى أودعها عظيم كتابه لتشهد بقدرته تبارك وتعالى .

* * *

٨ ـ الأمثال القرآنية

« روى البيهق عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن القرآن نزل على خمسة أوجه : حلال ، وحرام ، ومحكم ومتشابه ، وأمثال . فأعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال » .

لذا عدّ الشافعى الأمثال مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن فقال :

« . . ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدّوال على طاعته ، المثبتة لاجتناب معصيته ، وترك الغفلة عن الحفظ والازدياد من نوافل الفضل » (١) .

والأمثال لغة . . جمع مثل ، والمثل والمثـــل والمثيل . . كالشبه والشبه والشبيه لفظاً ومعنى ، هكذا قال الزمخشرى .

والمثل فى الأدب قول محكى سائر يقصد به تشبيه حال الذى حكى فيه بحال الذى قيل لأجله ، أى تشبيه مضربه بمورده . ويطلق المثل على الحال . والقصة العجيبة الشأن ، وبهذا المعنى فسر لفظ المثل فى كثير من آيات الكتاب العزيز ، قال تعالى :

« مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غـــير آسن » (٢) أى قصتها وصفتها التى يتعجب منها .

بيد أن أمثال القرآن العظيم ، لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوى الذى هو الشبيه والنظير ، ولا يستقيم حملها على ما يذكر فى كتب اللغة لدى من ألفوا فى الأمثال ــ إذ ليست أمثال القرآن أقوالا استعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها ، ولا يستقيم حملها أيضاً على معنى الأمثال عند علماء البيان . لذا فإن المثل فى القرآن ــ فى رأيى ــ له تعريف أكبر وأسمى من ذلك ..

إنه إبراز المعنى فى صورة رائعة موجزة لها وقعها فى النفس ، سواء كانت

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ١/٤٨٦ (٢) سورة محمد ١٥

تشبيها أو قولا مرسلا . إن المقصود من المثل – فى القرآن المجيد – تشبيه شىء بشىء فى حكمه ، وتقريب المعقول من المحسوس ، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر . ومن هنا قال العلماء : « إن حقيقة المثل إخراج الأغمض إلى الأظهر » . كما قسموه إلى نوعين : « مثل ظاهر : وهو المقترح به . ومثل كامن : وهو الذى لا ذكر للمثل فيه صراحة ، وإن كان حكمه حكم المثل .

ولقد شاء الحق تبارك وتعالى – أن يجعل من ضرب الأمثال – فى القرآن العظيم – آية عظمى لفوائد جمة ، وغايات جلى ، يستفاد منها أمور كثيرة :

« التذكير ، والوعظ ، والحث ، والزجر ، والاعتبار ، والتقرير ، وترتيب المراد للعقل . وتصويره فى صورة المحسوس ، بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس .

كما تأتى أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر ، وعلى المدح والذم وعلى الثواب والعقاب ، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره ، وعلى تحقيق أمر وإبطال وإبطال آخر . قال تعالى : (١) (وضربنا لكم الأمثال) فامتن علينا بذلك لما تضمنت هذه الفوائد ،وقال سبحانه : (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) (٢) . وقال جل وعلا (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)(٣) لذلك أطلق العلماء على الأمثال .. مقادير الأفعال ، وقالوا : كل شىء له قالب ومقدار ، وقالب الكلام ومقداره الأمثال ، وقال الخفاجى : سمى مثلا لأنه ماثل بخاطر الإنسان أبداً ، فيتأسى به ويتعظ ويخشى ويرجو .

والأمثال فى القرآن العظيم يمكن أن تندرج تحت ثلاثة أنواع :

١ – أمثال مصرحة : وهى ما صرح فيها بلفظ المثل أو ما يدل على التشبيه .. من مثل قوله تعالى فى حق المنافقين : « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون ، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق » (٤) .

---

(١) ابراهيم ٤٥ (٢) الروم ٥٨ (٣) عنكبوت ٤٣
(٤) البقرة ١٧–٢٠

٢ — أمثال مكونة — وهى التى لم يصرح فيها بلفظ التمثيل ، ولكنها تدل على معان رائعة فى إيجاز يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها من مثل قوله فى الصلاة :

(ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) (١) .

وقوله فى الإنفاق : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) (٢) .

وقوله عز شأنه فى النفقة : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) (٣) .

٣ — أما النوع الثالث من الأمثال : كما وجدناها فى القرآن — فهى الأمثال المرسلة ..

ونقصد بها الجمل التى أرسلت إرسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه ، فهى آيات جارية مجرى الأمثال . من مثل قوله تعالى : (ليس لهـــا من دون الله كاشفة) (٤) (ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله) (٥) (قـــل كل يعمل على شاكلته) (٦) (كل نفس بما كسبت رهينة) (٧) .. (وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان) (٨) .

وقد اختلفت العلماء فى هذا النوع الأخير من الآيات ، الذى يسمونه إرسال إرسال المثل .. ما حكم استعماله استعمال الأمثال ؟ فرأى بعضهم أن الاستشهاد به يُعد خروجا عن أدب القرآن . قال الرازى فى تفسير قوله تعالى : (لكم دينكم ولى دين) .. « جرت عادة الناس أن يتمثلوا بهذه الآية عند التاركة ، وذلك غير جائز ، لأن الله تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به ، بل يتدبر فيه ثم يعمل بموجبه .

ويرى بعض العلماء — أنه لا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن فى مقام الجد ، كأن يأسف أسفا شديداً لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول : (ليس لها من دون الله كاشفة) . . الإثم الكبير فى أن يقصد

---

(١) الإسراء ١١٠ (٢) الاسراء ٢٩ (٣) الفرقان ٦٧ (٤) النجم ٥٨
(٥) فاطر ٤٣ (٦) الإسراء ٨٤ (٧) المدثر ٣٨ (٨) الرحمن ٦٠

الرجل إلى التظاهر بالعراء، فيتمثل بالقرآن حتى فى مقام الهزل والمزاح(١) .

وإذا كانت الأمثال قد أدرجت تحت ثلاثة أنواع .. فإن لها مضامين عديدة ومفاهيم كثيرة . شاء الحق — جلت حكمته — أن يجعلها زينة لكتابه ، وآية من آيات بيانه التى لا تنتهى ولا تنفد ، والحكمة فى ذلك ..

تعليم البيان ، فالمثل أعون شىء على البيان — ذلك أن الحكم والأمثال تصور المعانى تصور الأشخاص ، فإن الأشخاص والأعيان أثبتت فى الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس ، بخلاف المعانى المعقولة ، فإنها مجردة عن الحس ، ولذلك دقت ، ولا ينتظم مقصود التشبيه والتمثيل إلا بأن يكون المثل المضروب مجربا مسلمًا عند السامع .

أضف إلى ذلك — أن فى ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى .. إذ الغرض من المثل تشبيه الخفىّ بالجلىّ ، والشاهد بالغائب . فالمرغب فى الايمان مثلا إذا مثل له بالنور تأكد فى قلبه المقصود ، والمزهد فى الكفر إذا مثل له بالظلمة تأكد قبحه فى نفسه .

يؤيد ما ذهب إليه — الزمخشرى — فيقول : التمثيل إنمـــا يصار إليه لكشف المعانى . وإدناء المتوهم من المشاهد ، فإن كان المتمثل له عظيما كان المتمثل به مثله ، وإن كان حقيرا كان المتمثل به كذلك فليس العظم والحقارة فى المضروب به المثل إلا بأمر استدعته حال الممثل له ... ألا ترى أن الحق لما كان واضحاً جلياً تمثل له بالضياء والنور ، وأن الباطل كان بضده تمثـــل له بالظلمة ، وكذلك جعل بيت العنكبوت مثلا فى الوهن والضعف .

هذا وللأمثال فوائد أخرى كثيرة ..

— إنها تبرز المعقول فى صورة المحسوس الذى يلمسه الناس فيقبله العقل لأن المعانى المعقولة لا تستقر فى الذهن الا اذا صيغت فى صورة محسوسة ، قريبة الفهم ، كما ضرب الله مثلا لحال المنفق رياء ، حيث لا يحصل من انفاقه على شىء من الثواب ، فقال تعالى :

---

(١) بلاغة قرآن ٢٣

« فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على
. مما كسبوا »(١) .

— كما تكشف الأمثال ، وتعرض الغائب فى معرض الحاضر . كقوله
لى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من
س)(٢)

— ويضرب المثل للترغيب فى الممثل حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه
وس كما ضرب الله مثلا لحال المنفق فى سبيل الله ، حيث يعود عليه الانفاق
كثير فقال :

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى
سنبلة مائة حبة : والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) (٣)

— ويضرب المثل للتنفير ، حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس ؛
وله تعالى فى النهى عن الغيبة : (ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل
أخيه ميتا فكرهتموه) (٤) .

وقد يستعار المثل السائر للحال أو للصفة أو للقصة .. اذا كان لها شأن وفيها
ابة .. أما استعارة المثل للحال . فكقوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد
ا) (٥) .

أى أن حالهم العجيب للشأن كحال الذى استوقد نار .

وأما استعارته للوصف ، فكقوله تعالى(مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل) (٦)
وقوله (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا)(٧) وقوله : (كمثل الحمار يحمل
اراً)(٨) .

وأما استعارته للقصة ، فكقوله تعالى : (مثل الجنة التى وعد المتقون)(٩)

---

(١) البقرة ٢٦٤
(٢) البقرة ٢٧٥ .
(٣) البقرة ٢٦١
(٤) الحجرات ١٢ .
(٥) البقرة ١٧ .
(٦) الفتح ٢٩ .
(٧) العنكبوت ٤١ .
(٨) الجمعة ٥ .
(٩) الرعد ٣٥ .

أي فيما قصصنا عليك من العجائب قصة الجنة العجيبة ، ثم أخذ في بيـــان عجائبها .

ولا شك أن من أروع الأمثال التي اشتمل عليها القرآن الكريم مثلين ضربهما الحق تبارك وتعالى لما أنزله من الإيمان والقرآن ، مثله مرة بالماء ، ومثله أخرى بالنار ، فمثله بالماء لما فيه من الحياة . والنار لما فيه من النور والبيان ولهذا سماه الله روحا لما فيه من الحياة ، وسماه نورا لما فيه من الإنارة .. ففي سورة الرعد قد مثله بالماء فقال :

« أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومـــا يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله . كذلك يضرب الله الحق والباطل وأما الزبد فيذهب جفاءا ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال »(١) .

فضرب الله المثل بالماء الذي نزل من السماء فتسيل الأودية بقدرها كذلك ما ينزله من العلم والإيمان فتأخذه القلوب ، كل قلب بقدره ، والسيل يحتمل زبداً رابيا . كذلك ما في القلوب يحتمل شـــبهات وشهوات . ثم قال سبحانه : (ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) وهذا المثل بالنار التي توقد على الذهب والفضة والرصاص والنحاس : فيختلط بذلك زبد أيضاً كالزبد الذي يعلو السيل — قال الله تعالى : (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) .. كذلك العلم النافع يمكث في القلوب بالتوحيد وعبادة الله . قال قتادة : هذه ثلاثة أمثال ضربها الله في مثل واحد يقول : كما اضمحل هذا الزبد فصار جفاء لا ينتفع به ولا يُرجى بركته ، كذلك يضمحل الباطل عن أهله (٢) .

وفي الحديث الصحيح : « ان مثل ما بعثني الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير .

---

(١) الرعد ١٧ .

(٢) تفسير ابن جرير الطبري ٩١/١٣ طبعة بولاق .

وكان منها طائفة أمسكت الماء فشرب الناس واستقوا وزرعوا ، وكانت منها طائفة انما هى قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، وذلك مثل من فقه فى دين الله ، فنفعه ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به ».

وبعد .. فلا شك أن الأمثال القرآنية أوقع فى النفس ، وأبلغ فى الوعظ وأقوى فى الزجر ، وأقوى فى الإقناع ، وقد أكثر الله تعالى الأمثال فى القرآن تذكرة وعبرة ..

« ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون »

« وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون »

فجاءت الأمثال — فى القرآن العظيم — آية من آيات اعجازه ، التى لا تعد ولا تحصى ، آية تشهد بعظمة الحق سبحانه وتعالى .

* * *

٩ – الفواصل القرآنية

من أبرز الظواهر التى جاءت عليها صور النظم القرآنى هو إلتزام الفاصلة فى جميع آياته إلتزاماً مطرداً ، لا تتخلف أبداً ، كأنها القافية فى الشعر ، ذلك أن القرآن العظيم يحتفل كثيراً بهذه الفواصل ، حتى قلما تخلو من هذه الفواصل سورة من سوره ، بل آية من آياته ، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

« كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

« الفواصل » جمع « فاصلة » .. وهى المقطع الأخير من الآية ، التى تحدث إيقاعاً صوتياً منتظماً مع غيرها من المقاطع .

والفواصل – كما عرفها علماء البيان – « هى الحروف المتشاكلة فى المقاطع التى قصد بها حسن إفهام المعانى بما يقع فى السمع ، ويؤثر فى النفس من إيقاعها وحسن جرسها ، من مثل قوله تعالى : « الرحمن .. علم القرآن .. خلق الإنسان .. علمه البيان (١) .

وقوله جلا وعلا : « والفجر .. وليال عشر .. والشفع والوتر .. والليل إذا يسر .. هل فى ذلك قسم لذى حجر » (٢) .

ومثل هذه الفواصل القرآنية بلاغة ما بعدها بلاغة ، بلاغة تميزت بها آيات الذكر الحكيم ،وقد أراد العلماء بقولهم ، « يقع بها إفهام المعانى » : أنها تعقيب على المعانى التى تضمنتها الآية . وفى هذا التعقيب يرى وجه جديد لتلك المعانى ، فتزداد وضوحاً وبياناً ..

إذن .. فوظيفة الفاصلة – فى القرآن المجيد – تلخيص معنى الآية تلخيصاً يبرز به المعنى المراد منها . أو قل : هى إشارة مضيئة تبين مركز الثقل فى الآية .

---

(١) الرحمن ١ – ٤ (٢) الفجر ١ – ٥

وهذا يحتاج إلى أن تكون الفواصل جملا مستقلة تؤدى معنى تاما مستقلا بدلالته مثل قوله تعالى :

« والله غفور رحيم » وقوله أيضا « كان الله على كل شيء قديراً » .

ولكن هناك كثيرا من الفواصل القرآنية ليست على تلك الصفة ، وإنما قد تكون هي آية قائمة بذاتها ، مثل قول الحق تبارك وتعالى : « والضحى .. » وقوله « والعصر .... » .

وقد تكون جزءاً من آية مثل قوله عز شأنه « والسماء والطارق .. وما أدراك ما الطارق .. النجم الثاقب .. » . فالطارق ، والثاقب ، فواصل لآيات ، وهي بمنزلة الجزء من الكل ، لا يمكن فصلها .

إذن — فالتعريف الذى وضعه القدماء (للفاصلة القرآنية) ليس تعريفا جامعا مانعا كما يقولون — لأن قولهم (يقع بها إفهام المعنى) يلزم منه أن يكون للفاصلة دلالة مستقلة ، تتقابل مع المعنى الذى تحمله الآية التى هى فاصلتها ، وهذا ما لا يمكن أن يتحقق فى كثير من الفواصل التى هى بعض الآية ، أو الفواصل التى هى آيات مستقلة بذاتها .

لذلك يمكن القول .. أنه ليس من الضرورى أن تكون وظيفة الفاصلة ، محصورة فى تأكيد معنى الآية التى تصحبها ، أو تلخيص هذا المعنى ، أو تقريره ، بل إن للفواصل القرآنية وظائف أخرى غير هذا . . ذكرها الزركشى فى برهانه فقال : (١) .

(وتقع الفاصلة عند الاستراحة فى الخطاب ، لتحسين الكلام بها ، وهى الطريقة التى يباين القرآن بها سائر الكلام ، وتسمى فواصل لأنه يفصل عندها الكلامان ، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها) .

وموضوع الفواصل القرآنية ، من الموضوعات الدقيقة التى ثارحولها الجدل والنقاش قديما وحديثا ، وتصدى للحديث عنها مجموعة غير قليلة من العلماء

---

(١) ج ١ ص ٥٧ .

والباحثين ، القدماء والمحدثين بعضهم يقف عند حد تعريفها بالفواصل ، وبعضهم يربط بينها وبين الأسجاع ..

ولعل أقدم من تصدى لهذا الموضوع وناقشه بوضوح هو الرمانى (ت٣٨٦هـ) أحد علماء البلاغة فى القرن الرابع الهجرى . فهو يرى ؛ أن هذه الفواصل القرآنية بلاغة تميزت بها آيات الذكر الحكيم . ونبه إلى أن البعض قد يظن - أن مثل هذه الايقاعات الصوتية المتحدة : سجعاً . وقال : ان هذا خطأ كبير ، وشطط فى الفهم يخرجها عن نطاق بلاغة القرآن وروعته ، ويوضح الرمانى هذا الأمر بقوله:

(الفواصل بلاغة . . والأسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الاسجاع فالمعانى تابعة لها ، وهو قلب ما توجبه الحكمة فى الدلالة ، إذ كان الغرض الذى هو حكمة - انما هو الإبانة عن المعانى التى الحاجة إليها ماسة فإذا كانت المشاكلة وصلة إليه فهو بلاغة .. وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولكنة .

لأنه تكلف من غير الوجه الذى توجبه الحكمة ، ومثله مثل من نظم قلادة در ، ثم ألبسها كلبا ، وتبح ذلك وعيبه بين لمن له أدنى فهم) .

ويقدم الرمانى لذلك مثلا - ما حكى عن بعض الكهان وهو قوله :

(والأرض والسماء . والغراب الواقعة بنقعاء . لقد نفر المجد إلى العشراء)

ومنه ما يحكى عن مسيلمة الكذاب ،

(يا ضفدع نقى كم تنقين . لا الماء تدركين . ولا النهر تفارقين)

ثم يقول الرمانى . . (فهذا أغث كلام يكون وأسخفه . والسبب فى ذلك تكلف المعانى من أجله . وجعلها تابعة له من غير أن يبالى المتكلم بهاما كانت(١) .

وتابعه الباقلانى (ت ٤٠٣ هـ) . وأنكر أن يكون فى القرآن سجع . . قال :

(لو كان القرآن سجعاً لكان غيرخارج عن أساليب كلامهم (بقصد العرب)، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك الإعجاز ، ولو جاز أن يقال هو (سجع معجز) لجاز لهم أن يقولوا : (شعر معجز) . وكيف ؟ والسجع مما كانت كهان العرب تألفه ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر ، لأن الكهان

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن . تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام وزميله — طبع دار المعارف ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن سنة ١٩٧٠ ، ص ١٠٢ .

تخالف النبوات ، وليس كذلك الشعر (١) .

والحقيقة — أن هذا الذى يدفع به الباقلانى ، السجع ، عن القرآن ليس فيه مقنع ، إذ أن التسوية بين السجع والشعر هنا أمر غير مقبـــول ، لأن الحق تبارك وتعالى نزه القرآن عن أن يكون شعراً ، ونزه نبيه عن أن يكون شاعراً ، لا للصورة التى يجىء عليها نظم الشعر ، وانما للمعانى التى يحملها الشعر ، وأغلبها منتزع من الخيال والوهم ، وقائم على الكذب والمبالغة ، فهذه المعانى يمكن أن يحملها الشعر ، على حين يضيق بها النثر . ولهذا بين القرآن السبب الذى من أجله رفع القرآن عن منزلة الشعر . فقال عن الشعراء « ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » . فالمخالفة بين القول والعمل تعنى أن القول الذى يقوله هؤلاء الشعراء لا يصدقه العمل ، لأنه مجرد كلام ، لا يستجيب لواقع الحياة ، ولا يتشكل عملا مقبولا ، ولو صور كلام الشعراء فى صورة أعمال ، لكانت تلك الاعمال مخلوقات منكرة شائهة يأبى الناس أن يتعاملوا معها .

أما السجع — وإن كان قد اعتمد عليه الكهان فى تصوير همهاتهم وشطحاتهم ، وكان بهذا مقاربا للشعر فى خياله وأباطيله . إلا أن العــــرب قد عرفت النثر المسجوع فى غير سجع الكهان ، عرفته فى خطابتها ، وفى وصاياها وفى حكمها وأمثالها ، فحمل أجمل المعانى ، وأكرم ما عرفت العرب من أخلاق ، وخطبة « قس بن ساعدة » التى سمعها النبى — صلى الله عليه وسلم — من قس ، وهو يهدر بها فى سوق عكاظ على جمل أورق — خير شاهد لهذا ، وحسبها أنها نالت إعجاب الرسول الكريم ، واستحقت ذكره لها وثناءه عليها .

إن ما أعجب ما فى قول الباقـــلانى هنا قوله : « إن الكهانة تخالف النبوات وليس كذلك الشعر » ، وكيف غاب وكيف غاب عن ذهن القاضى « الباقلانى » قول الحق تبارك وتعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » ، أفلا يكون الشعر بعد هذا مخالفا للنبوات ؟

---

(١) انظر كتاب مجاز القرآن ص ٣ وما بعدها .

وقد خالف أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥ ه) — فى كتابه الصناعتين الرمانى وتابعيه فى رأيهم ، ولم يأخذ بالتفرقة التى قال بها الرمانى بين السجع والفواصل . . قال :

« وكذلك جميع ما فى القرآن مما يجرى على التسجيع والازدواج مخالف فى تمكين المعنى ، وصفاء اللفظ ، وتضمن الطلاوة والماء ، لما يجرى مجراه من كلام الخلق . . ألا ترى إلى قوله عز اسمه : « والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً ، فالمغيرات صبحاً ، فأثرن به نقعاً ، فوسطن به جمعاً » قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هذا المجرى ، مثل قول الكاهن : (والسماء والأرض ، والقرض والغرض والغمر والبرض) ومثل هذا من السجع مذموم لما فيه من التكلف والتعسف . ولهذا ما قال النبى — صلى الله عليه وسلم — لرجل قال له : أندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح فاستهل ، فمثل ذلك يطل (١) :

أسجعاً كسجع الكهان ؟ لأن التكلف فى سجعهم فاش ، ولو كره عليه الصلاة والسلام لكونه سجعاً لقال : « أسجعاً ؟ » ثم سكت .

ثم يقول العسكرى : وكيف يذمه ويكرهه ؟ وإذا سلم السجع من التكلف وبرىء من التعسف لم يكن فى جميع صفوف الكلام أحسن منه ، وقد جرى عليه كثير من كلامه عليه السلام .

وإذا كان الرمانى وتابعه ينفيان السجع عن القرآن ، ويخالفهما العسكرى فيقول به . . فإن هناك رأيا وسطاً بين الفريقين المتخاصمين من القدماء ، نادى به ابن سنان الخفاجى فى كتابه « سر الفصاحة » قال :

« الفواصل على ضربين : ضرب يكون سجعا ، وهو ما تماثلت حروفه فى المقاطع ، وضرب ، يكون سجعا ، وهو ما تقابلت حروفه فى المقاطع ولم تتماثل . . ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين من أن يكون يأتى طوعا سهلا ،

---

(١) أندى : من الدية وهى الغرم الذى يقدمه القاتل لأهل القتيل ، وكان الرجل يسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن جنين لتل فى بطن أمه . يطل : أى لادية له .

وتابعا للمعانى ، وبالضد من ذلك يكون متكلفا يتبعه المعنى ، فإن كان من القسم الأول فهو المحمود ، الدال على الفصاحة وحسن البيان ، وإن كان من الثانى فهو مذموم ..

فأما القرآن فلم يرد فيه إلا ما هو من القسم الأول المحمـــود ، لعلوه فى الفصاحة .

هذا جانب طريف من جوانب المناقشة التى كانت تثار أحيانا بين العلماء حول الموضوع الواحد ، يهمنا منه أن نصل إلى كنه هذه الفواصل القرآنية وقيمتها بوصفها آية من آيات الاعجاز أودعها الله كتابه العزيز .

إننا إذا تأملنا الفواصل القرآنية ، وجدنا أنها على وجهين .

- فواصل على الحروف المتجانسة .
- وفواصل على الحروف المتقاربة .

أما الفواصل التى على الحروف المتجانسة ، فهى من مثل قوله تعالى :

- « والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشر ، والبيت المعمور »(١)
- (طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى ، الرحمن على العرش استوى)(٢).
- (اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر) (٣)

وجميع هذه الآيات على هذا التجانس الصوتى المتماثل الذى يؤثر بإيقاعه فى السمع ، وفى النفس معا ، وهذا ما دعا العلماء إلى القول بأن هذا الإيقاع سجع .. وهذا جائز كما يقول الخفاجى : لأن فيه معنى السجع ، ولا مانع فى الشرع يمنع من ذلك .

وأما الفواصل التى على الحروف المتقاربة .. فهى :

---

(١) الطور ١ — ٤ (٢) طه ١ — ٤ .
(٣) القمر ١ — ٣ .

ـ كتقارب الميم من النون في قوله تعالى : « الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين » ..

ـ وكتقارب الدال من الباء في قوله تعالى : « ق . والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون هذا شيء عجيب » (١)

وواضح هنا ـ أن هذا الإيقاع الصوتي المتقارب الحروف . لا يمكن أن يسمى سجعا ، لأن حروفه متماثلة . وإنما حسن الفواصل ـ الحروف المتقاربة ـ لأنه يكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد في تمييز الفواصل والمقاطع لما فيه من البلاغة وحسن العبارة . فالفائدة البلاغية في الفواصل القرآنية دلالتها على المقاطع وتحسينها الكلام بالتشاكل وإبداؤه في الرأى بالنظائر .

هذان هما الوجهان اللذان اعتمدهما القدماء لفواصل القرآنية . إلا أننا وجدنا وجوها أخرى من الفواصل القرآنية .. لمسناها بين ثنايا سور الكتاب المجيد .

فهناك ضرب من الفواصل المتوازية . وهي التي تتفق فيها الفاصلتان في الوزن وحرف السجع ، من مثل قوله تعالى : (فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة) .

فالفاصلتان : (مرفوعة وموضوعة) متوازيتان وزنا وقافية .

وهناك ضرب من الفواصل المطرفة . وهي التي تتفق فيها الفاصلتان في حرف السجع دون الوزن من مثل قوله تعالى : (ما لكم لا ترجعون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً) (٢)

فالفاصلتان : (وقاراً وأطوارا) مختلفتان وزنا ، متفقتان سجعا .

ـ وضرب ثالث من الفواصل تتفق فيه الفاصلتان في الوزن دون غيره .

من مثل قوله تعالى : (ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة) (٣)

فالفاصلتان : (مصفوفة ومبثوثة) متفقتان وزنا ، مختلفتان سجعا .

وهكذا تختلف صور الفواصل في القرآن العظيم ، وتتشكل ألوانا وإيقاعا

---

(١) سورة ق ١ ـ ٢ (٢) نوح ١٣ ، ١٤ . (٣) الغاشية ١٥ ، ١٦

فلا تجد الأذن فيها إلا حسناً متجددا .

ان الفاصلة القرآنية ظاهرة واضحة المعالم . فى الهيئة التى جاء عليها القرآن ، والتى أتفرد عن أن يكون نثرا ، أو أن يكون شعرا ، على نحو ما كان عليه الأدب العربى .

وان الفاصلة القرآنية قد جعلت كتاب الله نحواً جديدا من أنحاء الكلام العربى ، فإذا كان الكلام العربى قبل نزول القرآن هو الشعر والنثر ، فإنه بعد نزول القرآن أصبح الكلام العربى قرآنا وشعرا ونثرا ، لهذا نقول : إن هذا الأسلوب الذى جاء به القرآن إعجازا قائما بذاته . وآية من آيات العلى القدير ، لأنه نقض العادة ، وخرج عن المألوف . وهذا شأن الإعجاز .

١٠ – الصورة القرآنية

يا أخى المسلم :

إنك إذا اقبلت تقرأ شيئاً من كتاب الله عز وجل بإمعان وتدبر .. رأيت نفسك تستقبل معانى الآيات بكل من قلبك وعقلك وخيالك معاً . فالقلب ينشرح والعقل يفهم ، والخيال يتصور .

وذلك على خلاف المألوف والمعروف لدى قراءة أى كلام لمو كتاب آخر . فالعقل وحده الذى يتفاعل مع الكلام والمعانى ...

ولكن القرآن فى مواضيعه كلها .. إنما تقوم أداته التعبيرية على التصوير والتجسيم .. وهذه آية أخرى من آيات إعجازه ..

وهنا قد يتساءل البعض ما معنى التصوير ؟ . وما مفهومه ؟

يقول علماء البيان .. الكلام خبر وإنشاء

والخبر – كما نعلم – الحديث عن معنى قد وقع على سبيل الاطلاع عليه لمن كان جاهلا .. أو التذكير به لمن كان ناسياً .

والإنشاء .. تحصيل معنى عن طريق استفهام أو طلب ..

إذن .. فشأن الكلام – على كل حال – مرتبط بالمعنى إخباراً به ،أو استفهاما عنه ،أو طلبا له ، وليس له من شأن بما وراء ذلك ..

وما هو المعنى ؟ انه عبارة عن كل ما يدركه العقل . فكل ما يعيه العقل فهو معنى ..

ومن هنا – كانت صلة الكلام بالعقل دائماً ، والمتكلم إنما يخاطب فى الناس عقولهم .. فإذا أدرك العقل ، واستوعب ، حمل إلى مكامن الإحساس والوجدان من ذلك المعنى ما يلائمه من التأثيرات المختلفة ، فتفاعل الإحساس بها وتأثر ..

بيد أن الكلام القرآن طريقة أخرى فى الخطاب .. وهذا سر إعجازه إنه

لا يخاطب العقل وحده على نحو ما نعلم من سائر أنواع الكلام ، ولكنه يخاطب كلاً من القلب والعقل والخيال والشعور معاً .

أو قل : إنه يحمل إلى العقل معنى يخاطبه به ، وينبهه إليه ، وينفث في المشاعر والخيال إحساساً بصورة ذلك ، وينبههما إلى ما فيه من حركة وحياة .

وكلام القرآن لا يعثر على هذا السبيل فى الخطاب إتفاقاً ..

أو بأن يتهيأ له سبيل إلى تشبيه أو استعارة أو مجاز . حتى إذا تجاوز ذلك عاد إلى النسق المألوف . والكلام العادى ..

بل هو فى القرآن نسق مطرد ، وطريقة متبعة ، وسبيل عرفت به وعرف بها سواء كان يأمر أو ينهى ؛ أو يخبر ويقص ؛ أو يعلم ويشرع ؛ أو يتحدث عن غيب ، أو يحذر من عذاب .

وسر الإعجاز فى ذلك .. كل من حقيقتين اثنتين

الحقيقة الأولى : أن المعانى القرآنية فى حقيقتها ليست إلا مجردات اعتبارية، يضمها ويدركها العقل وحده ، فيحولها إلى صورة مما تألفه العين ، ويدركه الشعور والخيال ، مما لا يقدر عليه الإنسان .

أما الحقيقة الثانية : فهى أن الألفاظ ، ليست إلا حروفا صوتية جامدة، فتحولها إلى ريشة تنبع فى رأسها الأصباغ والألوان المختلفة — المطلوبة — لتحيل المعنى إلى صورة فى لوحة يتأملها الخيال ، بل وتكاد تدركها العين قبل أن يستوعبها العقل ..

وهذا أمر لا يقوى عليه شىء مما نسميه المجاز أو البلاغة أو البيان .

وهذا سر إعجازه .. وآية من آيات إبداعه .

فليست المعانى فى القرآن مجردات اعتبارية لا يدركها إلا العقل ..

وإنما هى صور حية تمر بخيال القارىء ويلمسها إحساسه ، وتكاد أن تراها عينه .

وليست الألفاظ فى القرآن — تلك الحروف التى لا تدل إلا على المعنى بل الألفاظ ينبوع للصور والإحساس والألوان ..

وآية هذا الذى نقوله — وقبل أن أعرض عليكم الدليل التطبيقى — أن تتذكر أيها الأخ الكريم — انطباعاتك النفسية والشعورية تجاه القرآن عند ما كنت تتلوه أو تنصت إليه فى زمان طفولتك . ستتذكر — الآن وأنا أقدم لك صورا تصويرية من القرآن .

انه قد كان لخيالك جولة كبرى، ونشاط غريب فى آفاق واسعة بعيدة، أثناء تلاوته أو الإنصات إليه ..

وسترودك ذاكرتك إلى صور وأشكال وأخيلة غريبة منطبعة فى خلدك كلما قرأت شيئا من آياته .

إن التصوير القرآنى يندرج فى مظاهر متعددة بوسائل مختلفة ، وكثيرا ماتجد هذه المظاهر كلها مجتمعة فى نص واحد ، وقد تجد بعضها متفرقا فى نصوص متعددة . .

فأول مظهر للتصوير — فى القرآن العظيم — إخراج مدلول اللفظ من دائرة المعنى المجرد إلى الصورة المحسوسة والمتخيلة ..

والمظهر الثانى : تحويل الصورة من شكل صامت إلى منظر متحرك حىّ .

أما المظهر الثالث : فهو تضخيم المنظر وتجسيمه حينما يكون الجو والمشهد يقتضيان ذلك . .

والوسيلة القريبة إلى تحقيق هذه المظاهر — لا تعدو أن تكون استعارة أو مجازا مرسلا ، أو تشبيها وتمثيلا . .

وهذه الوسائل التى وضع عليها علم البيان — إنما هى قواعد استخلصت واستنبطت من التصوير، الذى انطوى عليه أسلوب القرآن الكريم . .

فالقرآن هو الأساس لهذه القواعد وليس العكس كما قد يتوهم . .

أما الوسيلة البعيدة — فلسنا نملك منها إلا الوصف التقريبى — إذ هى سر من أسرار الإعجاز القرآنى . . وهى الغاية التى تقف دونها طاقة أئمة البيان . .

وكل ما أستطيع أن أقوله عنها . . أنها الكيفية اللطيفة الدقيقة ، التى تتألف

الكلمات على وفقها ؛ وتتناسق الحروف والحركات على أساسها ؛ فتخرج الكلمة والجملة فى قالب من اللفظ ، وطريقة من الأداء تبث فى الإحساس والخيال صورة مجسمة حية للمعنى . .

وما أظنك الآن يا أخى — إلا متشوقا إلى الإنتقال إلى عرض نماذج وأمثلة لكل هذا الذى قلناه . .

. . فلنكتف بما ذكرناه من هذه المسائل التقريرية والتعاريف النظرية . ولنبدأ بذكر بعض الأمثلة . . وإلا فالأمثلة على ذلك هى القرآن العظيم كله .

١ — تأمل يا أخى الكريم — فى هذا التصوير الذى بلغ أسمى درجات الروعة لحالة المتكبر وعنفوانه واستعلائه على الحق ؛ وجنوحه عن السبيل الصحيح : « إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا ، فأغشيناهم فهم لا يبصرون » (١)

فالآية كما ترى تتركك تتخيل إنسانا إلتف حول عنقه غلٌ عريض مرتفع الى الذقن . جعل رأسه صاعدا الى الأعلى لا يتحرك . . فتلك هى الصورة الساخرة للمتكبر ، ثم هو يقف فى مكان قد سد عليه بجدران غليظة مرتفعة من أمامه ومن خلفه ، وقد غشى الظلام على بصره ؛ فهو لا يملك حرا كا نحو أى اتجاه ؛ وتلك هى صورة من لم ينفع معه المنطق ودلائل الفكر والعقل ، وظل مع ذلك عاكفا على غيه وضلاله .

٢ — وتأمل هذه الآية الأخرى — التى تريد أن توضح لك قيام الكون على أساس من النظام المرتب . والتنسيق الذى لا يتخلف . ولا يلحقه الفساد . فهى تصور لك هذا المعنى فى مظهر من الحركة المحسوسة الدائرة أمام عينيك ، وكأنك أمام آلات لمعمل تتحرك بسرعة دائبة وفى نظام مستمر . .

« إن ربكم الله — الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً . والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر . . تبارك الله رب العالمين » (٢) .

---

(١) يس ٨ ، ٩ (٢) الأعراف ٥٤

فانظر فى قوله (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا) وتأمل فى الصورة المتحركة التى تطبعها فى خيالك . وانك لتجد هذه الصورة المتحركة نفسها بأسلوب آخر فى قوله تعالى :

« لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر . ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » .

فأنت تقف من هذه الآية — كما ترى — أمام حركة دائبة لاتفتر ولاتتخلف يعيها ويتصورها الشعور والخيال .

وانظر فى هذه الصورة المتحركة الأخرى ، التى عمدت إلى معنى فكرى مجرد ، فأخرجته فى مظهر حرب متلاحمة بين طرفين ، تبصر أحداثها أمامك حية مجسمة .

(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون)(١)

فالقذف والدفع والزهق ، كلمات ما كان ليخطر فى بال أى متأمل أن يستعملها فى مجال التعبير عن أن الحق هو الذى تتقبله النفوس والعقول الحرة دائما ، ولكن الاعجاز القرآنى هو الذى طوع مختلف ألفاظ اللغة لمختلف الصور والمعانى والأفكار .

وتأمل يا أخى الكريم .. هذه الصورة .. وهذا التصوير ..

لقد أمر الحق تبارك وتعالى نبيه ورسوله — صلى الله عليه وسلم ..

إن هو إلتقى بجموع الكافرين ، الذين أصروا على عنادهم — أن يشتد فى قتالهم حتى تحيق بهم الهزيمة . ويدحو فى قلوبهم الرعب ..

فانظر إلى الأداة — التى استعملها فى التعبير عن هذا المعنى .

« فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون »(٢) فقد أخرج معنى التلاقى الذى يكون بين المسلمين وأعدائهم ، فى صورة من ظل يتربص بشىء حتى ظفر به ، ووقع عليه ، وعبر عن ذلك بقوله (تثقفنهم) بمجموع ما تحمله هذه الكلمة من الدلالة ومن الصياغة اللفظية . ومن تناسق السكنات والحركات والتشديد البارز بينها .

---

(١) الأنبياء ١٨ (٢) الأنفال ٥٧ .

ثم أخرج معنى: إلحاق الهزيمة فى صورة فريدة عجيبة . هى صورة جند أقوياء أشداء انقضوا فى هجوم صاعق على طلائع أعدائهم ، أو الصفوف الأولى منهم ، فأخذ الرعب الفزع منهم كل مأخذ . حتى سرى ذلك منهم إلى من خلفهم من بقية الجموع ، فتبعثروا فى كل جهة قبل أن يصل إليهم السوء ويلامسهم .

لا ريب — إنك إنما تتسمع إلى هذا الوصف بخيالك وإحساسك . ولاريب أنك تتصورة الآن منظرا حيا فى فلاة واسعة . .

وقد استنفد بيان هذه الصورة بضعة أسطر كما قد رأيت . فتأمل كيف صاغها بيان التنزيل فى أقل من سطر واحد .

وتأمل يا أخى هذه الصورة أيضا . .

لقد أخبر الحق تبارك وتعالى — رسوله أن مسئولية كل عمل متلبسة بصاحبه خيرا كان أم شرا . فلا يسأل إنسان عما لم يعمل . ولا ينبعث الشر من مصدره طيرة أو شؤما . . وإنما ينبعث من فاعله الذى فعله . .

فتأمل كيف صور المولى سبحانه هذا المعنى

(وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه . ونخرج له يوم القيامـــة كتاباً يلقاه منثورا) (١)

إذا تأملت فى هذا التعبير . بعد أن علمت أن العرب فى الجاهلية كانوا يرون فى مظاهر بعض الأنواء والحيوانات والطيور ،سببا وباعثا للمصائب والشرور ، تخيلت صورة إنسان قد تجمعت كل أسباب الشؤم والطيرة حوله . . فالتصقت به وتعلقت بعنقه ، ليدل بذلك على أن الذى يقوده إلى الشر إنما هو ذاته نفسها . وإذا كان لا بد أن هناك مصدر طيرة وشؤم . فإنه على كل حال مصدر متعلق به لا ينفك عنه .

وإنما أخرج المعنى بهذا المظهر التصويرى الحسىّ الملموس، ليكون أوقع فى النفس، وأدل على المقصود ، وليحمل التعبير معنى السخرية بأوهام الجاهلية وسخافاتها .

وصورة أخرى . . وضعها اللطيف الخبير . . تصور كراهية أهل الجاهلية

---

(١) الإسراء ٢٣ .

الأنثى إذ تولد فى دار أحدهم ، ويئس أن الكرب يأخذ من أحدهم كل مأخذ إذا ما أخبر بأنثى قد ولدت له .. وأنه يراود فكرة أن يدفنها فى التراب حية، أنظر يا أخى كيف عبر عن هذا الشعور النفسى بأسلوب تصويرى تسجد له البـــلاغة العربية فى أسمى مظاهرها وألوانها .

« وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون » .

لقد صور تهكم من حوله به بكلمة « بشر » ثم صور شدة الكرب الذى انتابه بقوله « ظل وجهه مسودا وهو كظيم » ثم صوّر وقع النبأ الذى حمله اليه القوم مبشرين — أى متهكمين ومشفقين — بقوله : « يتوارى من القـــوم من سوء ما بشر به » .

ثم صور الحيرة التى تراوده وتطوف بخاطره بقوله « أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب » وردد النظر والفكر — يا أخى — هذه الكلمة الرائعة (يدسه) لتبصر كيف أنها تشف عن الغيظ والعصبية والشدة التى تلبست بها حالة الرجل ..

إننا إذا أردنا أن نستقصى الكلام فى تصوير القرآن وأشكاله ومظاهره، لجف المداد ، ونفد الورق دون أن نوفى البحث حقه .

(قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا)

كل ما نستطيع أن نقوله .. ان كل آية من آيات القرآن تنطق بقدرة العلى العظيم ، وتشهد بعظمته وجلاله .

الباب الثالث

مباحث فى البلاغة القرآنية

أولا : الموضاعات :

١ — الإيجاز .
٢ — التكرار
٣ — التجانس .
٤ — ائتلاف اللفظ مع المعنى .
٥ — التكميل والتتميم .
٦ — الإيضاح بعد الإبهام .
٧ — المطابقة والمقابلة .

ثانيا : الأساليب :

٨ — أسلوب القسم .
٩ — أسلوب التوهيم .
١٠ — أسلوب الالتفات .
١١ — أسلوب التوكيد .
١٢ — أسلوب المبالغة .
١٣ — أسلوب التعبير الرمزى .
١٤ — أسلوب الاستخبار .

١ – الإيجاز فى القرآن العظيم

– من آيات الإعجاز البلاغى فى القرآن الكريم ما جاء على وجه الإيجاز ؛

والإيجاز معناه : إختصار بعض الالفاظ ليأتى الكلام وجيزا من غير حذف لبعض الاسم . كحذف المضاف ، أو لبعض الجلة كحذف الفاعل أو حذف الخبر . والايجاز فى مفهوم البلاغيين : تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى ، فإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة ، ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة ، فالالفاظ القليلة ايجاز .

ومن شرط الايجاز ألا يخرج الكلام مخرج الإشارة . . .

وأكثر قصص القرآن المجيد من هذا النمط . كقصة موسى عليه السلام فى سورة (طه) فإن معانيها أتت بألفاظ الحقيقة تامة غير محذوفة ، ولا مغيرة بسط الإشارة وهى مستوعبة فى تلك الألفاظ .

والايجاز كما وضح فى القرآن العظيم على وجهين ؛

– ايجاز حذف . وايجاز قصر . .

فأما إيجاز الحذف .. فهو إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من فحوى الكلام .. أو قل .. حذف بعض الكلام لدلالة الباقى عليه ، أو للاستغناء بالقرينة عنه . من مثل قوله تعالى ؛ (واسأل القرية) وقوله جل شأنه (ولكن البر من اتقى) وقوله سبحانه (طاعة وقول معروف) .

ومن هذا الايجاز ، حذف الأجوبة ، كقوله تعالى ؛ (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها) كأنه قيل ، حصلوا عند ربهم على النعيم المقيم ، الذى لا يشوبه التنغيص والتكدير .

ووإنما صار الحذف فى مثل هذا أبلغ من الذكر ـ لان النفس تذهب فيه كل مذهب ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان .

ومن ايجاز الحذف .. ضرب تحذف منه المفعولات ، وذلك حين يكون

غرض المتكلم بيان حال الفاعل فقط ، فحينئذ لا يعدى الفعل ، فإن تعديته تنقص الغرض ، والضابط فى هذا — أن العناية متى كانت متوفرة على مجرد إثبات الفعل — لا على أن يعلم المفعول .فالاولى حذف المفعول . . وعلى ذلك قوله تعالى :

(ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون) معناه أغنامهم ومواشيهم .

(ووجد من دونهم امرأتين تذودان) معناه : غنمهما .

(قالتا لا نسقى) يعنى غنمنا (فسقى لهما) يعنى غنمهما .

والسبب — ما قلناه — من أن المقصود أنه كان فى تلك الحالة من الناس سقى . ومن المرأتين ذود ، وقولهما (لا نسقى) أى لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء ، وأنه كان من موسى - عليه السلام - بعد ذلك سقى ، فأما ما كان المسقى أغناما ام إبلا ، فخارج عن الغرض ، وموهم خلافه .

وغرض ثان - من حذف المفعولات . . وهو أن يحذف المفعول لكونه معلوما بيناً . وقد يضمر المضمر بشرط التفسير ، وعليه قوله تعالى : (ولو شاء لهدا كم أجمعين) ،ومفعول المشيئة من حقه إذا كان أمراً عظيما أو غريباً أن يذكر ، ولا يضمر فى الكلام الأفصح ، وأن لم يكن عظيما ولا غريبا ، فالحذف أولى .

ومعلوم أن الكناية لا تبلغ مبلغ التصريح ، وعليه جاء قوله تعالى (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) وقوله سبحانه ؛ (قــل هو الله أحد الله الصمد) فإنه لو ترك الإظهار إلى الاضمار ، فقيل : (وبالحق أنزلناه وبه نزل) و (قل هو الله أحد وهو الصمد) لم يكن فيه من الفخامة ما فيه الآن .

وقال الجرجانى(١) - فى دلائل الإعجاز : من الايجاز حذف المبتدأ . وأنشد عليه أبياتا كثيرة - وحكم بحسن ذلك الحذف ، إلا أنه لم يذكر السبب . . إنما الذى ذكر السبب فهو فخر الدين بن الخطيب فى كتابه « نهاية الايجاز فى دراية الإعجاز » قال :(٢)

« ويشبه أن يكون السبب ، هو أنه بلغ فى استحقاق الوصف ما جعل وصفاً له إلى حيث يعلم بالضرورة أن ذلك الوصف لا يليق إلا به ، ولا يكون إلا له

(١) دلائل الإعجاز ص ١١٣ (٢) ص ١٢٣

إذ ليس فى الوجود من هو كذلك سواه ، سواء كان فى نفسه كذلك ، أو بحسب دعـــوى الشاعر على طريق المبالغة ، وإذا كان كذلك كان ذكره يبطل هذه المبالغة ، فلهذا قال الإمام عبد القاهر : « ما من أسم حذف فى الحالة التى ينبغى أن يحذف فيها إلا وحذفه أحسن من ذكره » .

ومن باب حذف المبتدأ قوله تعالى : (سورة أنزلناها) أى هذه سورة . وقوله تعالى (طاعة وقول معروف) والتقدير : (أمثل قولنـــا طاعة وقول معروف) .

ومن الايجاز أيضاً - نوع تختصر فيه بعض الألفاظ ، ويأتى كله بلفظ الحقيقة ، لـكن اختصاره من اختصار ألفاظ المجاز ، وهو يسمى « اختصار الاتباع » كقوله تعالى :

(والذين تبوؤوا الدار والإيمان) فإن التقدير : تبوؤوا الدار وأخلصوا الإيمان .

إن كل ما ذكرناه حتى الآن يدخل تحت ايجاز الحذف .

وأما الوجه الثانى من الإيجاز . . . وهو إيجاز القصر — فهو بناء الـكلام على تقليل اللفظ ، وتكثير المعنى من غير حذف . ومنه قوله تعالى : (يحسبون كل صيحة عليهم) وقوله : (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) . وهذا الضرب من إيجاز القصر — فى القرآن — كثير .

ويظهر سر هذا الإعجاز القرآنى ، الناشيء عن الايجاز — من مقارنة ما استحسنه العرب قديما ، واعتبروه قمة البلاغة وهو قولهم « القتل أنفى للقتل » بما يناظره فى المعنى - وهو قول القرآن (ولكم فى القصاص حياة) .

أننا إذا تعمقنا قول العرب ، وجدنا أن بينه وبين لفظ القرآن تفاوتا كبيرا فى البلاغة والايجاز ، ويظهر ذلك التفاوت من أربعة أمور :

إن لفظ القرآن أكثر فى الفائدة ، وأوجز فى العبارة ، وأبعد من الكلفة بتكرار الجملة ، وأحسن تأليفا بالحروف المتلائمة .

● أما الكثرة فى الفائدة : ففى لفظ القرآن كل ما فى قولهم (القتل أنفى للقتل) وزيادة معان حسنة ، منها : إبانة العدل الإلهى لذكره القصاص ، ومنها - ابانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة ، ومنها : الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به

● وأما الإيجاز فى العبارة : فإن الذى هو نظير قوم العرب (القتل أنفى للقتل) قول القرآن (القصاص حياة) وقول العرب أربعة عشر حرفا . . وقول القرآن عشرة أحرف .

● وأما بعده من الكلفة بالتكرير : الذى فيه على النفس مشقة ، فإن فى قولهم : « القتل أنفى للقتل . تكريرا غيره أبلغ منه ، ومتى كان التكرير للفظ كذلك ، فهو مقصر فى باب البلاغة .

● وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة . . فهو مدرك بالحس ، وموجود فى اللفظ ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام فى قول القرآن (ولكم فى القصاص حياة) أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة فى قول العرب « القتل أنفى للقتل » لبعد الهمزة من اللام . فباجتماع هذه الأمور جميعا ، صار أبلغ منه وأحسن .

ومن أبدع آيات الاعجاز الناجمة عن الإيجاز قوله تعالى :-

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) . . . فإن الحق تبارك وتعالى أمر فى أول الآية بكل معروف ، ونهى بعد ذلك عن كل منكر ، وختم الآية بأبلغ موعظه ، وذكر فى فاصلتها ألطف تذكرة بألفاظ اتفق فيها ضروب من المحاسن، مع كونها ألفاظ الحقيقة . فمن محاسن هذه الآية . صحة التقسيم ، لانه سبحانه استوعب جميع أقسام أجناس المعروف والمنكر ،والطباق اللفظى ،وحسن النسق، وحسن البيان ، وائتلاف اللفظ مع المعنى ، والمساواة ، وصحة المقابلة وتمكين الفاصلة . . كل ذلك فى نطاق الايجاز .

فأما استيعاب الاقسام . فإنه سبحانه أمر بالعدل ، وهو معاملة المكلف نفسه وغيره بالإنصاف ، ثم أمر بعد العدل بالاحسان وهو اسم عام يدخل

تحته التفصيل بعد العدل . وقدم ذكر العدل لأنه واجب ، وتلاه بالإحسان لأنه مندوب ، ليقطع نظم الكلام على أحسن ترتيب ، وخص ذا القربى بالذكر بعد دخوله فى عموم من أمر بمعاملته بالعدل والاحسان ، لبيان فضل ذى القربى ، وفضل الثواب عليه ، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى بصيغة تعريف الجنس ، ليستغرق كل ما يجب أن ينهى عنه ،كما استغرق كل ما يجب أن يؤمر به .

والمطابقة اللفظية فى قوله تعالى (يأمر ، و (ينهى) ، والمقابلة فى قوله سبحانه (بالعدل والاحسان ، وإيتاء ذى القربى) ،وقابل ذلك بقوله (الفحشاء والمنكر والبغى) فقابل ثلاثة بثلاثة .. والآخر مخالفة الأول .

وحسن النسق : فى ترتيب عطف الجمل بعضها على بعض كما ينبغى ، حيث قدم العدل ، وعطف عليه الإحسان ، لكون الإحسان ما زاد على الواجب ، والعدل الواجب ، وعطف ايتاء ذى القربى على الإحسان ، لكون الإحسان أسما عاما . وايتاء ذى القربى خاص ، فكأنه نوع من ذلك الجنس ، ثم أتى بجملة الأمر مقدمة ، وعطف عليها جملة النهى ، ثم رتب جميع المأمورات والمنهيات بحيث لم يتقدم ما يجب تأخيره ، ولم يتأخر ما يجب تقديمه ، فأتى حسن الترتيب مقترنا بحسن النسق .

وأما حسن البيان : فلأن لفظ الآية لا يتوقف فى فهم معناه من سمعه ، إذ سلم من التعقيد فى لفظه ، فقد دل على معناه دلالة واضحة بأقرب الطرق وأسهلها، واستوى فى فهمه الذكى والبليد ، والقريب من الصناعة والبعيد .

وأما الائتلاف : فلأن كل لفظة لا يصلح مكانها غيرها .

وأما المساواة : فلأن ألفاظ الكلام قوالب لمعانيه لا تفضل عنها ، ولا تقصر دونها . .

وأما تمكين الفاصلة : فلأن مقطع الآية مستقر فى قراره ، ومعناه متعلق بما قبله إلى أول الكلام ، لأنه لا تحسن الموعظة إلا بعد التكليف ببيان الأمر والنهى ، فإن الوعد والوعيد ايجازهما مرتب على امتثال الامر والنهى ومخالفتهما ، والتذكرة بعد الموعظة .

أما الإيجاز : .. كما وضح فى الآية الكريمة ، فهو دلالة الألفاظ القليلة على المعانى الكثيرة بألفاظ الحقيقة الصريحة لا بلفظ الاشارة ، ولا الإرادف ولا التمثيل ، ولا ضرب من ضروب الحذف والتغيير .

اننا إذا عرفنا الايجاز ومراتبه ، وتأملنا ما جاء فى القرآن الحكيم ، عرفنا فضيلته على سائر الكلام ، وعلوه على غيره من أنــواع البيان . فالايجاز تهذيب الكلام بما يحسن به البيان . والايجاز تصفية الألفاظ من الكدر وتخليصها من الدرن . والإيجاز إظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير فسبحان الله العلى القدير .

* * *

٢ – التكرار فى القرآن العظيم

ومن آيات الاعجاز البلاغي للقرآن الكريم : «ظاهرة التكرار»

والتكرار : (١) مصدر كرر إذا ردد وأعاد ، وهو (تفعال) بفتح التاء، وليس بقياس . بخلاف (التفعيل) وهذا مذهب سيبويه البصرى. أما الكوفيون، فقالوا : هو مصدر (فعل) والألف عوض عن الياء فى التفعيل .

وقد أنكر بعض العلماء كون التكرار من أساليب الفصاحة ، وظنوا أنه لا فائدة له وهذا أمر مردود . . فالتكرار من محاسن أساليب الفصاحة العربية . خاصة إذا تعلق بعضه ببعض . وذلك أن عادة العرب فى خطاباتها إذا أبهمت بشيء إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه ؛ أو قصدت الدعاء عليه . . كررته توكيدا .

وإنما نزل القرآن المجيد بلسانهم ، وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم فى عجزهم عن المعارضة .

وعلى ذلك يحتمل كل ما جاء فى القرآن من تكرار المواعظ والوعد والوعيد، لأن – الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة ، وكلها داعية إلى الشهوات ، ولا يقمع ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع . قال الحق تبارك وتعالى :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر » .

قال الزمخشرى : (٢) أى سهلناه للإذكار والاتعاظ بأن نسجناه بالمواعظ الشافية وصرفنا فيه من الوعد والوعيد» . .

---

(١) انظر لسان العرب (كرر) والمعاجم اللغوية الأخرى . وانظر البرهان فى علوم القرآن ٣/٨ .

(٢) الكشاف ٤/٣٤٦ .

والتكرار — في القرآن العظيم — قد يكون بتكرير الجملة مرتين :

كقوله تعالى : (فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر) (١)

(أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى) (٢)

(لترون الجحيم . ثم لترونها عين اليقين) (٣)

(كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون) (٤) .

وقوله تعالى : (وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله (٥) وفائدته العظمى هنا — التقرير ، لذلك قال العلماء : « الكلام إذا تكرر . . تقرر » . وقد يكون بتكرير اللفظ . . وهذه هي حقيقته — أي إعادة اللفظ أو مرادفه ، لتقرير معنى ، خشية تناسي الأول لطول في الكلام . . كما في قوله تعالى :

(ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ، ثم تابوا من بعد ذلك، وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) (٦) .

وفي قوله تعالى : (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ، ثم جاهدوا وصبروا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم) (٧) .

فإن أعيد اللفظ لا لتقرير المعنى الأول . لم يكن من التكرار .

في قوله تعالى : (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ، قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ، قل الله أعبد مخلصاً له ديني . فأعبدوا ما شئتم من دونه) (٨) .

فأعاد قوله (قل الله أعبد مخلصاً له ديني) بعد قوله (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) — لا لتقرير الأول ، بل لغرض آخر .

---

(١) المدثر ١٩ ، ٢٠
(٢) القيامة ٣٤ ، ٣٥
(٣) التكاثر ٦ ، ٧
(٤) النبأ ٤ ، ٥
(٥) آل عمران ٧٨
(٦) النحل ١١٩
(٧) النحل ١١٠
(٨) الزمر ١١ — ١٥

لأن معنى الأول : الأمر بالإخبار أنه مأمور بالعبادة لله والاخـــلاص له فيها .

ومعنى الثاني : أنه يخص الله وحده دون غيره بالعبادة والإخلاص : لذلك قدم المفعول على فعل العبادة فى الثانى ، وأخر فى الأول لأن الكلام أولا فى الفعل وثانيا فيمن فعل لأجله الفعل .

قال البلاغيون : إنما يحسن سؤال الحكمة عن التكرار إذا خرج عن الأصل أما إذا وافق الأصل فلا . . ولهذا السبب لا يتجه سؤالهم ، لم كرر (إياك) فى قوله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين) نقول ، انما كررت لغرض عظيم هو التأكيد .

ونقول أيضا : إنما كررت لارتفاع أن يتوهم — إذا حذفت — أن مفعول (نستعين) ضمير متصل واقع بعد الفعل ، فتفوت إذ ذاك الدلالة على المعنى المقصود ، بتقديم المعمول على عامله . . هكذا قال النحويون .

وقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى بالأسباب التى لأجلها كررت الأقاصيص والأخبار فى الكتاب العـــزيز فقـال : (ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) (١)

وقال سبحانه : (وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقـــون أو يحدث لهم ذكراً) (٢)

وللتكرار — فى القرآن العظيم — فوائد جمة تشهد بروعة البيان الآلهى . . أهمها :

١ — أن التكرار يأتى فى مقام التعظيم والتهويل :

كقوله تعالى : (الحاقة ما الحاقة) (٣) (القارعة ما القارعة) (٤)
(إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدرك ما ليلة القدر) (٥)

(١) القصص ٥١ (٢) طه ١١٣ (٣) الحاقة ١ ، ٢
(٤) القارعة ١ (٥) القدر ١ ، ٢ .

(وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين) (١) .

(فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) (٢)

٢ — أنه قد يأتي في مقام الوعيد والتهديد:

كقوله تعالى : (كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون (٣)
وقد ذكر (ثم) في المكرر ، دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول .
وفي هذا القول أيضاً ، تنبيه على تكرر ذلك مرة بعد أخرى ، وإن تعاقبت عليه الأزمنة . لا يتطرق إليه تغيير ، بل هو مستمر دائماً .

٣ — التعجب :

كقوله تعالى : (فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر) (٤)
فكرر تعجباً من تقديره وإصابته الغرض ، على حد « قاتله الله ما أشجعه »

٤ — زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ، ليكمل تلقي الكلام بالقبول :

كقوله تعالى : « وقال الذي آمن ياقوم أتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع » (٥) فإنه كرر فيه النداء لذلك .

٥ — الأمن من النسيان أو السهو : فالكلام إذا طال وخشي تناسي الأول أعيد ثانية تطرية له ، وتجديداً لعهده . كقوله تعالى :
(ولما جاءهم كتاب من عند الله) . . . ثم قال (فلما جاءهم ما عرفوا) (٦)
فهذا تكرار للأول .

وقوله تعالى : (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون)(٧)
فقوله (أنكم) الثاني بناء على الأول ، إذ كارآ به خشية تناسيه .

---

(١) الواقعة ٢٧ (٢) الواقعة ٨ ، ٩
(٣) التكاثر ٦ ، ٧ (٤) المدثر ١٩ ، ٢٠
(٥) المؤمن ٣٨ ، ٣٩ (٦) البقرة ٨٩ (٧) المؤمنون ٣٥

وكذلك قوله : (إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظـــيم) .. إلى قوله (كذلك نجزى المحسنين) بغير « إنا » ، وفى غيره من مواضع ذكر (إنا كذلك) ، لأنه يبنى على ما سبقه فى هذه القصة « إنا كذلك » فكأنه طرح فيما اكتفى بذكره أولا عن ذكره ثانيا .

ولأن التأكيد بالنسبة ، فاعتبر اللفظ من حيث هو دون توكيده .

٦ — وتظهر روعة إعجاز هذا الباب أكثر ما تظهر عند تعدد المتعلق .

كما كرره الله تعالى فى قوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان » لأنه تعالى — ذكر نعمة بعد نعمة ، وعقب كل نعمة بهذا القول .. فإنها وإن تعددت ، فكل واحد منها متعلق بما قبله ، وان الله تعالى خاطب بها الثقلين من الإنس والجن ، وعدد عليهم نعمة الله التى خلقها لهم ، فكلما ذكر فصلا من فصول النعم طلب إقرارهم واقتضاهم الشكر عليه ، وهى أنواع مختلفة ، وصور شتى . فإن قيل : فإذا كان المعنى فى تكريرها عد النعم واقتضاء الشكر عليها ... فلماذا عقب بهذا القول ما ليس نعمة ، كما فى قوله :

« يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس ، فلا تنتصران » (١)

وقوله : « هذه جهنم التى يكذب بها المجرمـــون ، يطوفون بينها وبين حميم آن » (٢) وأى نعمة هنا ؟ وإنما هو وعيد ..

أجاب القزوينى فقال : العذاب وجهنم — وإن لم يكونا من آلاء الله تعالى — فإن ذكرهما ووضعها عن طريق الزجر عن المعاصى ، والترغيب فى الطاعات ، من آلائه تعالى ، ونحوه قوله : « ويل يومئذ للمكذبين » (٣) : لأنه تعالى ذكر قصصا مختلفة وأتبع كل قصة بهذا القول ، فصار كأنه قال عقب كل قصة : ويل يومئذ للمكذبين بهذه القصة » (٤) .

ونقول أيضاً : إن أنعم الله فيما أنذر به وحذر من عقوباته على معاصيه

---

(١) الرحمن ٣٥ (٢) الرحمن ٤٣ ، ٤٤

(٣) الآيات ١٥ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٢٨ من المرسلات

(٤) الايضاح ص ١٩٨ .

ليحذروها فيرتدعوا عنها نظير أنعمه على ما وعده، وبشر من ثوابه على طاعته، ليرغبوا فيها، ويحرصوا عليها، وإنما تتحقق معرفة الشيء بأن تعتبره بضده، والوعد والوعيد وإن تقابلا فى ذرو ياتهما، فإنهما متقاربان فى موضع النعم بالتوقيف على ملاك الأمر منهما .. وعليه قول الشاعر ..

والحادثات وإن أصابك بؤسها فهو الذى أنباك كيف نعيمها

ومن هذا النوع من التكرار قوله تعالى: «إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (١) — فى ثمانية مواضع، لأجل الوعظ.

فإنه قد يتأثر بالتكرار من لا يتأثر بالمرة الواحدة.

وأما قوله تعالى: «إن فى ذلك لآية» فذلك لظهور الأنبياء عليهم السلام، والعجب من تخلف من لا يتأملها مع ظهورها.

وأما مناسبة قول «العزيز الرحيم» فإنه تعالى نفى الإيمان عن الأكثر، فدل بالمفهوم على إيمان الأقل، فكانت العزة على من لم يؤمن، والرحمة لمن آمن، وهما مرتبتان كترتيب الفريقين (٢).

ومن هذا التكرار أيضا قوله تعالى: «فذوقوا عذابى ونذر» (٣).

قال الزمخشرى: (٤) كرر ليجدوا عند سماع كل نبأ منهما إتعاظاً وتنبيها، وأن كلا من تلك الأنباء مستحق باعتبار يختص به، وأن يتنبهوا كى لايغلبهم السرور والغفلة».

ومنه كذلك — تكرار الأمر بالتوجه إلى بيت الله الحرام فى ثلاث آيات من سورة البقرة، وهو قوله تعالى: «فول وجهك شطر المسجد الحرام» (٥)

لأن المنكرين لتحويل القبلة .. كما ذكر المفسرون — كانوا ثلاثة أصناف من الناس: — اليهود .. لأنهم لا يقولون بالنسخ فى أصل مذهبهم.

---

(١) الشعراء ٨، ٩ (٢) البرهان فى علوم القرآن ٣/١٤.
(٣) القمر ٣٩ (٤) الكشاف ٤/٣٤٩.
(٥) الآيات ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠.

— وأهل النفاق .. وكانوا أشد إنكاراً له ، لأنه كان أول نسخ نزل .

— وكفار قريش .. الذين قالوا : ندم محمد على فراق ديننا ، فيرجع إليه كما رجع إلى قبلتنا . وكانوا قبل ذلك يحتجون عليه ، فيقولون : يزعم محمد أنه يدعونا إلى ملة إبراهيم وإسماعيل ، وقد فارق قبلتهما وآثر عليها قبلة اليهود فقال الحق تبارك وتعالى حين أمره بالصلاة إلى الكعبة :

« لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم » (١)

والاستثناء فى هذه الآية منقطع — أى لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون ولا يهتدون، وقال جل جلاله : « الحق من ربك فلا تكونن من الممترين (٢) أى الذين اشركوا فلا تمتر فى ذلك .

وقال تعالى : « وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » (٣) — أى يكتمون ما علموا أن الكعبة هى قبلة الأنبياء .

— ومن هذا التكرار أيضا — قوله عز وجل فى سورة الصافات ( )

« فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم فسوف يبصرون »

ثم كرر هاتين الآيتين بعد ذلك فى قوله سبحانه : (٥)

« وتول عنهم حتى حين ، وأبصر فسوف يبصرون »

قال المفسرون — فى غريب القرآن : إنما كرر لتأكيد وتشديد الوعيد .

وقالوا أيضا : يحتمل أن يكون « الحين » فى الأوليين (٦) يوم بدر ، والحين فى هاتين (٧) يوم فتح مكة . وفرقوا بينهما فقالوا : ان من فوائد قوله تعالى فى الأوليين « وأبصرهم » وفى هاتين « فأبصر » — أن الأولى بنزول العذاب بهم يوم بدر قتلا وأسراً ، وهزيمة ورعباً . فلما تضمنت التشفى بهم قيل له : « وأبصرهم » وأما يوم الفتح فإنه اقترن بالظهور عليهم الإنعام بتأمينهم

---

(١) البقرة ١٥٠ (٢) البقرة ١٤٧ .

(٣) البقرة ١٤٦ (٤) الآيتان ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٥) الآيتان ١٧٨ / ١٧٩ (٦) أى فى الآيتين ١٧٤، ١٧٥

(٧) أى فى الآيتين ١٧٨ ، ١٧٩ من سورة البقرة .

والهداية إلى أعلامهم ، فلم يكن رفقاً للتشفي بهم ، بل كان في استسلامهم ، وإسلامهم لعينه قرة ولقلبه مسرة . فقيل له . (أبصر) .

ومن هذا التكرار كذلك — قول الحق تبارك وتعالى :

(لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) (١)

قال علماء الفقه : التكرار هنا فائدتان . .

أما الفائدة الأولى : ان التحريم قد يكون في الطرفين ، ولكن يكون المانع من أحدهما كما لو أرتدت الزوجة قبل الدخول ، يحرم النكاح من الطرفين ، والمانع من جهتهما ، فذكر الله سبحانه الثانية ، ليدل على أن التحريم كما هو ثابت في الطرفين ، كذلك المانع منهما .

وأما الفائدة الثانية : أن الأولى دلت على ثبوت التحريم في الماضي ، ولهذا أتى فيها بالاسم الدال على الثبوت ، والثانية في المستقبل ، ولهذا أتى فيها بالفعل المستقبل .

ومن التكرار في القران المجيد أنواع كثيرة . . كلها تشهد بعظمة الحق سبحانه، وتعترف بإعجاز كتابه المبين . أهمها :

١ — تكرار الإضراب : (٢)

وقد ورد في القران العظيم منه ضربان :

أولها : أن يكون ما في الرد راجعا إلى العباد . كقوله تعالى :

(قالوا أضغاث أحلام بل إفتراه ، بل هو شاعر) (٣)

وثانيهما : أن يكون إبطالا ، ولكنه على أنه قد مضى وانقضى وقته ، وأن الذى بعده أولى بالذكر . كقوله تعالى :

(بل إدارك علمهم في الآخرة . . بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب) (٤)

---

(١) الممتحنة ١٠

(٢) قال البلاغيون : ان « بل » إذا ذكرت بعد كلام موجب فمعناها الإضراب، وهو إذا وقع في كلام البشر فمعناه إبطال ماسبق على طريق الغلط من المتكلم، أو أن الثاني أولى.

(٣) الأنبياء ٢١ (٤) سورة ص ٨

وزعم ابن مالك فى شرح الكافية — أن « بل » حيث وقعت فى القرآن فإنها للاستئناف لغرض أخر — لا لإبطال الأول . وهذا الكلام مردود بما سبق ، ومردود بقوله أيضا : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون »(١) .

فأضرب بها عن قولهم ، وأبطل كذبهم .

٢ — تكرار الأمثال :

كقوله تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات » (٢) .

وكذلك ضرب مثل المنافقين — فى أول سورة البقرة (٣) — ثناه الله تعالى ، فقال سبحانه : « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » — مع قوله : « كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى أذانهم من الصواعق حذر الموت » .

قال صاحب الكشاف (٤) — معلقاً على قيمة هذا التكرار : « والثانى أبلغ من الأول ، لأنه أدل على فرط الحيرة ، وشدة الأمر وفظاعته ، لذلك أخر ، والعرب — يتدرجون فى نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ » .

٣ — تكرار القصص :

وما دمنا نتحدث عن التكرار فى القرآن الكـــريم — بوصفه أية من أيات إعجازه الكبرى ، فإننا لا نستطيع أن نغفل عنصرا هاما من عناصر هذا التكرار ألا وهو تكرار القصص القرآنى ، وإن كنا نعتقد أنه موضوع كامل متكامل ، يحتاج إلى بحث مستقل — وسنتناوله إن شـــاء الله — إلا أننا نشير الآن إلى بعض ما يتصل به استيفاء لهذا البحث .

أقول . . أن من أنواع التكرار — تكرار القصص ، كقصة إبليس فى السجود لآدم ، وقصة موسى وغيره من الأنبياء . فقد ذكر الله موسى فى مائة وعشرين

(١) الأنبياء ٢٦
(٢) فاطر ١٩ — ٢٢
(٣) الآيتان ١٧ ، ١٩
(٤) الزمخشرى ١/ ٦١ .

موضعا من القرآن العظيم، وذكر قصة نوح فى خمس وعشرين آية، وقصة موسى فى سبعين آية، وإنما كررها ـ كما يقـول صاحب كتاب «العواصم من القواصم» (١) لفائدة خلت عنه فى الآخر. وسبب ذلك أمور:

أحداها: أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئا، ألا ترى أنه ذكر الحية فى عصا موسى عليه السلام، وذكرها فى موضع آخر ثعبانا. فقال تعالى: «فألقاها فإذا هى حية تسعى» (٢) وقال سبحانه: «فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين» (٣)

وهذه سمة من سمات البلغاء.. أن يكرر أحدهم فى خطبته أو قصيدته كلمة لصفة زائدة.

الثانية: أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن، ثم يعود إلى أهله، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين، وكان أكثر من آمن به مهاجريا، فلولا تكرر القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى آخرين، وكذلك سائر القصص، فأراد الحق سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها فيكون فيه إفادة القوم، وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين وهم الحاضرون.. هكذا قال ابن الجوزى.

الثالثة: تسليته لقلب النبى — صلى الله عليه وسلم ـ مما اتفق للأنبياء مثله مع أممهم ـ قال تعالى: «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» (٤)

الرابعة: أن إبراز الكلام الواحد فى فنون كثيرة، وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة.

الخامسة: قالها ابن فارس (٥) ـ وهى أن الله تعالى أنزل هذا القرآن، وعجز القوم عن الاتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم بين وأوضح الأمر فى عجزهم، بأن كرر ذكر القصة فى مواضع، إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله، بأى نظم جاءوا، بأى عبارة عبروا.

---

(١) الامام ابو بكر ابن العربى نقلا عن البرهان فى علوم القرآن ٣/٢٥.

(٢) طه ٢٠ (٣) الاعراف ١٠٧.

(٤) هود ١٢٠ (٥) فقه اللغة ص ١٧٨.

السادسة : أنه لما سخر العرب بالقرآن قال : « فأتوا بسورة من مثله » (١)

وقال فى موضع آخر : « فأتوا بعشر ســـور » ، فلو ذكر قصة آدم مثلا فى موضع واحد ، واكتفى بها ، لقال العربى بما قال الله تعالى : « فأتوا بسورة من مثله » : « إيتونا أنتم بسورة من مثله » فأنزلها الله تعالى فى تعداد السور ، دفعاً لحجتهم من كل وجه .

السابعة : أن القصة الواحدة من هذه القصص ، كقصة موسى مع فرعون . وان ظن أنها لا تغاير الأخرى ، فقد يوجد فى ألفاظها زيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير ، وتلك حال المعانى الواقعة بحسب تلك الألفاظ ، فإن كل واحدة لابد وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد فيه ، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها فكأن الله تعالى فرق ذكر ما دار بينهما وجعله أجزاء ، ثم قسم تلك الأجزاء على تارات التكرار لتوجد متفرقة فيها ، ولو جمعت تلك القصص فى موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة ، من انفراد كل قصة منها بموضع ، كما وقع فى القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصة .

وخلاصة القول : لقد اجتمعت فى هذه الخصيصة من نظم القرآن عدة معان عجيبة :

منها : أن التـــكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع فى اللفظ هجنة ، ولا أحدث مللا فباين بذلك كلام المخلوقين .

ومنها : أنه ألبسها زيادة ونقصانا ، وتقديما وتأخيرا ، ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها ، فيكون شيئا معادا ، فنزهه الحق سبحانه عن ذلك بهذه التغييرات .

ومنها : أن المعانى التى اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص ، صارت متفرقة فى تارات التكرير ، فيجد المرء — لما فيها من التغيير — ميلا إلى سماعها ، لما جبلت عليه النفوس من حب التنقل فى الأشياء المتجددة

---

(١) ٢٣ : : :

التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة .

ومنها : ظهور الأمر العجيب في إخراج صور متباينة في النظم بمعنى واحد.

وقد كان المشركون — في عصر النبي صلى الله عليه وسلم - يعجبون من اتساع الأمر في تكرار هذه القصص والانباء ، مع تغاير أنواع النظم ، وبيان وجوه التأليف ، فعرفهم الله سبحانه أن الأمر مما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية ، ولا يقع على كلامه عدد ، لقوله تعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا »(١)

وهنا يكون القرآن قد وصل إلى غايته وهدفه من التكرار .

وهنا يبرز سر إعجازه ومبلغ عمقه في تقرير المسائل وتكرارها ..

• • •

٣ ـ التجانس فى القرآن العظيم

ومن أبلغ وجوه الإعجاز البلاغى التى اشتمل عليها القرآن الكريم ، ما ذكره البلاغيون تحت باب « التجانس » وهم يقصدون بالتجانس البلاغى ، بيان أنواع الكلام الذى يجمعه أصل واحد فى اللغة .

والجناس والتجنيس والمجانسة والتجانس . كلها ألفاظ مشتقة من الجنس . حده فى الاصطلاح تشابه الكلمتين فى اللفظ . واختلافهما فى المعنى (١) .

وفائدته وإن لم يذكرها البلاغيون إلا أننى أقول .. أنه يميل بالسامع إلى الإصغاء ، فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلا وإصغاء إليها . ولأن اللفظ المذكور إذا حمل على معنى ، ثم جاء والمراد به معنى آخر كان للنفس تشوق إليه .

ويظهر التجانس ـ فى القرآن على وجهين :

ـ جناس المزاوجة .

ـ وجناس المناسبة .

أما المزاوجة .. فهى التى تقع فى الجزاء ـ وقد جاء هذا اللون البيانى فى مثل قوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) (٢) لأن السيئة الثانية ليست سيئة ، وإنما هى مجازاة عن السيئة ، سميت باسمها لقصد المزاوجة .

ومثله قوله تعالى : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (٣) أى تجاوزه بما يستحق على طريق العدل . إلا أنه استعير للثانى لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة فى المقدار . فجاء على مزاوجة الكلام لحسن البيان وقد سمى سبحانه الاعتداء (اعتداء) ليكون فى نظم الكلام مزاوجة . واشترط المثلية فى الاعتداء جرياً على قانون العدل . وأمراً بالإنصاف .

---

(١) انظر البرهان فى علوم القرآن ١/٣٩٩ .

(٢) شورى آية ٤٠ . (٣) البقرة ١٩٤ .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « مستهزئون الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » (١) أى يجازيهم على استهزائهم .

ومن هذا اللون البيانى قوله تعالى : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » (٢) أى جازاهم الله على مكرهم فاستعير للجزاء على المكر اسم المكر . لتحقيق الدلالة على أن وبال المكر راجع عليهم ويختص بهم .

ومنه أيضا قوله تعالى : « يخادعون الله وهو خادعهم » أى يجازيهم على خديعتهم . ووبال الخديعة راجع عليهم .

والعرب تقول : « الجزاء بالجزاء ، والأول ليس بجزاء ، وإنما هو على مزاوجة الكلام .

قال عمرو بن كلثوم فى معلقته المشهورة :

ألا لا يجهلن أحد علينا

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فهو لم يمتدح بأنه جاهل . وإنما قصد المكافأة والشرف فى قوله : (فوق جهل الجاهلينا) فهذا القول - عندهم - حسن فى البلاغة ، ولكنه بالطبع دون بلاغة القرآن . لأنه لا يؤذن بالعدل كما آذنت بلاغة القرآن . وإنما فيه الإيذان براجع الوبال فقط .

أما الوجه الثانى من التجانس : الذى جاء فى القرآن دلالة على إعجازه البلاغى فهو المناسبة .

وتدور المناسبة فى فنون المعانى التى ترجع إلى أصل واحد ..

فمن ذلك قوله تعالى: « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم »(٤) جونس بالانصراف عن الذكر - صرف القلوب عن الخير ، والأصل فيه واحد ، وهو الذهاب عن الشىء أما هم فذهبوا عن الذكر ، وأما قلوبهم فذهب عنها الخير .

---

(١) البقرة ١٥ (٢) آل عمران ٥٤ .
(٣) النساء ١٤٢ (٤) التوبة ١٢٧

ومن هذا اللون أيضا — قوله تعالى : « يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار» (١) . فجونس بالقلوب التقلب — والأصل واحد ، فالقلوب تتقلب بالخواطر ، والأبصار تتقلب في المناظر ، والأصل التصرف ، ومنه أيضاً قوله تبارك وتعالى : « يمحق الله الربا ويربي الصدقات» (٢) فجونس بإرباء الصدقة : ربا الجاهلية ، والأصل واحد وهو الزيادة ، إلا أنه جعل بدل تلك الزيادة المذمومة .. زيادة محمودة .

وفروع التجنيس كلها منقسمة إلى قسمين :

١ — تجنيس تغاير .

٢ — تجنيس تماثل .

فالتغاير .. أن تكون إحدى كلمتي التجنيس إسماً ، والأخرى فعلا .

كقوله تعالى : (إثا قلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) (٣).

حيث جانس بين الأرض — و — أرضيتم . . وهما من أصلين متغايرين .

أما تجنيس التماثل : فهو أن تكون الكلمتان إسمين أو فعلين أو فعـــلا وحرفا وهو على ضربين :

— ضرب تتماثل فيه الكلمتان لفظا وخطا ..

— وضرب لا يتماثلان إلا من جهة الاشتقاق فحسب .

فمثال الضرب الذي تتماثل فيه الكلمتان لفظا وخطا ، قوله تعالى : «فروح وريحان» (٤) ..

وقوله تعالى : « وجنى الجنتين دان» (٥) .

ومثال الفرع الثاني قوله تعالى :

« وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (٦)

---

(١) النور ٣٨ — (٢) البقرة ٢٧٦
(٣) التوبة ٣٨ — (٤) الواقعة ٨٩
(٥) الرحمن ٥٤ — (٦) الكهف ١٠٤

وهذا الفرع يسمى تجنيس التصحيف ـ أى أن يكون النقط فيه فارقاً بين الكلمتين .

أن كل ما سقناه من أصول التجنيس وفروعه أمثلة للقسم اللفظى من التجنيس وهناك قسم آخر من الجناس لا يتصل باللفظ ولكن يتصل بالمعنى .. يسميه البلاغيون الجناس المعنوى ، وقد جاء مثل هذا الجناس فى قوله تعالى :

« قل يا أيها الكافرون » مع قوله « ولا أنتم عابدون ما أعبد » (١) .

فإن التقدير — يا أيها المكذبون أنتم المكذبون .

وصدق الله العظيم إذ يقول : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

* * *

٤ – ائتلاف اللفظ مع المعنى فى القرآن الكريم

ومن أروع آيات الإعجاز البلاغى التى حفل بها الذكر الحكيم .. العلاقة الوطيدة، والترابط الوثيق الصلة بين ألفاظ القرآن ومعانيه ، أو قل : الائتلاف بين الألفاظ (١) ومعانيها ومدلولاتها ، أو كما يقول البلاغيون : العـــلاقة بين الشكل والمضمون أو المظهر والجوهر .

وهنا قد يتبادر إلى الذهن سؤال : ما المقصود بائتلاف اللفظ مع المعنى ؟

فأجيب .. أن المقصود بهذا – أن تكون ألفاظ المعنى المراد يلائم بعضها بعضا ، ليس فيها لفظة نافرة عن أخواتها ، غير لائقة بمكانها ، كلها موصوف بحسن الجوار ، بحيث إذا كان المعنى غريبا قحا ، كانت ألفاظه غريبة محضة . وإذا كان المعنى مولداً كانت الألفاظ مولدة ، وإذا كان المعنى متوسطا كانت الألفاظ كذلك ، وإذا كان غريباً كانت الألفاظ غريبة ، وإذا كان متداولا كانت الألفاظ معروفة مستعملة ، وإذا كان متوسطا بين الغرابة والاستعمال كانت ألفاظه كذلك .

لقد راعى القرآن العظيم هذا الموضوع مراعاة تامة ، وتوخى أن تكون ألفاظه قوالب لمعانيه فجاء هذا الائتلاف شاهد صدق على عظمة الخالق البـــارىء سبحانه وظهر القرآن العظيم معجزة المعجزات لرسوله الكريم صـــلى الله عليه وسلم ..

فلنتأمل قول الحق سبحانه : « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون

---

(١) انظر فى هذا الموضوع بديع القرآن ص ٧٧ ، نقد الشعر ٥٥ ، الطراز ٣/١٤٤ خزانة ابن حجة ٤٣٨ .

حرضا »(١) . فإنه جلت قدرته لما آتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها ، فإن التاء أقل استعمالا وأبعد عن أفهام العامة ، والباء ، والواو ، أعرف عند الكافة ، وهى أكثر دورانا على الألسنة واستعمالا فى الكلام .. لما أتى الحق سبحانه بأغرب ألفاظ القسم أتى أيضاً بأغرب صيغ الأفعال التى ترفع الأسماء وتنصب الأخبار بالنسبة إلى أخواتها فإن « كان وما قاربها ، أعرف عند الكافة « تفتأ » ، والناس لـ « كان » و « أصبح » و « صار » وما قاربها أكثر استعمالا منها .

وكذلك لفظ « حرضا » أغرب من جميع أخواتها من ألفاظ الهلاك فاقتضى حسن الوضع فى النظم أن يجاور كل لفظة بلفظة من جنسها فى الغرابة والاستعمال توخيا لحسن الجوار ، ورغبة فى ائتلاف المعانى بالألفاظ . ولتتعادل الألفاظ فى الوضع وتتناسب فى النظم .

ألا ترى — أن الحق تبارك وتعالى — قال فى غير هذا المكان « وأقسموا بالله جهد أيمانهم »(٢) لما كانت جميع ألفاظ هذا الكلام المجاورة لهذا القسم كلها مستعملة متداولة ، لم تأت فيها لفظة غريبة تفتقر إلى مجاورة ما يشاكلها فى الغرابة ويلائمها .

وتأمل قول الحق جلت قدرته « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار »(٣) .

فهنا تتضح روعة هذا البيان الالهى .. وائتلاف لفظه مع معناه . فلما كان الركون إلى الظالم دون فعل الظالم ، وجب أن يكون العقاب عليه دون عقاب الظالم ومس النار فى الحقيقة دون الإحراق ، ولما كان الإحراق عقابا للظالم ، أوجب العدل أن يكون المس عقاب الراكن إلى الظالم . قال العلماء : فلهذا عدل

(١) يوسف ٨٩ (٢) فاطر ٤٢

(٣) هود ١١٣

الحق عز وجل عن قوله : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا » . . . . . فتدخلوا النار لكون الدخول مظنة الاحراق، وخص المس ليشير به إلى ما يقتضى الركون من العقاب ، ويميز بين ما يستحق الظالم وبين ما بين ما يستحق الراكن له من العقاب ، وإن كان مس النار قد يطلق ويراد به الاحراق، لكن هذا الاطلاق مجاز والحقيقة ذكرناه ، لأن حقيقة المس أول ملاقاة الجسم حرارة النار ، وإذا احتمل اللفظ احتمالات صرف منها إلى ما تدل عليه القرائن .

وإذا كان الائتلاف فى الآية الأولى لفظياً ∴ فإن الائتلاف فى هذه الآية معنوى .

ويدخل فى نطاق هذا الموضوع الكلى — موضوع ائتلاف اللفظ مع المعنى — عناصر أخرى جزئية . . أولها المساواة ، وثانيها الاشارة ، وثالثها الإرداف ، ورابعها التمثيل .

أما المساواة (١) . . فالمقصود بها : أن يكون اللفظ مساويا للمعنى ، لا يزيد عليه ولا ينقص منه ، وهو من أعظم آيات الاعجاز القرآنى ، وأعظم أبواب البلاغة ، بل هو — بعينه عين البلاغة ، وقديما قالوا عن أحد البلغاء . كانت « ألفاظه قوالب لمعانيه » ، ومن هذا قول ذى الرمة :

لها بشر مثل الحرير ومنطق رخيم الحواشى لا هراء ولا نزر

وقول ذى الرمة هذا — من قول هند بن أبى هالة — فى وصف كلام رسول الله — صلى الله عليه وسلم . « لا نزر ولا هذر ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرون » (٢)

ومعظم آيات القرآن العظيم موصوفة بذلك ، ولم يأت منها ما هو خارج عن هذا الباب إلا ما وقع فيه تذييل أو تتميم ، أو تكميل ، أو فى فواصله إيغال ، أو فى معناه بسط وإطناب ، وما بنى نظمه على الايجاز موضع الاعجاز ، من مثل قوله تعالى :

---

(١) الإيضاح ٣/٢٠٠ ، الصناعتين ١٧٩ ، البيان والتبيين ١/٩٩
(٢) أى ليس بقليل مبدل عن عى ولا بكثير فاسد .

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (١) . فإن المعنى المراد من هـــذه الآية أن الله سبحانه أراد أن يأمر بجميع المحاسن المنجيات الممدوحات ، وينهى عن جميع القبائح الموبقات ، فأخرج المعنى فى لفظ هو طبقه ، وقالب هو قدره ، وصورة مساوية لمعناه ، لا تزيد ولا تنقص عن فحواه ، ومصداق ذلك — أن أى لفظة حذفتها من ألفاظ الآية ختل شىء من المعنى بحذفها اختلالا ظاهراً ونقص نقصاً بينا ، وكذا إذا زيد فى ألفاظها لفظة حصل من الاختلال بالزيادة ما حصل منها عند النقص .

وتأمـــل قول الحق سبحانه « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين »(٢)

فإنه سبحانه وتعالى أراد اقتصاص هذه القصة بأوجز لفظ وأبلغه ، فجاء بها كما ترى مرتبة الألفاظ والجمل على حسب ما وقع ، فى صور لا تفصل عن معانيها ولا تقصر عنها . فإن قيل : لفظه « القوم » زائدة تمنع الآية من أن توصف بالمساواة لأنها إذا طرحت استقل الكلام بدونها ، بحيث يقال : « وقيل بعداً للظالمين » .

قال أهل البيان : لا يستغنى الكلام عنها ، لأنه لما قال سبحانه فى أول القصة : « وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » وقال بعد ذلك « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون »(٣) جاءت لفظة « القوم » فى آخر القصة . ووصفهم بالظلم ليرتد عجز الكلام على صدره ، ويعلم أن القوم الذين هلكوا بالطوفان هم الذين كانوا يسخرون من نوح عليه السلام . فهم مستحقون العقاب لئلا يتوهم ضعيف أن الطوفان لعمومه ربما أهلك من لا يستحق الهلاك ، فأخبر المولى عز وجل ، أن الهالكين هم الذين تقدم ذكرهم ، وما كانوا يفعلونه مع نبيه من السخرية التى استحقوا بها الهلاك ، فأخبر المولى عز وجل ، أن الهالكين هم الذين تقدم .

---

(١) النحل ٩٠ (٢) هود ٤٤

ذكرهم ، وما كانوا يفعلونه مع نبيه من السخرية التي استحقوا بها الهلاك ، وأنهم الذين وصفهم بالظلم ، ووعد نبيه بإغراقهم ، ونهاه عن مخاطبته فيهم ، ليرفع ذلك الاحتمال فيعلم أن الله سبحانه قد أنجز نبيه وعده ، وأهلك القوم الظالمين الذين قدم ذكرهم ووصفهم ، ووعد بإغراقهم .

ومن العناصر الهامة التي تتصل بموضوع « ائتلاف اللفظ مع المعنى » في القرآن العظيم ، ما ذكره البلاغيون تحت باب « الإشارة » (١) . والمقصود بالاشارة : أن يكون اللفظ القليل دالا على المعنى الكثير ، حتى تكون دلالة اللفظ كالاشارة باليد ، فإنها تشير بحركة واحدة إلى أشياء كثيرة ، لو عبر عنها بأسمائها احتاجت إلى عبارة طويلة وألفاظ كثيرة .

وقعا يتساءل البعض . . . أليس هذا إيجازا؟

فأقول : فرق كبير كبير بين الاشارة والايجاز .

ذلك أن الايجاز يكون بألفاظ المعنى الموضوعة له ، أما الإشارة فتكون ألفاظها لمحة دالة . لذلك فدلالة اللفظ في الإيجاز دلالة مطابقة ، ودلالة اللفظ في الاشارة دلالة تضمن أو دلالة إلتزام . ومن أمثلة الإشارة في القرآن المجيد ...قوله تعالى :

« وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » (٢) .

فألمح يا أخي — كل ما تميل إليه النفس من الطيبات التي لا تنحصر ، وتلذه الأعين من المرئيات التي لا تنضبط ، لتعلم أن هذا اللفظ القليل جدا ، قد دل على معان لا تنحصر عدا .

وكذلك قوله عز وجل : « فانبذ إليهم على سواء » (٣) — أي قاتلهم بنقض العهد كما نبذوا عهدك ، مع ما يدل عليه الأمر بالمساواة في الفعل من العدل .

---

(١) انظر نقد الشعر ص ٧٠ والصناعتين ٢٤٨ ، نهاية الأرب ٧/ ١٤٠

(٢) الزخرف ٧١

(٣) الأنفال ٥٨

ومنها قوله تعالى : « وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر »(١) فانظر إلى ما أشارت إليه لفظة الأمر ،من ابتداء نبوة موسى عليه السلام، وخطاب الحق له ، وإعطائه الآيات البينات من إلقاء العصا لتصير ثعبا ، وإخراج يده بيضاء ، وإرساله إلى فرعون ، وسؤاله شد عضده بأخيه هارون ، إلى جميع ماجرى فى ذلك المقام . وأمثال هذه المواضع إذ تتبعت خرجت عن حد الحصر فى القرآن العظيم .

وثالث عشر من العناصر التى تتصل بموضوعنا ـ ماجاء على صورة «الإرداف» ويسميه علماء البيان « التتبيع » وهو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له . ولا بلفظ الإشارة الدال على المعانى الكثيرة ، بل بلفظ هو ردف المعنى الخاص وتابعه ، قريب من لفظ المعنى الخاص قرب الرديف من الردف .

من مثل قول الحق تبارك وتعالى « وقضى الأمر » (٢) . فحقيقة ذلك — وهلك من قضى الله هلاكه ، ونجا من قضى نجاته ، وإنما عدل عن هذه الحقيقة إلى لفظ الارداف من الايجاز ، والتنبيه على أن هلاك الهالك ، ونجاة الناجى كان بأمر آمر مطاع ، وقضاء من لا يرد قضاؤه والأمر يستلزم آمرا ، وقضاؤه يدل على قدرة الآمر به ، وطاعة المأمور تدل على قدرة الآمر وقهره ، وأن الخوف من عذابه ورجاء ثوابه يحضان على طاعة الآمر ، ولا يصل ذلك كله من اللفظ الخـاص .

ولنتأمل قول الحق سبحانه (فيهن قاصرات الطرف) (٣)

فالمعنى . . . فيهن عفيفات قد قصرت عفتهن طرفهن على بعولتهم . وعدل عن اللفظ الخاص إلى لفظ الإرداف ، لأن كل من عف غض الطرف عن الطموح ، فقد يمتد بصر الإنسان على شىء وتشتهيه نفسه ، ويعف عنه مع القدرة عليه لأمر آخر ، وقصر طرف المرأة على بعلها ، أو قصر طرفها حياء وخفرا أمر زائد على

(١) القصص ٤٤ (٢) هود ٤٤٩

(٣) الرحمن ٥٦ (٤) هود ٤٤

العفة لأن من لايطمح طرفها لغير بعلها . أو لايطمح حياء وخفرا . فإنها ضرورة تكون عفيفة ، فكل قاصرة الطرف عفيفة ، وليست كل عفيفة قاصرة الطرف فلذلك عدل عن اللفظ الخاص إلى لفظ الارداف .

أما التمثيل . وهو رابع العناصر التى تندرج تحت موضوع . إئتلاف اللفظ مع المعنى ، فهو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الخاص ولا بلفظى الاشارة ولا الإرداف ، بل بلفظ هو أبعد من لفظ الارداف قليلا ، يصلح أن يكون مثلا للفظ الخاص ، لأن المثل لا يشبه المثيل تماما — من جميع الوجوه ، ولو تماثل المثلان من كل الوجوه لإتحدا ، وعلى هذا لا يكون قرب التمثيل من الحقيقة كقرب الارداف ، لما بين لفظى الارداف والحقيقة من القرب لمماسة الرديف الردف بخلاف المثل من المثل .

وشاهد التمثيل فى القرآن المجيد قوله تعالى « واستوت على الجودى »(١) .

فإن حقيقة ذلك ، وجلست على هذا المكان . فعدل عن الحقيقة إلى التمثيل لما فى الاستواء من الإشعار بجلوس متمكن لا زيغ فيه ولا ميل ، ولا حركة معه ولا اضطراب، فإن بهذا الجلوس تسكن قلوب أهل السفينة لسكونها ، ولا تسكن إلا بهذا الجلوس المنعوت بالاستواء ، فيحصل تمـــام الأمن ، وكمال الطمأنينة ، ولا يحصل ذلك من قولنا (جلست) ولا ما يدل على معناه فقط ، فلذلك ساغ العدول عن لفظ الحقيقة إلى لفظ التمثيل .

ومن أروع آيات الاعجاز البلاغى للقرآن العظيم — نوع من التمثيل يذكر فيه الشىء ليكون مثالا للمعنى المراد ، وإن كان معناه ولفظه غير المعنى المراد ولفظه .

تأمل قول الحق سبحانه « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة »(٢) فإن ألفاظ هذه الآية ومعناها مثال مجازى أتى به لتبين به حقيقة معنى

---

(١) هود ٤٤ (٢) البقرة ٧

مراد ، لأنه لما كان هؤلاء المخبرعنهم بذلك لاينتفعون بما يسمعون من الزواجر ولا يرتدعون بما يشاهدون من الآيات كان امتناعهم من ذلك بختم وغشاوة حالا بينهم وبين ما يسمعون وما يبصرون وما يعتقدون إذ لو لم يحل بينهم وبين الانتفاع بهذه الجوارح لسمعوا وأبصروا وعقلوا .

ومن هذا الباب ما يخرجه المتكلم مخرج المثل السائر يتمثل به فى الوقائع كقوله تعالى :

« ليس لها من دون الله كاشفة »(١) وقوله عز وجل : « صنع الله الذى أتقن كل شىء »(٢) وقوله سبحانه « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها »(٣)

إلى كثير من هذه الآى .

وهكذا كل لفظة فى القرآن العظيم لها دلالة ، وكل دلالة تشير إلى معنى مقصود محدد مقرر ، حدده رب العزة ، فجاءت ألفاظ القرآن مؤتلفة مع معانيها المقصودة ، البعيدة والقريبة ، المجازية والحقيقية ، وذلك كله من دلائل الاعجاز .

* * *

---

(١) النجم ٥٨ (٣) النمل ١٨٨

(٤) الإسراء ٧

٥ - التكميل والتتميم فى القرآن الحكيم

ومن أبلغ آيات الإعجاز القرآنى التى أودعها الله كتابه المكنون ، فجمعته فى أعجز أسلوب ، آية بديعية معنوية ، ووجه بلاغى عظيم .. أقصد ما جاء فى القرآن الكريم على وجه التكميل تارة ، ووجه التتميم تارة أخرى (١) .

وقد يقال : أليس التتميم هو التكميل ؟

فأقول : هناك فرق كبير بينهما من حيث المعنى ، ومن حيث المضمون ، ومن حيث الغرض والمقصود .

فالتتميم : كما سماه قدامة بن جعفر ، أو التمام - كما سماه الحاتمى ..

« هو أن تأتى فى الكلام كلمة إذا طرحت من الكلام نقص معناه فى ذاته ، أو فى صفاته ، ولفظه تام. وإن كان فى الموزون نقص وزنه مع نقص معناه ، فيكون الإتيان بها لتتميم الوزن والمعنى معاً . فإن تممت الوزن فقط فتلك من الحشو المعيب » .

أما التكميل : « فهو أن يمدح انسان إنسانا بصفة واحدة من صفات المدح ، ويرى أن الاقتصار به على تلك الصفة فقط من المدح الذى لم يكمل ، فيرى تكميله بإضافة صفة أخرى إلى تلك الصفة ، كمن يمدح الإنسان بمجرد الشجاعة دون النظر فى العواقب ، والتثبت أو العفو دون الانتقام ، أو اللين فى السلم دون الخشونة فى الحرب ، بشرط أن يكون ذلك فى بيت واحد أو فصل واحد ، أو آية واحدة .. فمن أمثلة التتميم - فى الذكر الحكيم - قول الحق سبحانه : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » (٢) فقوله : « من ذكر أو أنثى » تتميم وقوله عز وجل « وهو مؤمن » تتميم ثان ، وبهذين

---

(١) انظر فى هذا الباب : سر الفصاحة ٢٠٨ ، الإيضاح ٣/٢٣٤ ، بديع القرآن ١٤٣ نهاية الأرب ٧/١٥٣ .

(٢) النحل ٩٧ .

التتميمين تم معنى الكلام، وجرى على الصحة، وإلا فهو بدونهما ناقص.

وقد غلط أكثر البلاغيين فى هذا الموضع، ولم يفرقوا بين التتميم والتكميل، بل انهم خلطوا بينهما، وسبب هذا الغلط والخلط، أن التكميل على ضربين:

— ضرب فى معانى البديع. وهو الذى أوهم البلاغيين وألبس عليهم بالتتميم.

— وضرب فى فنون الكلام. التى هى أغراض المتكلم وارادته، وهو ما عرفناه آنفاً.

وجاء التكميل فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة كلها تشهد بعظمة الحق سبحانه، وجمال أسلوبه، وكمال بيانه، من مثل قوله عز وجل. «فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين» (١).

فإن الحق — سبحانه وتعالى — لما أخبر بحبهم أوجبت البلاغة أن يذكر الدليل على ذلك لئلا تكون دعوى بغير بينه، فقال يصفهم بالذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين، وفى هذا الوصف غاية التواضع لله تعالى، وغاية الانتقام لله عز وجل. وهذا دليل حبهم لله، وحبهم لله تعالى أوجب حب الله سبحانه لهم ولو وقع الإقتصار على وصفهم بالتواضع له لكان أقـوى سبب فى حبهم لله. لانهم إنما تواضعوا لله، وكان المدح به تماما.

لكن لما كان وصفهم بالعزة على الكافرين موجب للمدح كمالا بعد تمامه، وللفظ بديعاً. لم يكن له بغيره، لحصول المقابلة فيه، كمل المدح بقوله سبحانه «أعزة على الكافرين» (٢).

ومن أبدع وأنصع ما جاء فى الذكر الحكيم على وجه التكميل، قول الحق تبارك وتعالى فى سورة الانعام: «فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين» (٣) فإن المعنى قد تم عند قوله «ذو رحمة واسعة» لكن يبقى على ظاهر الآية إشكال من جهة أن الجاهل إذا سمع قول الله بعد حكاية

---

(١) المائدة ٥٤ (٢) الفتح ٢٩.

(٣) الانعام ١٤٧.

التكذيب لنبيه ، يتوهم أن رحمة الله بسعتها ربما شملت من كذب نبيه ، فاحترس عن هذا الاحتمال بما جاء مكملا للمدح بالإنتقام من الأعداء ، كما يمدح بالرحمة للأولياء ، فقال سبحانه « ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » . ولما حصل الوعيد للمكذبين بعد تقديم الوعد للمصدقين، فإن البلاغة توجب أن تكون الرحمة الموصوفة بالسعة للمحسنين ، ليقابل ذلك قوله : « ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » .

ويشهد لكون الرحمة — وان وصفت بالسعة لا تسع الا المحسنين قوله تعالى :

« ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل » (١) .

ومن عجيب ما جاء في القرآن الحكيم على وجه التكميل . قول الحق سبحانه:
« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله » (٢) .

فإن التكميل أتى في هذه الآية بعد صحه التقسيم . لأن الكذب هنا — كما توضحه الآية . على قسمين : كذب مطلق ، وكذب مقيد . فالمطلق قوله تعالى : « ومن أظلم ممن أفترى على الله كذبا » .

والمقيد قوله تعالى : « أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء » . .
ثم إن الكذب المقيد أيضا على قسمين في هذه الآية :
— قسم كذب الكاذب فيه على الله سبحانه .
— وقسم كذب الكاذب فيه على نفسه .

فالذى كذب الكاذب فيه على الله : « أوحي إلى ولم يوح إليه شيء » والذى كذب الكاذب فيه على نفسه : « سأنزل مثل مثل أنزل الله »

ولو وقع الإقتصار على قوله « أو قال أوحي إلى ولم يوح إليه شيء » لكان المعنى المراد تاماً . لكنه علم سبحانه أنه بعد التمام يحسن أن يكمل فقال :

---

(١) الأعراف ١٥٦ (٢) الأنعام ٩٣ .

« أو قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، فتكمل المعنى بذلك بعد تمامه .

هذا هو التكميل .. تكميل المعنى وتوضيحه بإضافة صفة أخرى أو صفات إلى الصفة الأصلية.

أما التتميم(١) — فكما ذكرنا — أن تأتى فى الكلام كلمة إذا طرحت من الكلام نقص معناه فى ذاته ، أو فى صفاته ، أى يكون المعنى ناقصا فيتم بها ..

وقد جاء التتميم — فى القرآن العظيم - آية من آيات الإعجاز المعنوى والبلاغى التى لا تنحصر فنونه ، ولا تفنى مواده .

فلنتأمل معاً قول الحق تبارك وتعالى فى سورة البقرة (٢) .

« أيود أحدكم أن يكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت» فقد جاء فى هذه الآية ثمانية مواضع فى كل موضـــع منها تتميم ، كما أنها أتت على جميع أقسام التتميم الثلاثة : من تتميم النقص ، وتتميم الاحتياط ، وتتميم المبالغة.

فأولها .. فى قوله تعالى - فى تفسير الجنة « من نخيل وأعناب » لاحتمال أن تكون جنة ذات أثل وخمط (٣) فإن لفظ الجنة يصدق على كل شجر مجتمع يستر بظل غصونه الأرض كائنا ما كان . ومن الشجر ماله نفع عظيم عميم ، كالنخيل والأعناب ، وماله نفع قليل كالأثل والخمط ، ومع هذا فلو احترقت لإنسان جنة من أثل وخمط لاشتد أسفه عليها . فكيف إذا كانت من نخيل وأعناب ؟

ثم علم سبحانه أن الجنة وإن كانت من نخيل وأعناب ، ما لم تجر الأنهار من تحتها لم يثمر شجرها . ولم ينتفع بسكنها ، ولم تكن لها حياة البتة ، فتمم هذا النقص بقوله تعالى : « تجرى من تحتها الأنهار » .

---

(١) الإيضاح ٣/٢٣٩ ، بديـــع القرآن ٤٥ ، سر الفصاحة « كمال المعنى » ٤٥٥ ، العمدة ٢/٢٣٩ نهاية الأرب ٧/١٣٧ ، الطراز ٣/١٠٤ .

(٢) البقرة ٢٦٦ .

(٣) الأثل نوع من الشجر « تاج العروس » والخمط كل نبت أخـــذ طعما من مرارة « القاموس » .

ثم علم عز وجل — أن الجنة لو جمعت إلى النخيل والأعناب كل الثمرات كان وصفها أتم ، ونفعها أعظم ، والأسف على فسادها أشد ، فقال متمماً هذا النقص تتميم مبالغة « له فيها من كل الثمرات » .

ولما فرغ سبحانه من أوصاف الجنة أخذ في وصف صاحبها ، فوصفه بالكبر، لأنه لو كان شابا لرجا أن يخلفها بعد احراقها لما يجد في نفسه من القوة ويأمل من طول المدة ، فقال محتاطا « وأصابه الكبر » .

ثم علم سبحانه أنه إذا كان عقيما مع الكبر سلاه عنها قرب المدة ، وعدم من يهتم بضياعه بعد ، فلا يشتد أسفه عليها ، فقال عز وجل محتاطا أيضا : « وله ذرية » .

- ثم علم أنه إذا لم يصف الذرية بالضعف احتمل الاطلاق أن يكونوا أقوياء فيترجى إخلافهم لها ، فينخفض ذلك من أسفه، فقال محتاطا : « ضعفاء » .

- ثم لما فرغ من وصف الجنة أخذ في وصف الحادث المهلك لها بقوله عز وجل : « فأصابها إعصار »

- وعلم تبارك وتعالى — أن الاعصار لا يعجل فساد هذه الجنة ،ولا يحصل هلاكها به إلا بعد استمراره عليها في مدة طويلة ، وهو يريد الإخبار بتعجيل هلاكها ، فقال : « فيه نار »

- ثم اقتصر سبحانه من الرياح على الاعصار ، لكونه عبارة عن تقابل الرياح المثيرة للغبار الكثيف الذى دوامه يعمى عيون الماء ، ويطم الآبار والأنهار ، ويحرق بسمومه ووهجه الأشجار . وإذا اتفق مع ذلك أن تكون فيه نار أدارها على المكان الذى يكون فيه ، بحيث لا ينصرف عنه ، لأنه لا يقصد وجهة مقابلة فينصرف ما يكون فيه إليها .

- ثم علم سبحانه أن النار يحتمل أن تكون ضعيفة فتطفأ لضعفها عن

عن مقاومتها فى الجنة من الأنهار ، ورطوبه الأشجار ، فاحتاط من ذلك بقوله تعالى « فاحترقت » فنفى هذا الاحتمال وأوجز فى تتميم المعنى المراد .

فتأمل أيها القارىء الكريم ما تضمنته هذه الآية الكريمة من إعجاز معنوى وبلاغى ، وتأمل أيضاً ما تضمنته من تقاسيم هذا النوع من الكلام ، إلى جانب ما فيها من ائتلاف اللفظ مع المعنى ، والتهذيب . وحسن النسق ، والتمثيل ، وحسن البيان ، والمساواة ، لتعلم أن القرآن العظيم بمثل هذه الآية ، وأضرب الكلام أعجز الفصحاء ، وبلد الأذكياء ، وأعيا على البلغاء . . . وصدق الله العظيم إذ يقول :

« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) .

* * *

٦ – الايضاح بعد الابهام .. فى القرآن العظيم

لقد كانت حكمة العلى القدير – سبحانه – ألا يترك موضوعا من الموضوعات أو آية من الآيات إلا ويجليها ويوضحها ، ماحياً ما قد يكون عالقابها من الغموض أو الإبهام ، حتى لا يكون هناك أدنى لبس فى فهم مضمون آياته ، وعظيم فرقانه .

وهنا قد يتساءل المرء .. ما الايضاح (١) ؟ أو ليس الايضاح معناه التفسير؟ فى الحقيقة هناك فرق كبير بين الايضاح والتفسير . فالتفسير يكون عادة من صنع المفسرين ، لكن الإيضاح – الذى نقصده هنا – من لدن العليم الخبير ، مقصود لحكمة إلهية لا يعلمها إلا هو . جلت حكمته وعظمت قدرته .

لقد شاء الحق – تبارك وتعالى – أن يكون من دلائل إعجاز كتابه العظيم أن تأتى المعانى أحيانا فى صورتين مختلفتين ، أحداهما مبهمة ، والثانية موضحة لذلك جاء الإيضاح بعد الإبهام ، آية من آيات الإعجاز البيانى ، التى اشتمل عليها الأسلوب القرآنى . وماذلك إلا لتمكين المعانى القرآنية فى النفس تمكينا زائداً ، تحصل به لذة العلم ، لأن الشيء إذا علم من وجه دون وجه ، تشوفت النفوس إلى العلم بالمجهول ، فتحصل لها بسبب العلم لذة نتيجة حرمانها من الباقى ...

قال العلماء : جاء « الإيضاح بعد الإبهام » فى القرآن الكريم ، ليرى المعنى فى صورتين ، أو ليكون بيانه بعد التشوف إليه ألذ وأشرف عندها ، وأقوى لحفظها وذكرها .

ونظرة فاحصة فى كتاب رب العالمين . نجد أن الاشكال الذى يحسمه الإيضاح يكون فى عدة أمور :

---

(١) نصر بديع القرآن ٢٥٩ ، حسن التوسل ٨٤ نهاية الأرب ٧/١٢٩ ، خزانة ابن حجة ٤١٣ .

(ا) فى معانى النفس دون الفنون .

(ب) فى معانى البديع من الألفاظ .. وفى إعرابها .

ففيما يتصل بمعانى النفس ــ نجد الإيضاح بعد الإبهام ــ فى قوله تعالى: « كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها » (١) فإن هذه الآية لو اقتصر فيها على قوله (من قبل) دون بقية الآية لأشكل على المخاطب ، لا يدرى هل أراد سبحانه بما حكاه أهل الجنة إشارتهم إلى صنف الثمرة ، أو مقدار ما يؤتون منها بحيث تكون مقادير الثمار متساوية ، فأوضح سبحانه هذا الاشكال بقوله تعالى :

« وأتوا به متشابها » أى ما يشبه بعضه فى الكمية ، وان تغايرت أصنافه .

وتقرير الأشكال هنا فى قولهم « هذا الذى رزقنا من قبل » فإن ظاهر هذا اللفظ يدل على أن الذى رزقوه الآن هو عين ما رزقوا من قبل ، والمداومة على المأكول الواحد وغيره من الملاذ موجب للسآمة والملل ، وكمال النعم . وغاية التفكه والتلون فى المطاعم ، والتفنن فى المآكل . ونعيم الجنة أتم نعيم وأكمله . فمقتضى البلاغة أن يكون سبحانه وتعالى أراد وهو أعلم ــ المقدار لا عين الصنف .

ويؤيد هذا الذى ذهبنا إليه . قوله تعالى فى تتمة الآية « وآتوا به متشابها » أى متغايراً . فإن الشيء لا يشبه نفسه ، فاتضح أنه سبحانه أراد بقوله « هــذا الذى رزقنا من قبل » ــ أى هو المقدار لا فى الصنف .

ومن الإيضاح نوع آخر ــ يأتى موضحاً لإشكال فى جملتين من الكلام متضمنتين معنى واحدا قد اختلفت العبارة فيهما ، ليتوجه على الظاهر إشكال أوجبه اختلاف العبارة .

وهنا يأخذ القرآن على عاتقه إيضاحه ، كقوله سبحانه فى سورة الأنعام :

---

(١) البقرة ٦٠

« ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » . وقوله تعالى فى سورة بنى إسرائيل : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » .

وتقرير الإشكال — أن المعنى فى الآيتين هو النهى عن قتل الاولاد ، لما تقتضيه زيادة الكلف من الفقر ، والعدة بأن الرزق من عند الله .

فإن قيل .. لم قال سبحانه فى الآية الاولى : « نحن نرزقكم وإياهم » ؟ بتقديم عدة الوالدين بالرزق على عدة الأولاد به ، وبالعكس فى الآية الثانية . « نحن نرزقهم وإياكم » ..

وهل يجوز العكس فيهما — أم لا يجوز إلا ما جاء به الذكر الحكيم ؟

نقول : لما علم سبحانه أن ذلك قد يشكل على من لم ينعم النظر فى الكلام — جاء فى الآيتين خبر(١) : يوضح هذا الإشكال — وذلك فى قوله تعالى فى الآية الأولى (من املاق) ليشير إلى الخطاب للفقراء دون الأغنياء . . فأوجبت البلاغة تقديم عدتهم بالرزق . وتكميل العدة برزق الأولاد ، لاحتمال أن يظنوا أنهم إذا رزقوا رزقا فستغنوا به استفدته كلفة الأولاد . فعادوا ثانية إلى الفقر . وقال فى الآية الثانية (خشية إملاق) ليشير إلى أن الخطاب للأغنياء دون الفقراء ، الذين يخافون أن تسلبهم كلف الأولاد ما بأيديهم من الغنى ، فوجب تقديم العدة برزق الأولاد ، ليعلموا أنه سبحانه المتحمل عنهم كلفتهم فيأمنوا ما خافوه من الفقر ، ثم كل العدة بضمان رزقهم بعد الأولاد ، ليعلموا أن ما بأيديهم من الغنى هو الذى رزقه ، وهو قادر على أن يرزقهم مثله .

ومن هذا القسم من الإيضاح .. نوع يتقدم فيه الإيضاح على الإيهام . كقوله تعالى :

« نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » (٢) .

فإن ظاهر هذه الاية — كما يتوهم ضعاف النفوس — يحتمل إباحة الوطء

---

(١) خـ . . . . . ٩٠ " . . ..

(٢) البقرة ٢٢٣

فى أى محل شاء الزوج من المحلين . وفى ذلك من الإشكال ما لم يخف عن ذى عقل ودين .

لكن ما تقدم قوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم » — والحرث موضع البذر ومحل الزرع ، وزرجاء النبت ، ومحلة النمو والزيادة : علم أن المراد بقوله (أنى شئتم) تخيير الواطىء فى الهيئات التى يأتى أهله عليها فى محل الزرع . ويكون معنى (أنى شئتم) متى شئتم من الوطئ .

أما الأمر الثانى الذى يحله الإيضاح — فى القرآن الكريم — فهو الأشكال فى معانى البديع من الألفاظ وفى إعرابها .. من مثل قول الحق تبارك وتعالى :
« وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون »(١)

فإن على ظاهر هذه الآية الكريمة إشكالين : إشكال من جهة الإعراب — وإشكال من جهة المعنى .

أما الأشكال الذى من جهة الإعراب ، فعطف ما ليس بمجزوم على المجزوم .

أما الذى من جهة المعنى ، فهو أن صدر الآية يغنى عن فاصلتها ، لأن توليهم عند المقاتلة دليل على الخذلان ، والخذلان والنصر لا يجتمعان . ولتوضيح هذا الأمر نقول :

أن الله سبحانه أخبر المؤمنين بأن عدوهم هذا إن قاتلهم انهــزم ، ثم أراد سبحانه تكميل وعده بأخبارهم أنه مع توليه الآن لا ينصر أبداً فى المستقبل ، فهو مخذول أيضاً ما قاتلهم فيتى للمؤمنون ينصر الله تعالى لهم على هذا العدو ، ويقينوا أنه متى قاتلهم كان مخذولا ، فيقدموا على لقائه كلما أرادوا ذلك ، بثبــات قلوب وقوة نفوس ، وطمأنينة وسكينة ، لا يتوقفون فى لقائه ، ولا يخشون مغبة قتاله .

ولو وقع الاقتصار على ما دون الفاصلة ، ولم يوف الكلام بهذا المعنى المراد . لأنه لا يعطى قوله (وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار) أنهم متى قاتلوهم كان الأمر كذلك .

---

(١) آل عمران ١١١ .

وكما علم سبحانه — أن الاقتصار على ما دون الفاصلة لا يفهم منه دوام هذه البشارة إلى آخر الأبد — والمقصود دوامها . قال : (ثم لا ينصرون) ومنع الفعل الجزم — وإن عطف على مجزوم — ليبقى على المعنى الذى وضعت له صيغة المضارع من الدلالة على الحال والاستقبال . فيعلم أن الحق — جلت حكمته — أراد أنهم لا ينصرون فى الحال ، ولا فى الاستقبال . ونوى فى الفعل الاستئناف لا العطف على ما تقدم فيقدر أنه قال : (ثم هم لا ينصرون) وسوغ العدول عن الظاهر إلى هذا التأويل ما يوجبه التأويل من تمام المعنى الذى هو بدونه ناقص ، وتصحيح المراد من استمرار البشرى .

وأبدع ما وقع فى هذا النظم الإلهى ، اختيار لفظـــة (ثم) دون سائر حروف العطف لما تدل عليه من التراخى والمهلة الملائمة لما قصد من الاستقبال فاتضح المعنى وارتفع الإبهام .

لقد تضمنت هذه اللفظات السبع ، التى اشتملت عليها الآية الكريمة ستة عشر ضربا من البديع . أحصاها أهـــل البيان ، وهى : التعليق ، والمطابقة المعنوية ، والاحتراس ، والتكميل ، والتنكيت . والمقارنة ، والإيضاح والإدماج ، والترشيح ، والإيغال ، والإيجاز ، والافتنان ، وحسن النسق والتهذيب ، وحسن البيان ، والمثل السائر . وأعجب ما وقع فيها أن حرفا واحداً منها وقع فيه على انفراد ، من ذلك ثمانية أضرب ، وهو (ثم) — وقع فيه الاحتراس ، والتنكيت ، والمقـــارنة ، والإيضاح ، والإدماج ، والتنكيت ، وحسن النسق ، والترشيح ، حيث توجد هذه الضروب البيانية بوجود (ثم) وتنعدم بعدمها ، وبيان ذلك أننا لو قدرنا موضعها (الواو العاطفة) سقط ذلك كله .

وتوخيا للفائدة العلمية ، والمتعة البلاغية . نفصل هـــذه المحاسن البديعية الواردة فى الآية الكريمة ..

إن الإيضاح فيها — وهو موضوعا . يتضح من عطف آخر الكلام على أوله بـ (ثم) لتحصل الفائدة . ولأجلها أتى بالآية ، وهى تبشير المؤمنين بأن

عدوهم مخذول أبدا — كما ذكرنا — ولأجل ذلك منع الفعل المضارع من الجزم ليدل على الاستقبال فيتكمل المعنى المراد .

والإدماج .. هو إدماج التكميل فى الإيضاح ، فإن لفظ الإيضاح ظاهر ، والتكميل مدمج فيه لا يظهر إلا بعد التفسير .

وكذلك الاحتراس .. فإن الكلام الآخر لو عطف على الأول (بالواو) لظن من لا يحب أن تسرع إلى الموت — إنما وعدوا بالنصر فى تلك الحالة لا غير ، ويحتمل أن ينصر العدو بعد هذه لأن الحرب أكثر ما يقع سجالا ، فيكون ذلك موجبا لقعوده عن القتال بعدها ، فأتى بالجملة الثانية معطوفة بـ (ثم) ليحترس بها من ذلك .

والتنكيت .. وهو النكتة التى رجحت العطف بـ (ثم) دون بقية حروف العطف لما يقتضى من المهلة الملائمة لما يدل عليه الفعل المضارع من الاستقبال لتكميل المعنى المراد .

وأما التعليق .. وهو تعليق الوعيد بالوعد ، فإنها تضمنت وعد المؤمنين بالنصر ، ووعيد الكافرين بالخذلان .

وأما المطابقة المعنوية ، فلجمع الكلام بين الوعود والوعيد بغير لفظهما .

وأما المقارنة .. فلاقتران الافتنان الذى دل عليه الوعد والوعيد ، والمدح والهجاء بالمطابقة .

وأما الإيغال .. فلأن معنى الكلام تم عند قوله (يولوكم الأدبار) ولما احتاج الكلام إلى فاصلة توافق بقية فواصل الآى أفادتها معنى زائدا يكمل به معنى الكلام التام .

وأما الترشيح .. فهو ترشيح (ثم) لمجىء الفعل الثانى الذى عطف بها على الأول دالا على الاستقبال .

وأما الإيجاز . . فلدلالة هذه الألفاظ السبع على ما دلت عليه من معانى النفس ومعانى البديع .

وأما الافتنان .. فإشارة الوعد والوعيد إلى من سبق لهم الوعد أهل للمدح ، ومن سبق لهم الوعيد أهل للذم .

وأما حسن النسق .. فق اختيار العطف بـ (ثم) دون حروف النسق .

وأما التهذيب .. فق تقديم ما يجب تقديمه من الوعد فى حال المقابلة وتأخير ما يجب تأخيره من الوعد والوعيد بعد ذلك فى الاستقبال ، وملائمة العطف بـ (ثم)للمعطوف حيث كان صيغته صيغة المضارع الدال على الاستقبال .

وأما حسن البيان .. فلإبانتها عن بشارة المؤمنين بما يثبت قلوبهم ، ويثلج صدروهم ، ويحرضهم على قتل المشركين أبدا بأرشق عبارة دلت على المعنى المراد وأوصله إلى الافهام بأقرب الطرق وأسهلها .

وأما المثل السائر .. فلخروج الكلام فيها مخرج مثل يليق بكل واقعة تشبه واقعتها . ومما يؤيد هذا التأويل ويدل عليه — أن المتوعدين فى هذه الآية مخذولون أبداً فى كل مكان وزمان ما قاتلوا المسلمين ، قوله تعالى على سياقتها :

(ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس)(١) .

فأخبر سبحانه أنهم أينما أدركهم المسلمون ذلوا ، واستثنى منهم من دخل تحت الذمة طلبا للسلامة ، وذيل سبحانه وعيد الدنيا بوعيد الآخرة حيث قال (وباءوا بغضب من الله) وأخبر عز وجل بضرب المسكنة عليهم مع الذلة ، وعلل وقوع ذلك ليدل على استحقاقهم ما حل بهم بقوله: (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله) .

« ويرتبط بموضوع « الإيضاح بعد الإبهام» موضوع آخر وثيق الصلة به ، وهو « التفصيل بعد الإجمال » كقوله تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة » (٢) . فأعاد قوله (أربعين) وإن كان معلوما من الثلاثين) و (العشر) أنها أربعون لنفى اللبس . لأن العشر لما أتت بعد

(١) آل عمران ١١٢ . (٢) الأعراف ١٤٢

الثلاثين ، التي هي نص في المواعدة ، دخلها الاحتمال أن تكون من غير المواعدة فأعاد ذكر (الأربعين) نفياً لهذا الاحتمال ، وليعلم أن جميع العدد للمواعدة .

وهنا قد تثار مسألة .. فيقول قائل .. إذا كان زمن المواعدة أربعين فلم كانت (ثلاثين) ثم (عشراً) ؟..

أجاب ابن عساكر في كتابه (التكميل والافهام) بأن العشر إنما فصل من أولئك ليتجدد قرب انقضاء المواعدة . ويكون فيه متأهباً مجتمع الرأي ، حاضر الذهن، لأنه لو ذكر (الأربعين) أولا ، لكانت متساوية ، فإذا جعل العشر فيها اتماما لها استشعرت النفس قرب التمام ، وتجدد بذلك عزم لم يتقدم .

فإن قيل : فلم ذكر في هذه السورة — أعني الأعراف — الثلاثين ثم العشر؟ وقال في سورة البقرة (وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة) (١) ولم يفصل العشر منها ؟ نقول : أنه قصد في سورة الأعراف ذكر صفة المواعدة والإخبار عن كيفية وقوعها . فذكرها على صفتها — أما في سورة البقرة ، فقد ذكر الامتنان على بني إسرائيل بما أنعم به فذكر نعمه عليهم جملة فقال:(وإذ فرقنا بكم البحر)(٢) (وإذ وأنجيناكم من آل فرعون)(٣) ذلك أن المقصود ذكر كال لا ذكر العشرة ، فليست العشرة مقصودة بالذات لأنها لم تذكر إلا للإعلام بأن التفصيل المتقدم عشرة لأن ذلك من المعلوم بالضرورة .

وإنما ذكرت لتوصف بالكمال الذي هو مطلوب في القصة .

وكذلك قوله تعالى : (فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة) (٤) أعاد ذكر العشرة لما كانت الواو تجيء في بعض المواضع للإباحة، وقوله (كاملة) تحقيق لذلك وتأكيد له . وهنا يخرج لنا جوابان أولهما « التفصيل بعد الإجمال » وثانيهما « الإيضاح بعد الإبهام » .

---

(١) البقرة ٥١ (٢) الآية ٥٠

(٣) الآية ٤٩ (٤) البقرة ١٩٦

وليس هذا فحسب ، بل هناك أجوبة أخرى كثيرة ذكرها الفقهاء والمفسرون كلها تشهد بقدرة العلى القدير ، وعظمة بيانه . من هذه الأجوبة :

ـ أنه قصد رفع ما قد يهجس فى النفوس ، من أن المتمتع إنما عليه صوم سبعة أيام لا أكثر ، ثلاثة منها فى الحج ويكمل سبعاً إذا رجع .

ومنها ـ أن قاعدة الشريعة ـ أن الجنسين فى الكفارة لا يجب على المكفر الجمع بينهما فلا يلزم الحالف أن يطعم المساكين ويكسوهم ، ولا المظاهر العتق والصوم، فلما اختلف محل هذين الصومين . فكانت ثلاثة فى الحج وسبعة إذا رجع، صار باختلاف المحلين كالجنسين ، والجنسان لا يجمع بينهما . وأفادت هذه الزيادة وهى قوله (تلك عشرة كاملة) رفع ما قد يهجس فى النفوس من أنه إنما عليه أحد النوعين . أما الثلاث وإما السبع ، هكذا قال الفقهاء .

ومنها ـ أن فى الكلام تقديماً وتأخيراً ، والتقدير : فصيام عشرة أيام ، فى الحج . وسبعة إذا رجعتم .

ومنها : أن السبع قد تذكر . والمراد به الكثرة لا العدد ؛ والذى فوق الستة ودون الثمانية .

روى ابن عمرو بن العلاء وابن الإعرابى عن العرب : « سبع الله لك الأجر » أى أكثر ذلك ، يريدون التضعيف ، وقال الأزهرى فى قوله تعالى : « إن تستغفر لهم سبعين مرة » ، هو جمع السبع الذى يستعمل الكثرة .

وإذا كان ذلك كذلك فاحتمل أن يتوهم أن المراد بالسبع ما هو أكثر من السبع وتلفظها معطوف على الثلاثة بآلة الجمع . فيفضى إلى الزيادة فى الكفارة على العدد المشروع فيجب حينئذ رفع هذا الاحتمال بذكر الفذلكة ، وللعرب مستند قوى فى إطلاق السبع والسبعة . وهى تريد الكثرة .

ومنها ـ أن السبعة المذكورة عقب الثلاثة يحتمل أن تكون الثلاثة داخلة فيها كما فى قوله تعالى :

(وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام) أى مع اليومين اللذين خلق الارض فيهما .

فلابد من اعتقاد هذا التأويل ليندفع ظاهر التناقض ، فجاء التقييد بالعشرة لرفع توهم التداخل .

ومنها — أن الكفارات فى الغالب إنما تجب متتابعة ككفارات الجنايات ، ولما فصل ها هنا بين صوم هذه الكفارات بالإفطار قبل صومها بذكر الفدية ليعلم أنها وإنما كانت منفصلة فهى كالمتصلة ، فإن قيل أن كفارة اليمين لا تجب متتابعة ومن جنس هذه الكفارة ما يجب على المحرم إذا حلق ثلاث شعرات ، ومن عجز عن الفدية فإنه يصوم ثلاثة أيام ولا يشترط التتابع .

قال الفقهاء .. هى فى حكم المتابعة بالنسبة إلى الثواب . إلا أن الشرع خفف بالتفريق . وأخيراً .. أن حروف « السبعة والتسعة » مشتبهة ، فأزيل الإشكال بقوله (تلك عشرة كاملة) لئلا تقرأ (تسعة) فيصير العدد (اثنى عشر)، ونظير هذا قوله صلى الله عليه وسلم. (إن لله تعالى تسعة وتسعين إسما ، مائة إلا واحدا) .

فالتأكيد « بمائة إلا واحدا » لإزالة إلباس التسعة وتسعين اسما (بالسبعة والسبعين) .

لكن مثل هذا مأمون فى القرآن العظيم ، لأن الله حفظه .

٧ – الطباق والمقابلة فى القرآن العظيم

ومن الموضوعات التى زخر بها كتاب رب العالمين ما جاء تحت باب الطباق.

والطباق: فى مفهوم البلاغيين وعلماء البيان: المطابقة والتطبيق والتضاد والتكافؤ. ومعناه: الجمع بين معنيين متضادين – أى معنيين متقابلين فى الجملة.

ولا مناسبة – فى الحقيقة – بين معنى المطابقة لغة واصطلاحا..

فإنها فى اللغة: الموافقة.. يقال طابقت بين الشيئين إذا جعلت أحدهما على حذو الآخر. كما يقال طابق الفرس فى جريه – إذا وضع رجليه مكان قدميه.

والبلاغيون متحيرون.. لأنهم لا يعرفون من أين اشتقت هذه التسمية، إذ لا مناسبة بين الاسم ومسماه.. لذلك سماه قدامة بن جعفر «التكافؤ» وهو عنده اجتماع المعنيين فى لفظة مكررة..

وحقيقة الأمر: أن الطباق على ضربين. حقيقى ومجازى.

وكل من الضربين على قسمين. لفظى ومعنوى.

فما كان منه بألفاظ الحقيقة.. أبقوا عليه اسم الطباق.

وما كان كله بألفاظ المجاز.. أو بعضه سموه تكافؤا.

كذلك إذا كان الضدان أو الأضداد لموصوفين والألفاظ حقيقة فهو الطباق – وإذا كانت الأضداد أربعة فصاعدا كان ذلك مقابلة.

فالفرق بين الطباق والمقابلة إذاً من وجهين:

أحدهما: أن الطباق لا يكون إلا بالجمع بين ضدين فذين فقط..

والمقابلة لا تكون إلا بما زاد عن الضدين – من الأربعة إلى العشرة.

---

(١) انظر بديع القرآن ٣١، العمدة ٢/٥، بديع ابن المعتز، الصناعتين ٣٠٧، سر الفصاحة ١٨٨، أسرار البلاغة، الإيضاح ٦/٦ نهاية الأرب ٧/٩٨، الطراز ٢/٣٧٧ البرهان فى علوم القرآن ٣/٤٥٨.

والوجه الثاني : أن المقابلة تكون بالأضداد وبغير الأضداد ..

« وإذا تأملنا ما جاء في القرآن الكريم على وجه الطباق .. نجده على ثلاثة أقسام :

— طباق سلب — وطباق إيجاب — وطباق ترديد ..

فمن أمثلة طباق السلب : قوله تعالى :

« وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا » (١)

وقوله سبحانه « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » (٢) وقوله : « تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » (٣).

ومن أمثلة طباق الإيجاب : قوله تعالى :

« وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى » (٤) ..

وهنا ندرك أن القرآن العظيم جمع إلى الطباق البليغ التسجيع الفصيح لمجيء المناسبة التامة في فواصل الآي .

ومما جاءت المطابقة فيه على انفرادها من طباق الإيجاب .. قوله تعالى :

« والله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد » (٥) .

أي ما تنقص وما تزيد .

وقوله سبحانه « الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون (٦) فجمع سبحانه للمؤمنين في هذا الوصف بين الفعل والترك ، إذ وصفهم بالخشوع في الصلاة ، وترك اللغو ، وهذا كله من طباق الإيجاب المعنوي .

---

(١) الاعراف ١٤٦ (٢) البقرة ٦ .

(٣) المائدة ١١٦ (٤) النجم ٤٣ — ٤٥ .

(٥) الرعد ٨ .

أما القسم الثالث من الطباق — فهو طباق الترديد ومعناه .. أن يرد آخر الكلام المطابق على أوله .. ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى :

« وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (١)

فجمعت هذه الآية الكريمة بين المقابلة وبين طباق السلب المعنوي .

فالمقابلة جاءت من صدرها فى قوله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم » .
فقابل الكراهة بالحب ، والخير بالشر .

.. ان كل ما ذكرناه حتى الآن من النوع الأول .. وهو الطباق اللفظى
أما النوع الثانى من الطباق — فهو الطباق المعنوى ..

وقد جاء هذا النوع من الطباق فى مثل قوله تعالى .
« والله يعلم وأنتم لا تعلمون » وتقدير المعنى فيه : والله يعلم وأنتم تجهلون .

هذا عن الطباق بنوعيه اللفظى والمعنوى ..

ولقد قلنا — ان الطباق أو المطابقة .. هى الجمع ـ فى كلام واحد ـ بين معنى ومقابله أو ضده ـ وتكون بلفظين من نوع واحد .
كأن يكونا اسمين . كقوله تعالى : « وتحسبهم أيقاظا وهم رقود »

فالجمع بين « الأيقاظ والرقود » مطابقة ، لان اليقظة ضد الرقود وكلاهما من نوع الاسم.

وكأن يكونا فعلين كقوله تعالى : « لا يموت فيها ولا يحيا »
فالجمع بين (يموت ويحيا) مطابقة ، لأن الموت ضد الحياة ، وكلاهما من نوع الفعل .

---

(١) البقرة ٢١٦ .

وكأن يكونا حرفين — كقوله تعالى : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

فالجمع بين (اللام وعلى) مطابقة ، لأن فى « اللام » معنى المنفعة وفى (على) معنى المضرة . وهما متضادان .

وقد تكون المطابقة بلفظين من نوعين مختلفين . . كقوله تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه » فالجمع بين « ميتاً وأحييناه » مطابقة لأن معنيهما متضادان ، غير أن الأول منهما من نوع الاسم ، والآخر من نوع الفعل .

والتقابل بين المعنين — إما واضح بين — كما مر بنا فى الأمثلة السابقة . .

وأما خفى نوع خفاء . نحو قوله تعالى : (أغرقوا فادخلوا نارا) .

فإن صريح قوله (فادخلوا نارا) لا يقابل معنى (الإغراق) .

ولكنه يستلزم مايقابله وهو «الإحراق» — فكأنه قال (أغرقوا فأحرقوا) لهذا كان فى التقابل بينها بعض خفاء . .

ومثله قوله تعالى : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

فإن الرحمة تستلزم اللين المقابل للشدة . .

ويرتبط بهذا الإعجاز البلاغى . . لون بيانى آخر . . وهو المقابلة . .

والمقابلة نوع أرق من المطابقة أو الطباق . . من حيث أن فيهما جمعاً بين معنين على الأقل ، وبين ما يقابلهما ، وقد يكون بين أكثر . .

وهذا بخلاف المطابقة — أو الطباق — فإنها تكون بين معنى واحد ومقابله كما أن الطباق لا يكون إلا بالأضداد . .

أما المقابلة فتكون بالأضداد وبغيرها . .

والمقابلة فى القرآن العظيم . . أنواع(١) . مقابلة بين نظيرين — ومقابلة بين خلافين . . ومقابلة بين نقيضين .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ٣/ ٤٦٠ .

من أمثلة مقابلة النظيرين: مقابلة السنة والنوم فى قوله تعالى :

« لا تأخذه سنة ولا نوم »(١) لأنهما جميعاً من باب الرقاد المقابل باليقظة فى قوله « وتحسبهم أيقاظا وهم رقود » (٢) — وهذه هى مقابلة النقيضين فاليقظة يناقضها الرقود والنوم . .

ومن أمثلة الخلافين : مقابلة الشر بالرشد فى قوله تعالى :

« وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً »(٣) .

فقابل الشر بالرشد ، وهما خلافيان — وضد الرشد الغى ، وضد الشر الخير. والخير الذى يخرجه لفظ الشر ضمنا نظير الرشد قطعاً . والغى الذى يخرجه لفظ الرشد ضمنا نظير الشر قطعاً . . فقد حصل من هذا الشكل أربعة ألفاظ نطقان وضمنان . . .

ومثله قوله تعالى : « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ، إلا قيلا سلاما سلاما »(٤) .

وقد قسم بعض العلماء المقابلة إلى أربع : تبعاً لترتيبها فى الآيات . .

أحدها : أن يأتى بكل واحد من المقدمات مع قرينه من الثوانى . كقوله تعالى « وجعلنا الليل لباسا والنهار معاشا »(٥) .

والثانية : أن يأتى بجميع الثوانى مرتبة من أولها ، كما قال تعالى :

« ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » (٦)

الثالث : أن يأتى بجميع المقدمات ثم يجمع الثوانى مرتبـــة من آخرها ، كقوله تعالى :

---

(١) البقرة ٢٥٥

(٢) الكهف ١٨

(٣) الجن ١٠

(٤) الواقعة ٢٥ ، ٢٦

(٥) النبأ ١٠،١١

(٦) القصص ٧٣

« يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين أسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » (١) وهذا النوع من المقابلة يسميه أهل البيان رد العجز على الصدر .

الرابع : أن يأتى بجميع المقدمات ، ثم بجميع الثوانى مختلطة غير مرتبة — ويسمى اللف .. كقوله تعالى : « وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » (٢) .

فنسبة قوله « متى نصر الله » إلى قوله « والذين آمنوا » .

كنسبة قوله « يقول الرسول » إلى « ألا إن نصر الله قريب » .

لأن القولين المتباينين يصدران عن متباينين .

● وقد جعل بعض العلماء من أقسام التقابل مقابلة الشىء بمثله وهو ضربان :

— مقابلة فى اللفظ دون المعنى : كقوله تعالى « ومكروا مكرا ومكرنا مكرا » (٣) .

— ومقابلة فى المعنى دون اللفظ : كقوله تعالى « قل ان ضللت فإنما أضل على نفسى وان اهتديت فبما يوحى إلى ربى » (٤) .

فإنه لو كان التقابل هنا من جهة اللفظ ، لكان التقدير :

« وإن اهتديت فإنما اهتديت لها » .

وبيان تقابل هذا الكلام من جهة المعنى ، أن النفس كل ما هو عليها لها

---

(١) آل عمران ١٠٦، ١٠٧ — (٢) البقرة ٢١٤
(٣) النمل ٥٠ — (٤) سبأ ٥٠

فهو .. أعنى أن كل ما هو وبال عليها ، وصار لها فهو بسببها ومنها - لأنها أمارة بالسوء .

وبكل ما هو - مما ينفعها - فبهداية ربها وتوفيقه إياها . وهذا حكم لكل مكلف ، وإنما أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يسند إلى نفسه ، لأنه إذا دخل تحته مع علو محله ، كان غيره أولى به ..

ومن هذا الضرب أيضاً - قوله تعالى : « ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون »(١) .

فإنه لم يدع التقابل فى قوله « ليسكنوا فيه والنهار مبصرا » لأن القياس يقتضى أن يكون « والنهار لتبصروا فيه » وإنما هو مراعى من جهة المعنى لا من جهة اللفظ ، لأن معنى « مبصرا » تبصرون فيه طرق التقلب فى الحاجات .

أن فى تقابل المعانى حكمة عظيمة تحتاج إلى تأمل عميق استمع إلى قول الحق تبارك وتعالى :

« إنما نحن مصلحون إلا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » .

وقوله فى الآية التى بعدها : (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون)(٢) .

فانظر فاصلة الثانية (يعلمون) والتى قبلها (يشعرون) لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين ، يجتمعون وهم مطيعون يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكسب الناظر المعرفة والعلم . وإنما النفاق - وما فيه من الفتنة والفساد - أمر دنيوى مبنى على العادات معلوم عند الناس - فلذلك قال فيه (يعلمون) وأيضاً - فإنه لما ذكر السفه فى الآية الأخرى - (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) - وهو جهل كان كما ذكر العلم طباقا ..

---

(١) النمل ٨٦ (٢) البقرة ١٢ - ١٣

وعلى هذا تجىء فواصل القرآن العظيم .

واستمع إلى قوله تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا » فتقدم اقـــتران الوعد بالفقر والأمر بالفحشاء ثم قوبل بشيء واحد وهو الوعد ، فأوهم الاخلال بالثانى ، وليس كذلك وإنما لما كان الفضل مقابلا للفقر ، والمغفرة مقابلة للأمر بالفحشاء ، لأن — الفحشاء توجب العقوبة ، والمغفرة تقابل العقوبة — استغنى بذكر المقابل دون ذكر مقابله ، لأن ذكر أحدهما ملزوم ذكر الآخر .

إن من آيات الإعجاز القرآنى — فى هذا الباب — باب التقابل — أن نظم الكلام قد يجىء على غير صورة المقابلة فى الظاهر — وإذ توّمل بعمق كان من أكمل المقابلات وأروعها ... استمع إلى قول الحق تبارك وتعالى :

« ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى »(١)

فقابل الجوع بالعرى ، والظمأ بالضحى ، والواقف مع الظاهر ربما يخيل أن الجوع يقابل بالظمأ ، والعرى بالضحى ..

والمدقق يرى هذا الكلام فى أعلى مراتب الفصاحة ، لأن الجوع ألم الباطن والضحى موجب لحرارة الظاهر ، فاقتضت الآية جميع نفى الآفات ظاهراً وباطناً وقابل الخلو بالخلو ، والاحتراق بالاحتراق ..

وها هنا موضع الحكاية المشهورة بين المتنبي وسيف الدولة .. لما أنشده :

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمـــة ووجهك وضاح وثغرك باسم

قال الواحدى : لما أنشد المتنبي هذين البيتين — أنكر عليه سيف الدولة تطبيق ، عجزى البيتين على صدريهما ، وقال له : ينبغى أن تطبق عجز الأول

(١) طـــه ١١٨ ، ١١٩

على الثانى ، وعجز الثانى على الأول ثم قال له : وأنت فى هذا مثل امرىء القيس فى قوله :

كأنى لم أركب جـــوادا للــــذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبـــأ الزق الردى ولم أقل لخيـــلى كرى كرة بعد أجفال

قال : ووجه الكلام فى البيتين — على ما قاله أهل العلم بالشعر — أن يكون عجز الأول على الثانى ، والثانى على الأول ، ليستقيم الكلام فيكون ركوب الخيل مع الأمر للخيل بالكر وسبء الخمر مع تبطن الكاعب . .

فقال له أبو الطيب المتنبى : أدام الله عز مولانا . أن صح أن الذى استدرك هذا على امرىء القيس أعلم منه بالشعر ، فقد اخطأ امروء القيس واخطأت أنا ومولانا يعرف أن البزاز لا يعرف الثوب معرفة الحائك ، لأن البزاز يعرف جملته وتفصيله ، لأنه أخرجه من الغزلية إلى الثوبية ، وإنما قرن امروء القيس هذه المقارنات لشيء فى نفسه . .

وأنا لما ذكرت الموت فى أول البيت اتبعته بذكر الردى ليجانسه ، ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً ، وعينه من أن تكون باكيه ، قلت : (وجهك وضاح) لأجمع بين الأضداد فى المعنى . فأعجب سيف الدولة ووصله بخمسمائة دينار .

أن الطباق كما جاء فى القرآن الكريم .. وأن المقابلة كما رأيناها فى آيات الذكر الحكيم لهما آيتان من آيات العلى القدير أودعهما كتابه ليكونا معجزتين من آيات إعجازه .

* * *

٨ — أسلوب القسم فى القرآن العظيم

أسلوب القرآن — كما قال أهل البيان — هو بيت القصيدة ، وأول الجريدة وغرة الكتيبة ، وواسطة القلادة ، ودرة التاج . وانسان الحدقة .

قال الزركشى — فى برهانه (١) — أعلم أن هذا علم شريف المحل ، وعظيم المكان ، قليل الطلاب ، ضعيف الأصحاب ، ليست له عشيرة تحميه ، ولا ذوو بصيرة تستقصيه ، وهو أرق من الشعر وأهول من البحر ، وأعجب من السحر وكيف لا يكون . . وهو المطلع على أسرار القرآن العظيم ، الكافل بإبراز إعجاز النظيم ، المبين ما أودع من حسن التأليف ، وبراعة التركيب ، وما تضمنه من الحلاوة ، وجلله فى رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتهـــا ، وعذوبتها وسلامتها ، ولا فرق بين ما يرجع الحسن إلى اللفظ أو المعنى .

وشذ بعضهم فزعم أن موضع صناعة البلاغة فيه إنما هو المعانى ، فلم يعد الأساليب البليغة . والمحاسن اللفظية .

والصحيح . . أن الموضوع مجموع المعانى والألفاظ ، إذ اللفظ مادة الكلام الذى منه يتألف ، ومتى أخرجت الألفاظ عن أن تكون موضوعا ، خرجت عن جملة الأقسام المعتبرة ، إذ لا يمكن أن توجد إلا بها . .

أقول : شاء الحق ، تبارك وتعالى — أن يكون كتابه الكريم، معجزة لخلقه فى كل شيء . . فى البلاغة والأسلوب ، والوصف والنظم . إلى جانب إعجازه فى تأثير الهداية ، وكشف الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة .

شاء المولى سبحانه أن يجعل أسلوب كتابه العظيم . آية على العظمة الإلهية

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ٢/٣٨٢

ودليلا على المقدرة البلاغية ، فجاء القرآن زاخرا بمجموعة ضخمة من الأساليب التي تؤدي غرضها في تآلف وتناسق وترابط ، لتشـــهد بعظمة الحق سبحانه وتسبح بحمده .

من أبدع الأساليب التي اشتمل عليها كتاب رب العالمين : أسلوب القسم ، وهو أسلوب انشائي ــ باتفاق العلماء ــ قال القرافي : أن فائدته تأكيد الجملة الخبرية وتحقيقها عند السامعين .

وقد يتساءل البعض : ما معنى أن يقسم الحق تبارك وتعالى ؟ . .

وهل كان سبحانه في حاجة إلى تأكيد قوله عز وجل ؟ . . فالقسم إن كان لأجل المؤمن . . فالمؤمن مصدق بمجرد الاخبار من غير قسم ، وإن كان لأجل الكافر فإن القسم لا يفـــيده ، لأنه أعمى البصر والبصيرة ، متحجر القلب والعقل .

ما معنى القسم إذن ؟ ولماذا أقسم المولى سبحانه ؟

الجواب : أن القرآن العظيم نزل بلغة العرب ، وبأساليبهم التي اعتادوها ، ومن عادة العرب القسم إذا أرادت أن تؤكد أمراً ، حتى جعلوا مثل : « والله يشهد أن المنافقين لكاذبون » (١) قسما ــ وإن كان فيه إخبار بشهادة ، لأنه لما جاء توكيدا للخبر سمي قسما .

قال القشيري : وذلك لأن الحكم يفصل باثنين ، إمّا بالشهادة ، وإما بالقسم فذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم النوعين ، حتى لا تبقى لهم حجة ، فقال سبحانه : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط (٢)

وقال جل وعلا « قل أي وربي إنه الحق »(٣) .

---

(١) المنافقون ١
(٢) آل عمران ١٨
(٣) يونس ٥٣

— ويستطيع الباحث المتأمل أن يدرك بوضوح . أن الحق تبارك وتعالى أقسم فى كتابه الكريم . . اما بذاته العلية . . وإما بمخلوقاته العظيمة .

أما قسمه بذاته — جل شأنه — فقد جاء فى سبع مواضـــع :

الأول : فى سورة النساء (١) — وهو قوله تعالى :

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم . ثم لا يجـــدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .

والثانى : فى سورة يونس (٢) وهو قوله جل وعلا :

« ويستنبؤنك أحق هو ، قل أى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين » .

والثالث : فى سورة الحجر (٣) وهو قوله عز شأنه :

« فوربك لنسألنهم أجمعين » .

والرابع : فى سورة مريم (٤) وهو قوله سبحانه :

« فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا »

والخامس : فى سورة الزاريات (٥) وهو قوله تبارك اسمه :

« فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما انكم تنطقون » ،

والسادس : فى سورة التغابن (٦) وهو قول الحق :

« زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير »

والسابع : فى سورة المعارج ، وهو قوله تعالى :

« فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون » .

---

(١) الآية ٦٥
(٢) الآية ٥٣
(٣) الآية ٩٢
(٤) الآية ٦٨
(٥) الآية ٢٣
(٦) الآية ٧

أما قسمه بمخلوقاته . . فقد جاء فى مواضع كثيرة من القرآن العظيم . . من مثل قسمه سبحانه « والسماء والطارق ، وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب إن كل نفس لما عليها حافظ » ، « والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر » ، « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ونفس وما سواها » . .

« والضحى ، والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى . . »

« والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين . . »

وهنا قد يتبادر إلى الذهن سؤال هام . .

إن القسم لا يكون إلا باسم معظم ، فكيف يقسم الخالق — جل وعلا — بمخلوقاته وقد ورد النهى عن القسم بغير الله ؟

أجاب العلماء والمفسرون على ذلك بأجوبة كثيرة .

منها : أن القسم جاء فى هذه الآيات على تقدير حذف المضاف — أى (ورب الشمس (ورب التين) . . وكذا الباقى .

ومنها : أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء ، وتقسم بها ، فنزل القرآن على ما يعرفون .

ومنها : أن الاقسام إنما تكون بما يعظمه المقسم أو يحبه ، وهو فوقه ، والله تعالى ليس شىء فوقه ، فأقسم تارة بنفسه ، وتارة بمصنوعاته ، لأنها تدل على أنه بارىء صانع (١).

واجتهد علماء كثيرون فى تبرير هذا الأمر والإجابة على هذا السؤال .

---

(١) معترك الأقران ١/٤٥١

فقال أبي الأصبع — فى أسرار الفواتح — القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع ، لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل ، إذ يستحيل وجود مفعول من غير فاعل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن ، قال : إن الله يقسم بما شاء من خلقه ، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله .

ومعروف أن الحق تبارك وتعالى أقسم بنبيه — صلى الله عليه وسلم — ليعرف الناس عظمته عند ربه ، ومكانته لديه . فقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس — رضى الله عنهما قال « ما خلق الله ولا ذرأ ولا برأ نفسا أكرم عليه من محمد — صلى الله عليه وسلم ، ولا سمعت الله أقسم بحياة مخلوق غيره قال :

« لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون »(١) .

فهذا قسم بحياة الرسول الكريم ، فيه كرامة له — صلى الله عليه وسلم — لأنه أقسم بحياة رسوله ، ولم يقسم بحياة غيره (٢) .

وقال ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) — فى كتابه التبيان — عن أقسام الحق تبارك وتعالى :

« أعلم أن سبحانه يقسم بأمور على أمور ، وإنما يقسم بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته . أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته ، وأقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته ..

فالقسم اما على جملة خبرية وهو الغالب كقوله : « فورب السماء والأرض إنه لحق »(٣) .

وأما على جملة طلبية ، كقوله « فوربك لنسألنهم أجمعين » (٤) مع أن هذا

---

(١) الحجر ٧٢ (٢) معترك الأقران ٢/١٩٩

(٣) الذاريات ٢٣ (٤) الحجر ٩٢

القسم قد يراد به تحقيق المقسم عليه ، فيكون من باب الخبر ، وقد يراد به تحقيق المقسم ، فالمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه ، فلا بد أن يكون مما نحن فيه وذلك كالأمور الغائبة الخفية ، إذا أقسم على ثبوتها ، فأما الأمور المشهودة الظاهرة . كالشمس ، والليل ، والنهار ، والسماء ، والأرض .. فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها .. وما أقسم عليه الرب فهو من آياته ، فيجوز أن يكون مقسما به ولا ينعكس وهو سبحانه يذكر جواب القسم تارة - وهو الغالب ، ويحذفه أخرى ، كما يحذف جواب « لو » كثيرا للعلم .

ولما كان القسم يكثر فى الكلام اختصر ، فصار فعل القسم يحذف ويكتفى بالباء ، ثم عوض من الباء الواو فى الأسماء الظاهرة ، والتاء فى اسم الله ، كقوله سبحانه :

« تالله لأكيدن أصنامكم »(١) .

ونظرة إمعان وتدبر فى آيات القرآن الكريم التى تبدأ بالقسم ، نجـــد أن الحق سبحانه إنما أقسم بآياته ومخلوقاته على أصول الإيمان التى يجب على الخلق معرفتها ..

فهو تارة يقسم على التوحيد ، من مثل قوله جل شأنه :

« والصافات صفاً ، فالزاجرات زجرا ، فالتاليات ذكرا إن إلهـــكم لواحد » (٢) .

وتارة يقسم على أن القرآن حق ، من مثل قوله فى سورة الواقعة :

« فلا أقسم بمواقع النجوم ، ولقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون « لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين » (٣) .

وتارة ثالثة يقسم على أن الرسول حق ، من مثل قوله سبحانه ..

« يس ، والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين » (٤) .

---

(١) الأنبياء ٥٧
(٢) الصافات ١ - ٤
(٣) الآيات ٧٥ - ٨٠
(٤) يس ١ - ٣

« فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين »(١) .

وتارة رابعة يقسم على الجزاء والوعد والوعيد ، من مثل قوله جل شأنه :

« والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا إنما توعدون لصادق »(٢) .

« والمرسلات عرفا ، فالعاصفات عصفاً ، والناشرات نشرا ، فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكراً ، عذرا أو نذرا ، إنما توعدون لواقع »(٣) .

وتارة خامسة يقسم على حال الإنسان ، من مثل قوله عظمت مشيئته :

« لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان في كبد »(٤)

« والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى » (٥)

« والتين والزيتون وطور سنين ، وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم »(٦) .

« والعاديات ضبحا فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا فوسطن به جمعاً ، إن الإنسان لربه لكنود »(٧) .

« والعصر إن الانسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »(٨).

---

(١) التكوير ١٥ — ٢١
(٢) الذاريات ١ — ٥
(٣) المرسلات ١ — ٧
(٤) البلد ١ — ٤
(٥) الليل ١ — ٤
(٦) التين ١ — ٤
(٧) العاديات ١ — ٦
(٨) العصر ١ — ٣

وأقسام القرآن العظيم إذا تأملناها بإمعان ، وجدناها إما ظاهرة وإما مضمرة ، أما الأقسام الظاهرة فهى كالآيات السابقة .

وأما الأقسام المضمرة فهى نوعان :

قسم دلت عليه اللام نحو : « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم »(١) .

وقسم دل عليه المعنى نحو : « وإن منكم إلا واردها »(٢) تقديره : والله .

أما الألفاظ الجارية مجرى القسم فهى صنفان :

أولهما : ما تكون كغيرها من الألفاظ التى ليست بقسم فلا تجاب بجوابه كقوله سبحانه : « وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين »(٣) .

وقوله عز شأنه : «وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة »(٤) .

وقوله تعالى : « يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم »(٥) .

وهذا ونحوه — كما قال أبو على الفارسى ، يجوز أن يكون قسما ، وأن يكون حالا لخلوه من الجواب .

والثانى : مايتلقى بجواب القسم فى قوله جل وعلا :

« وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه »(٦) .

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن ، قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون »(٧) .

ولقد ذكر علماء اللغة .. أن أكثر الأقسام فى القرآن ، المحذوفة الفعـــل لا تكون إلا بالواو ، فإذا ذكرت الباء ، أتى بالفعل . كقول الحق سبحانه :

---

(١) آل عمران ١٨٦ — (٢) مريم ٧١
(٣) الحديد ٨ — (٤) البقرة ٦٣
(٥) المجادلة ١٨ — (٦) آل عمران ١٨٧
(٧) النور ٥٣

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم » الآية .

« يحلفون بالله لكم ليرضوكم ، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين » (١) .

ولا نجد « الباء » مع حذف الفعل ، ومن ثم كان خطأ من جعل قسما بالله قوله تعالى : « إن الشرك لظلم عظيم » (٢) .

« ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون »(٣) .

« قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته »(٤) ..

وقال البلاغيون : وأكثر ما يحذف جواب القسم ، إذا كان فى نفس المقسم به دلالة على المقسم عليه ، فإن المقصود يحصل بذكره ، فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز كقول الحق تبارك وتعالى : « ص ، والقرآن ذى الذكر » (٥)

فإن فى المقسم به من تعظيم بالقرآن ووصفه بأنه ذو الذكر المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه ، والشرف والقدر ما يدل على المقسم عليه ، وهو كونه حقا من عند الله غير مفترى كما يقول الكافرون . ولهذا قال العلماء ، أن تقدير الجواب « أن القرآن لحق » وهذا مطرد فى كل ما شأنه ذلك ، كقوله تعالى :

« ق .. والقرآن المجيد .....»

وقوله « لا أقسم بيوم القيامة ... فإنه يتضمن إثبات المعاد .

وقوله عز شأنه « والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر هل فى ذلك قسم لذى حجر » الآيات .

فإنها أزمان تتضمن أفعالا عظيمة من المناسك ، وشعائر الحج التى هى عبودية محضة لله ، وذل وخضوع لعظمته ، وفى ذلك تعظيم ما جاء به محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام .

---

(١) التوبة ٦٢ (٢) لقمان ١٣

(٣) الزخرف ٤٩ (٤) المائدة ١١٦

(٥) ص ١

ومن أبدع آيات الإعجاز القرآنى ، ومن ألطف لطائف ماجاء فيه من القسم قول الحق تبارك وتعالى : « والضحى .. والليل إذا سجى .. . . . » السورة

قال ابن القيم ؛ « أقسم تعالى على انعامه على رسوله وإكرامه له . وذلك متضمن لتصديقه له ، فهو قسم على صحة نبوته ، وعلى جزائه فى الآخرة ، فهو قسم على النبوة والمعاد وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته » وتأمل مطابقة هذا القسم ، وهو نور الضحى الذى هو يوافى بعد ظلام الليل . للمقسم عليه وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه ، حتى قال أعداؤه : « ودع محمداً ربه ، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحى ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه ..

وهكذا جعل الحق سبحانه مفاهيم إعجاز قرآنه العظيم فى كلمات ، وجعل هذه الكلمات آيات معجزات ، فحيث نظر ناظر فى كتاب الله بقلب سليم . وعقل واع ، ونفس مجتمعة ، وجد وراء كل آية من الكتاب العزيز معجزة نيرة ، تغمر بنورها الآفاق كلها من حوله . فلا يرى إلا نورا علويا يشرح صدره للحق ويفتح قلبه للإيمان ..

« ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

(وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا) .

* * *

٩ ـ أسلوب التوهيم فى الذكر الحكيم

حفل القرآن الكريم بالكثير من الأساليب البيانية ، والعلوم البلاغية ، التى تدل على عظمة البيان الإلهى ، وروعة الأسلوب القرآنى .. فى مقدمة هذه الأساليب « أسلوب التوهيم » وهو أسلوب أراد الحق تبارك وتعالى ، أن يجعل منه آية من آيات إعجاز كتابه العزيز .

والتوهيم(١) كما عرفه علماء البيان ـ أن يأتى المتكلم بكلمة يوهم ما بعدها من الكلام ، أن المتكلم أراد تصحيفها ، وهو فى الحقيقة يريد غير ذلك ، إبرازا للفصاحة وإظهاراً للبلاغة .

ومن هنا يظهر لنا خطأ البلاغيين ، الذين ظنوا أن هذا من الوهم أو التوهم ، وأرادوا إطلاق ذلك عليه . وفرق كبير بين التوهيم والتوهم ، ذلك أن التوهم نابع من ذات نفس القارىء .. إنما التوهيم فتدخل فيه المقدرة على الإيهام ـ وهو فى القرآن الحكيم ـ أسلوب بيانى . ونمط كلامى ، أراد به الحق سبحانه ، إثبات القدرة الإلهية على صوغ الكلام وتطويعه . وحسن إخراجه بغية إعمال العقل ، وكد الفكر فى تفهمه ومتابعته .

لقد وجدنا أن أسلوب التوهيم يظهر فى الذكر الحكيم فى مجالات ثلاثة :

المجال الأول : أن يأتى فى ظاهر الكلام ما يوهم أن فيه لحنا خارجا عن اللسان العربى ، أى مخالفاً لقواعد العربية الفصحى .

المجال الثانى : أن يأتى ظاهر الكلام موهما أنه قد قلب عن وجهه لغير فائدة ..

المجال الثالث : ما يأتى دالا على أن ظاهر الكلام قليل المعنى ـ بينما هو صحيح ..

(١) فى بعض الكتب التوهم وهو خطأ ـ انظر بديع ابن المعتز ٤٤ ، خزانة ابن حجة ٣٩٢ ، وبديع القرآن ١٣١ .

أما المجال الأول .. وهو ما يوهم ظاهره أنه خارج عن قواعد العربية فمن مثل قوله تعالى :

« وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون » (١) هذه الآية خولف فيها طريق الإعراب في الظاهر ، من جهة عطف ماليس بمجزوم على المجزوم ليعدل عن الظاهر إلى تأويل يصحح المعنى المراد . فإن المراد بشارة المسلمين بأن هذا العدو لا ينصر أبداً ما قاتل المسلمين ، ليكتمل سرور المسلمين بخذلان عدوهم في الحال ، وأبدا في الاستقبال . ولو عطف الفعل الثاني على الفعل المتقدم المجزوم — على قاعدة العربية الظاهرة — لما أفاد سوى الاخبار بأن العـــدو لا ينتصر في الحال ، وفي زمن المقاتلة ، ووقت التولية ، ولا يعطى ذلك خذلانهم على الدوام في كل حال . فقد قال النحويون وعلماء اللغة : « إن الوجه في هذا الموضع أن يقال : » هو عطف الجملة على الجملة ، فإن التقدير ، (ثم هم لا ينصرون) ..

وهنا قد يقال .. لم عدل عن مجيء الكلام على قاعدة اللغة العربية المعروفة إلى ما يحتاج إلى التأويل ؟ .. ولم لم يذكر القرآن « وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصروا » .

قال العلماء : لما كان مجيء الكلام غير محتاج إلى تأويل لا يوفي بالمعنى المراد ، لأن المعنى المراد بشارة المسلمين بأن عدوهم متى قاتلهم كان مخذولا ، ومجيء الكلام على ما ذكر لا يوفي بذلك المعنى ، لأنه لا يعطى إلا عدم النصر حالة المقاتلة فقط ، فلذلك عدل عن ذلك إلى ما جاء به القرآن العظيم ، ليكون مجيء الفعل الثاني غير مجزوم وقد عطف على مجزوم منبها السامع على السبب الذي من أجله عدل عن قاعدة الإعراب ، فيتفطن السامع إلى أن ذلك إشارة إلى خذلان العدو أبداً ما قاتل المسلمين ، لمجيء الفعل دالا على الحال والاستقبال . أما الحال

---

(١) آل عمران ١١١

فخذلان العدو حالة القتال ، وأما الاستقبال ، فالبشارة بأنه كذلك ما و منه للقتال ولذلك جاء العطف فى هذه الآية بـ (ثم) من دون حروف النسق ، لما تدل عليه من التراخى والمهلة ، ليأتى بعض الألفاظ ملائما لبعض . فإن « ثم » — دون حروف العطف ملائمة لما عطفته من الفعل الدال على الاستقبال .

والمعجز حقاً فى هذه الآية . . ما وقع فى لفظة (ثم) على انفرادها من الإيضاح والاحتراس والتكميل والمقارنة والتنكيت والائتلاف والادماج والترشيح والإيغال . . كل ذلك إيضاحا لما تقدم من التوهيم . أضف إلى ذلك ما وضح فى صدر هذه الآية من التعليق والافتنان والمطابقة ، وحصل فى مجموعها من الإيجاز والإبداع والتهذيب وحسن البيان والمثل السائر فكان ما اجتمع فى جملة هـــذه الكلمات السبع — التى هى بعض آية — سبعة عشر ضربا من البديع والمحاسن والفنون .

وأعجب مافى هذه الآية الكريمة (وإن قاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لاينصرون) أن لفظة (ثم) على انفرادها ، وقع فيها من ذلك تسعة أضرب من البـــديع وهى الاحتراس والتنكيت ، والمقارنة ، والإيضاح ، والائتلاف ، والادماج والتكميل وحسن النسق ، كما أن فن الترشيح يوجد بوجودها ، وينعدم بعدمها فإنه لو قدرت (الواو العاطفة) موضع (ثم) بحيث يقال (ولا ينصرون) لسقطت هذه الضروب التسعة جميعاً .

ومما جاء فى الذكر الحكيم ظاهره موهما مخالفة القواعد العربية أيضا — قوله تعـــالى :

« قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً »(١) .

فإن ظاهر الكلام يدل على تحريم نفى الشرك ويلزمه تحليل الشرك ، وهذا خلاف المعنى المراد . والتأويل الذى يحل هذا الإشكال . أن الله سبحانه وتعالى

---

(١) الأنعام ١٥١

قال لنبيه — صلى الله عليه وسلم — قل لهؤلاء تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم . فلما اجتمعوا إليه قال لهم وصاكم ربكم ألا تشركوا به شيئاً . وبالوالدين إحسانا ، ثم ساق سبحانه بقية الوصايا .. فكأنه دعاهم إلى الاجتماع فلما اجتمعوا ذكرهم الوصايا .

ويشهد له صحة هذا الذى ذهبنا إليه — قوله تعالى بعد الفراغ من هذه الوصايا (ذلكم وصاكم به) . هذا على وجه الإيجاز — أما الذى يجب أن يقدر على طريق البسط والاطناب . أن يكون موضع (أتل ما حرم ربكم عليكم) أتل وصايا ربكم عليكم ولا يجوز أن يكون التقدير غير هذا ، لأن فى الوصايا المذكورة ما حرم عليهم ، وما هم مأمورون به ، فإن الشرك بالله ، وقتل الأولاد ، والتلبس بالفواحش الظاهرة والباطنة . وقتل النفس المحرمة ، وأكل مال اليتيم ، مما حرم ظاهراً وباطنا نهى عنه نهى تحريم بصريح النص ، ووفاء الكيل والميزان بالقسط ، والعدل فى القول ، فضلا عن الفعل ، والوفاء بالعهد واتباع الصراط المستقيم من الافعال المأمور بها ، أمر وجوب . فالأولى منهى عنها ، والأخرى مأمور بها ، وإن كانت أضداد المأمور بها محرمة منهيا عنها ، لكن تحريمها بالتأويل وباطن النص والمنهى عنها — تحريمها بظاهر النص وصريحه والوصايا قد جمعت ذلك كله وحمل جملة الآية على ظاهرها لا يطابق المعنى المراد فيها ، فوجب العدول عن الظاهر إلى التأويل الذى يوافق تشبيه التفسير المفسر .

فإن قيل .. فلم عدل عن لفظ التأويل .. ولم لم يأت التنزيل به؟ .. خاصة ولفظ التأويل — كما وضح الآن — أبلغ وأخصر .. به يرتفع الإشكال الوارد على ظاهر الكلام ، وتحريم الشرك هو أهم ما فى هذه الوصايا .

قلت .. لو جاء اللفظ بغير هذه الزيادة لامتنع عطف بقية الوصايا على الجملة المجردة من حرف النفى ، وتهلهل معنى الكلام واضطرب ، وجاء على ضد الصواب ، وفسد معناه فإنه يبقى تقديره : (حرم عليكم أن تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا) فيصير المعنى : (حرم عليكم الشرك والاحسان للوالدين) وهذا ضد المعنى المراد ، فلذلك جاء الكلام عليه ليفيد التصريح بتحريم

الشرك ظاهراً ، وجاءت الزيادة التي أوهم ظاهرها فساد المعنى ليلجيء إلى التأويل الذي يصح به عطف بقية الوصايا على ما تقدم .

ومثل هذا الموضع قوله تعالى : « ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك »(١) .

فإن الظاهر : « ما منعك من الامتناع من السجود » والتأويل الذي يوضح المعنى ويزيل التوهيم ، ويرد هذا الكلام إلى الصحة ، ما ذكره المفسرون قالوا : أن معنى قوله تعالى (ما منعك) .. ماصـيّرك ممتنعا من السجود .

وأما المجال الثاني — وهو الذي يوهم ظاهره أن الكلام قلب فيه عن وجهه لغير فائدة . فمن مثل قوله تعالى : « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء » (٢) ولو جاء الكلام على وجهه لكان « ومثل الذي تدعوا الذين كفروا كمثل الذي ينعق » أو لقيل : « ومثل الذين كفروا كمثل الضأن ، ومثل الذين يدعوهم كمثل الذي ينعق »

وهنا قد يقال : ما هي الفائدة الهامة في قلب هذا الكلام عن وجهه ؟

وما هي القيمة البلاغية والفائدة المعنوية التي أفادتها الآية على صورتها هذه ؟

فأقول : جرت العادة عند أهل اللسان أنهم يقلبون الكلام إذا أفاد قلبه فائدة لا يفيدها وهو على وجهه ، والفائدة التي أفادها هذا القلب مجيء الكلام غير منفر عن الرسول ، متضمنا أدبا معه ، صلى الله عليه وسلم .

فإن الكلام لو جاء على وجهه كما قيل آنفاً بحيث يقال : (ومثل الذين كفروا كمثل الضأن المنعوق بها ، ومثل الرسول الداعي لهم كمثل راعي الضأن الذي ينعق بما لا يسمع) والتصريح بتشبيه الكفار بالضأن — وهي عند العرب شرمال بدليل قول صغرى بنات ذي الإصبع العدواني ، وقد سألها أبوها عما سأل أخواتها عن مالهم . فقالت : الضأن ، فقال كيف تجدونها ؟ فقالت : « شر مال » ... الخ النص — منفر عن الرسول — صلى الله عليه وسلم — وفي

---

(١) الاعراف ١٢ (٢) البقرة ١٧١

التصريح بتشبيه الرسول عليه السلام بالراعى الذى ينعق بالضأن ، غض من مكانته ومخالفة الأدب فى مخاطبته . ومعلوم مدى مكانته — صلى الله عليه وسلم — عند ربه وتلطفه فى مخاطبته ، وما جاء بمثل ذلك فى القرآن العظيم إلا ليؤدبنا به ، ويعرفنا حقه ، ويعلمنا كيف نخاطبه .

فمن أجل ذلك قلب الكلام عن وجهه ، فحذف مع كل جملة من الجملتين شىء فحذف المشبه به من الجملة الأولى ، وحذف المشبه من الجملة الثانية ، فكان تقدير الكلام قبل الحذف : (ومثل الذين كفروا ، والداعى لهم كمثل الضأن المنعوق بها ، وكمثل الذى ينعق بها) فبق بعد الحذف .

(ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق) لدلالة الناعق على المنعوق بها ليأتى الكلام غير منفر ، جاريا على سنن الأدب مع الرسول — صلى الله عليه وسلم ، ولو جاء الكلام على وجهه لم يفد ذلك .

وأما المجال الثالث من مجالات التوهيم فى الذكر الحكيم . . فهو ما يأتى موهما أن ظاهر الكلام فاسد المعـــنى بينما هو صحيح . أى الذى يوهم ظاهره أن نظم الكلام جاء على غير طريق البلاغة . لكون لفظه غير مؤتلف بمعناه ، لما ترى بين الألفاظ من سوء الجوار لعدم الملاءمة ، وإذا تؤمل حق التأمل ، وجد جاريا على منهج البلاغة بحيث لو جاء على الصيغة التى توهمها المعترض لكان النظم معيباً .

ومثال هذا النوع .. قوله تعالى :

(مثل الفريقين كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع هل يستويان) (٢)

فإن العارف بظاهر نظم الكلام وتهذيبه دون باطنه ، يرى أن نظم هذه الآية قد أتى على غير طريق البلاغة . فإن طريق البلاغة أن يقال (كالأعمى والبصير ،

---

(١) هود ٢٤ .

والأصم والسميع (ليلائم بعض الألفاظ بعضا ، فتأتلف بمعانيها ، ويأتى فى جملة من الجملتين طباق لفظى .

وحقيقة الأمر — أنه على خلاف ما قد يتوهم أى متوهم ، لأن فى الكلام على الترتيب الذى جاء عليه تصحيح المعنى ، بينا فيه — على ما توهمه المتوهم فساد المعنى .

أن الحق — تبارك وتعالى — قال (مثل الفريقين) فاقتضى الأمر تفسير (الفريقين) فقال : « كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع) ليكون المشبه به قسمين ، وليكون المشبه وفق عدد الفريقين ، أحد الفريقين مبتلى . والآخر معافى ليضاد بين الفريقين ، حتى يصح السؤال عن التسوية بينهما مع تضادهما من باب تجاهل العارف للسؤال عن معلوم لقصد التوبيخ ، ولو قيل « كالأعمى والبصير) لكانت هذه الجملة فريقين ، ثم يعود فيقول : (والأصم والسميع) فتكون الجملة الأخرى فريقين آخرين ، فيكون قد فسر الفريقين بأربعة ، وهذا فساد ظاهر . .

فلذلك عدل عن الملاءمة فى ظاهر الكلام إلى ما هو أهم منها وهو تصحيح المعنى المراد .

وآية كريمة أخرى — ادعى فيها بعض الجاهلين المتوهمين « عدم الملاءمة » وهو قول الحق عز شأنه : « أن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى »(١) .

قالوا : لو قيل « لا تجوع ولا تظمأ ، ولا تضحى ولا تعرى » لكان ذلك جاريا على ما توجبه البلاغة من الملاءمة .

فنقول : إن مجيئها على ما توهمه المتوهم يفسد معنى النظم وجماله أيضاً . . لأنه لو قيل « أن لك ألا تجوع فيها ولا تظمأ » لوجب أن يقال أيضا (وأنك

---

(١) طه ١١٧ — ١١٩

لا تعرى فيها ولا تضحى) والتضحى البروز للشمس بغير سترة ، وإلى هـــنا المعنى أشار الشاعر الحنلى بقوله :

سلبت عظامى لحما فتركتها   مجردة تضحى لديك وتخصر (١)

أى تلق الشمس الضاحية مجردة فينال منها حرها ، وتلق برد الليل مجردة ، فينال منها برده ، فهى معذبة نهارها وليلها ، ولما كان التضحى هـــو البروز للشمس بغير ستره . فإن معناه التعرى ، فيصير مضمون الكلام (وأنك لا تعرى فيها ولا تعرى) ..

وهـنا فساد فى المعنى ظاهرا :

ولما كان هذا الفساد لاحقاً بالنظم على الوجه الذى توهمه المتوهم وجب العدول عنه إلى لفظ القرآن العظيم ، وهو أن يقدم لنفى الجوع نفى العرى لتطمئن النفس بسد الجوعة ، وستر العورة ، اللذين تدعو إليهما ضرورة الحيـــاة ، وتطلبهما طبيعة الإنسان .

ولما كان الجوع متقدما على العطش ، كتقديم الأكل على الشراب ، أوجبت الحكمة الإلهية والبلاغة القرآنية ، تأخر ذكر الظمأ عن الجوع . وتقديمه على التضحى لأنه مهم يجب أن يتقدم الوعد بنفيه الجوع ، ويتأخر ذكر التضحى كما تأخر ذكر العرى عن الجوع ، لأن التضحى من جنس العرى ، والظمأ من جنس الجوع ..

فإن قالوا .. لم ذكر التضحى — وهو عرى فى المعنى — وقد أغنى ذكـر العرى ؟.

قلنا : لقد علم الحق تبارك وتعالى ، أن فى ذكر التضحى فائدة كبيرة وهى

---

(١) البيت فى تاريخ بغداد ٤/ ١٦٠

وصف الجنة (١) وقد وصف الحق سبحانه وتعالى - الجنة بأنها لا شمس فيها كما قال سبحانه (لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا)(٢) - فإن التضحى عرى مخصوص مشروط بالبروز للشمس وقت الضحى ، لذلك سمى تضحيا ، والانتقال من الأعم إلى الأخص حكمة وبلاغة ، لاختصاص الأخص بما لا يوجد فى الأعم .

وهل هناك آية أسمى من هذه الآيات ، وهل هناك إعجاز أبلغ من هذا الإعجاز إنه إعجاز بلغ حد الروعة . . وصدق الحق تبارك وتعالى إذ يقول : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا »(٣) .

* * *

---

(١) فى قوله تعالى (فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) سورة طه ١١٧ - ١١٩ .

(٢) الدهر ١٣ (٣) الشورى ٥٢

١٠ – الالتفات فى القرآن العظيم

ومن أروع الأساليب البلاغية التى احتفل بها القرآن العظيم .. أسـلوب الالتفات .

والالتفات .. مأخوذ من إلتفات الإنسان من يمينه إلى شماله ، ومن شماله إلى يمينه . وفائدته العامة – أن المتكلم إذا انتقل بكلامه من أسلوب إلى أسلوب . كان ذلك أدخل فى القلوب عند السامع ، وأحسن لنشاطه ، ودافعاً قوياً لإصغائه .

والالتفات فى مفهوم البلاغيين .. نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدراراً للسامع، وتجديداً لنشاطه ، وصيانة لخاطره من الملال والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه . وفي هذا يقول الشاعر :

لا يصلح النفس إن كانت مصرفة   إلا التنقل من حال إلى حال

وقد فسره قدامة بن جعفر بقوله : (١) هو أن يكون المتكلم آخذاً فى معنى فيعترضه إما شك فيه ، أو ظن أن رادًّا ردَّه عليه . أو سائلا سأله عنه أو عن سببه ، فيلتفت قبل فراغه من التعبير عنه ، فإما أن يجلى شكه ، أو يؤكده ويقرره أو يذكر سببه . ومثاله قوله تعالى : « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين »(٢) .

فى هذه الآية الكريمة – أراد الحق تبارك وتعالى ، أن يضمن آية التحدى ضربا آخر من الإعجاز بإخباره عن وقوع ما لم يقع بعده من عجز من العرب عن معارضة سورة من القرآن ليكون جريان هذا الخبر الصادق على لسان نبيه ، حتى إذا وقع كان علما على صدقه ، فرد المكذبين وثبت المؤمنين فقال : « ولن

---

(١) نقد الشعر ص ٥٣ طبع الجوائب بمصر سنة ١٣٠٢ هـ .

(٢) البقرة ٢٤ .

تفعلوا ، قبل أن يتم الكلام الأول بقوله « فاتقوا النار » وكان تأخير هذه الجملة عكنا بحيث يقال : « فإن لم تفعلوا فاتقوا النار ولن تفعلوا » لكن لهذا التقديم والتأخير تأثيرا فى النظم يجعل له فى القلوب من الجلالة والتفخيم والرونق . مالا يعبر عنه ، ولا يعرف لذلك سبب ظاهر إلا وقوع تجنيس الازدواج بقوله « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا » ، وفى المعنى تقديم هذا المهم . فإن زيادة علم من أعلام النبوة فى الكلام مقدم على الموعظة .

والالتفات جاء فى القرآن العظيم على وجوه كثيرة كلها تشهد بعظمة البيان الإلهى ..

الأول : الالتفات من صيغة المتكلم إلى صيغة الخطاب :

والقصد منه ، حث السامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه ، وأنه أعطاه فضل عناية وتخصيص بالمواجهة من مثل قوله تعالى :

« وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون »(١) .

فالأصل : (وإليه أرجع) فالتفت من المتكلم إلى الخطاب والقيمة البلاغية هنا أنه أخرج الكلام فى معرض مناصحته لنفسه ، وهو يريد نصح قومه ، تلطفا وإعلاما أنه يريد لهم ما يريده لنفسه ، ثم التفت إليهم لكونه فى مقام تخويفهم ودعوتهم إلى الله . وأيضاً — فإن قومه لما أنكروا عليه عبادته لله ، أخرج الكلام معهم بحسب حالهم فاحتج عليهم بأنه يقبح منه أنه لا يعبد فاطره ومبدعه ثم حذرهم بقوله (وإليه ترجعون) لذا جعلوه من الالتفات . والمعنى .. كيف لا أعبد من إليه رجوعى . وإنما ترك عبارة (وإليه أرجع) إلى (وإليه ترجعون) لأنه واحد منهم . داخل فيهم ، وقد أفاد الالتفات هنا فائدة حسنة . وهى أنه ينبههم أنه مثله فى وجوب عبادة من إليه الرجوع .

---

(١) يس ٢٢ .

الوجه الثاني : الالتفات من صيغة التكلم إلى صيغة الغيبة :

والقصد منه ، أن يفهم السامع أن هذا نمط المتكلم وقصده من السامع حضر أو غاب . وأنه فى كلامه ليس ممن يتلون ويتوجه والمراد بالانتقال من صيغة التكلم إلى الغيبة .. الإبقاء على المخاطب من قرعة فى الوجه بسهام الهجر . فالغيبة أروح له .. كقوله تعالى : « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحى ويميت فآمنوا بالله ورسوله »(١) ولم يقل (بى) وأسلوب الإلتفات فى هذه الآية الكريمة أفاد فائدتين :

الأولى : دفع التهمة عن نفسه بالعصبية لها .

والثانية : تنبيههم على استحقاقه الاتباع بما اتصف به من الصفات المذكورة من النبوة والأمية ، التى هى أكبر دليل على صدقه ، وأنه لا يستحق الاتباع لذاته بل لهذه الخصائص .

ومن هذا الوجه أيضاً قوله عز وجل (إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك) حيث لم يقل (لنا) تحريضا على أداء الصلاة لحق الربوبية .

الوجه الثالث : الالتفات من صيغة الخطاب إلى صيغة الغيبة :

كقوله تعالى : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم » .

فقد التفت عن « كنتم » إلى (جرين بهم) وفائدة الالتفات هنا .. العدول عن خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم ، لتعجبه من ظلم وكفرهم ، إذ لو استمر على خطابهم لفاتت تلك الفائدة .

وقال بعض المفسرين .. لأن الخطاب أولا كان مع الناس ، مؤمنهم وكافرهم بدليل قوله تعالى : (هو الذى يسيركم فى البر والبحر) فلو قال (وجرين بكم) للزم الذم للجميع : فالتفت عن الأول للإشارة إلى الاختصاص بهؤلاء الذين شأنهم ما ذكره عنهم فى آخر الآية ، فعدل عن الخطاب العام إلى الذم الخاص ببعضهم وهم الموصوفون بما أخبر به عنهم .

---

(١) الأعراف ١٥٨ (٢) يونس ٢٢

وقالوا أيضاً : لأنهم وقت الركوب خافوا الهلاك وتقلب الرياح ، فنادام نداء الحاضرين .

الوجه الرابع : الالتفات من الغيبة إلى التكلم :

من مثل قوله تعالى : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله) (١) .

وقوله عز وجل : (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه)(٢) .

وفائدته : أنه لما كان سوق السحاب إلى البلد إحياء للأرض بعد موتها بالمطر دالا على القدرة الباهرة ، والآية العظيمة التى لا يقدر عليها غيره ، عدل عن لفظ الغيبة إلى التكلم ، فقال : (فسقناه) لأنه أدخل فى الاختصاص وأدل عليه وأفخم . وفيه معنى آخر .. وهو أن الأقوال المذكورة فى هذه الآية منها ما أخبر به سبحانه بسببه ، وهو سوق السحاب ، فإنه يسوق الرياح ، فتسوقه الملائكة بأمره ، وإحياء الأرض به بواسطة إنزاله ، وسائر الأسباب التى يقتضيها حكمه وعلمه وعادته سبحانه فى كل هذه الأفعال — أن يخبر بها بنون التعظيم ، الدالة على أن له جندا وخلقاً قد سخرهم فى ذلك . كقوله تعالى : (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه)(٣) — أى إذا قرأه رسولنا جبريل . وأما إرسال السحاب فهو سحاب يأذن فى إرسالها . ولم يذكر له سبباً ، بخلاف سوق السحاب وإنزال المطر ، فإنه قد ذكر أسبابه : (أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانه)(٤) .

وقد أشار الزمخشرى إلى فائدة الالتفات إلى المتكلم فى هذه المواضع فقال : « التنبيه على التخصيص بالقدرة » .

---

(١) الاسراء ١ (٢) فاطر ٩
(٣) القيامة ١٨ (٤) فاطر ٢٧ .

الوجه الخامس : الالتفات من صيغة الغيبة إلى صيغة الخطاب :

كقوله سبحانه : (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا) (١) ولم يقل : (لقد جاءوا) للدلالة على أن من قال مثل قولهم ينبغى أن يكون موبخاً منكراً عليه قوله ، كأنه يخاطب به قوما حاضرين .

وقوله جل شأنه : (مالك يوم الدين ، إياك نعبد) فقد إلتفت عن الغيبة وهو (مالك) إلى الخطاب فقال : (إياك نعبد) .

ولك أن تقول — إن كان التقدير : (قولوا الحمد لله) فى الكلام المأمور به إلتفاتان :

أحدهما : فى لفظ الجلالة ، فإن الله تعالى حاضر ، فأصله (الحمد لك)

والثانى : (إياك) لمجيئه على خلاف الاسلوب السابق ، وإن لم يقدر (قولوا) كان فى (الحمد لله) التفات عن صيغة التكلم إلى صيغة الغيبة ، فإن الله سبحانه حمد نفسه ، ولا يكون فى (إياك نعبد) إلتفات ، لأن (قولوا) مقدرة معها قطعاً .

والحقيقة — أن سورة الفاتحة تختص بالعديد من اللطائف التى تبرز وجه الحسن فى هذا الإعجاز البيانى . فإن العبد إذا افتتح حمد مولاه الحقيق بالحمد عن قلب حاضر ، ونفس ذاكرة لما هو فيه ، بقوله (الحمد لله) الدال على اختصاصه بالحمد ، وأنه حقيق به . وجد من نفسه لا محالة محركا للاقبال عليه فإذا انتقل على نحو الافتتاح إلى قوله (رب العالمين) الدال على أنه مالك للعالمين ، لايخرج منهم شىء عن ملكوته وربوبيته ، قوى ذلك المحرك ، ثم إذا انتقل إلى قوله (الرحمن الرحيم) الدال على أنه منعم بأنواع النعم جلائلها ودقائقها ، فتضاعفت قوة ذلك المحرك . ثم إذا انتقل إلى خاتمة هذه الصفات العظام ، وهى قوله (مالك يوم الدين) الدال على أنه مالك للأمر كله يوم الجزاء ، تناهت قوته ،

---

(١) مريم ٨٨ ، ٨٩

وأوجب الإقبال عليه ، وخطابه بتخصيصه بعناية الخضوع والاستعانة فى المهمات .

ومنا وجه من الالتفات — ناتج عن بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله أو تكلمه فيكون إلتفاتاً عنه ، كقوله تعالى : (غير المغضوب عليهم) بعد (أنعمت) فإن المعنى (غير الذين غضبت عليهم) .

ومن أبدع ما جاء فى القرآن العظيم من الالتفات .. نوع غريب جداً ..

وهو أن يقدم المتكلم فى كلامه مذكورين مرتين ، ثم يخبر عن الأول منهما ، وينصرف عن الاخبار عنه إلى الإخبار عن الثانى ، ثم يعود فينصرف عن الإخبار عن الثانى إلى الإخبار عن الأول . وقد جاء هذا اللون من الالتفات فى سورة العاديات فى قوله تعالى : « إن الإنسان لربه لكنود ، وأنه على ذلك لشهيد »(١) .

انصرف عن الإخبار عن الانسان إلى الإخبار عن ربه تبارك وتعالى . ثم قال منصرفا عن الإخبار عن الرب عز وجل إلى الإخبار عن الإنسان : « وأنه لحب الخير لشديد » وهذا النوع يسميه البيانيون « التفات الضمائر » .

ومن الالتفات الجميل حقا — قوله تعالى فى سورة الأعراف :

« يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً — ولباس التقوى ذلك خير — ذلك من آيات الله »(٢) .

فنى قوله عز وجل : (ولباس التقوى ذلك خير) فإنه سبحانه لما امتن على البشر بما أنزل عليهم من اللباس الموارى سوآتهم بعد سياق قصة خروج أبيهم من الجنة بغير لباس ، وأراد تذكيرهم وحثهم على التقوى — وهو الخوف من الله أن يسلبهم نعمه لمتابعتهم الشيطان — قال قبل تمام الامتنان (ولباس التقوى ذلك خير) فإن الحث والتحريض على التقوى من جملة الامتنان .

---

(١) الآيات – ٧ (٢) الآية ٢٠

وكان يمكن فى هذه الآية ما أمكن فى التى قبلها من تأخير هذه الجملة بحيث يقال :

« قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ذلك من آيات الله ، ولباس التقوى ذلك خير » — وإنما تأخر فى الكلام ما كان يجوز تقديمه ليحصل فى نظم الكلام نوع من المحاسن يسميه علماء البيان « التعطف »

على أن سر الجمال الحقيق — فى هذا الأسلوب القرآنى ، إنما يكمن فى فوائده وأسبابه .

فللالتفات — كما ذكر البلاغيون — فوائد عامة .. وفوائد خاصة :

فمن فوائده العامة : التفنن والانتقال من أسلوب إلى آخر لما فى ذلك من تنشيط السامع واستجلاب صفائه ، واتساع مجارى الكلام . قال البيانيون : إن الكلام إذا جاء على أسلوب واحد وطال ، حسن تغيير الطريقة ، ونازعهم القاضى شمس الدين بن الجوزى وقال : « الظاهر أن مجرد هذا لا يكفى فى المناسبة فإنا رأينا كلاما أطول من هذا ، والأسلوب محفوظ ... إنما المناسبة : أن الإنسان كثير التقلب ، وقلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن ، يقلبه كيف يشاء فإنه يكون غائباً فيحضر بكلمة واحدة ، وأخر يكون حاضرا فيغيب ، فالله تعالى لما قال : « الحمد لله رب العالمين » تنبه السامع وحضر قلبه . فقال : « إياك نعبد وإياك نستعين » .

أما فوائده الخاصة : .. فكثيرة . وتختلف باختلاف محاله ومواقع الكلام فيه على ما يقصده المتكلم فمنها : قصد تعظيم شأن المخاطب . كما فى صورة الفاتحة .

ومنها : التنبيه على ما حق الكلام أن يكون واردا عليه . كقوله تعالى :

« ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون » . فأصل الكلام : « ومالكم لا تعبدون الذى فطركم » ولكنه أبرز الكلام فى معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ، ليتلطف بهم ، ويريهم أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه ، ثم

لما انقضى غرضه من ذلك قال (وإليه ترجعون) ليدل على ما كان من أصل الكلام ومقتضيا له ، ثم ساقه هذا المساق إلى أن قال : (آمنت بربكم فاسمعون) .

ومنها : قصد المبالغة ، كقوله تعالى (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليتعجب منها ، ويستدعى منه الإنكار والتقبيح لها . إشارة منه على سبيل المبالغة إلى أن ما يعتمدونه بعد الإنجاء من البغى فى الأرض بغير الحق مما ينكر ويقبح .

وهكذا جعل العلى القدير مفاهيم هذا الإعجاز البيانى فى كلمات ، وجعل هذه الكلمات آيات معجزات .

* * *

١١ — أسلوب التوكيد فى القرآن المجيد

ومن فنون القول التى تدل على عظمة الرحمن وروعة القرآن .. ما جاء فى الكتاب المجيد على وجه التوكيد .

والتوكيد — أو التأكيد — نمط قولى — القصد منه كما دل عليه القرآن . الحمل على ما لم يقع ، ليصير واقعاً . ويفسر هذا القول . تعريف النحويين له — بأنه تابع للتقرير ، أى يذكر تقريراً لمتبوعه لرفع احتمال التجوز أو السهو ، ولهذا لم يؤكد القرآن الماضى ولا الحاضر لئلا يلزم تحصيل الحاصل ، وإنما أكد القرآن المستقبل .

وحول التوكيد — فى القرآن المجيد — وقع خلاف كبير :

فبينما أجمع جمهور الأمة على وقوعه فى القرآن . بل وفى السنة أيضاً ، خرج قوم من الجاهلين الواهمين ينكرون وجوده ، ليس فى القرآن والسنة فحسب . بل فى اللغة أيضاً . لأن التوكيد لا بد وأن يفيد معنى زائداً على الأول . واعترض الملحدون على القرآن والسنة بما فيها من التأكيدات ، وقالوا أنه لا فائدة فى ذكرها زاعمين : أن من حق البلاغة فى النظم إيجاز اللفظ ، واستيفاء المعنى ، وخير الكلام ما قل ودل ولا يمل ، والإفادة خير من الإعادة ، وظنوا أنه إنما يجىء لقصور النفس عن تأدية المراد بغير تأكيد .. ولهذا أنكروا وقوعه فى القرآن (١) .

ولقد رد عليهم العلماء من أهل السلف ، بأن القرآن نزل على لسان القوم ، وفى لسانهم التأكيد ، بل هو عندهم معدود فى الفصاحة والبراعة . ومن أنكر

(١) انظر البرهان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ٣٨٨ وما بعدها .

وجود التأكيد في القرآن فهو كثير، إذ لولا وجوده لم يكن لتسميته «تأكيداً» فائدة، فإن الاسم لا يوضع إلا لمسمى معلوم، وله فوائد كثيرة.

هذه قضية أردت أن أوضحها. وأقل صورة من صور الخلاف والادعاء التي كان مارسها الملحدون والمغرضون حول أساليب القرآن وكيف كان الطلبة من السلف الصالح يتصدون لمثل هذه الادعاءات لتفنيدها ودحض حججها.

إن التوكيد — كما لمسناه في القرآن المجيد — قسمان: توكيد لفظي، وآخر معنوي. أما القسم الأول — وهو التوكيد اللفظي، فيقصد به تقرير المعنى، إما باللفظ نفسه أو بمرادفه. فمن التوكيد بمرادف اللفظ .. قول الحق سبحانه «فجاجا سبلا» (١) وقوله «ضيقا حرجا» (٢) في قراءة كسر الراء، وهي قراءة حكيت عن القراء. وقوله «وغرابيب سود» (٣).

أما التوكيد باللفظ .. وهو أكثر ما يكون في الاسم النكرة، فهو من مثل قوله تعالى «قواريرا قواريرا» (٤). وجعل ابن مالك وابن عصفور من هذا التأكيد قوله سبحانه «دكا دكا» (٥) و«صفا صفا» (٦). وهذا القول مردود لأنه جاء في التفسير أن معنى (دكا دكا) دكا بعد دك. وأن الدك كرر عليها حتى صار هباء منثوراً. وأن معنى (صفاً صفا) أنه تنزل ملائكة كل سماء يصطفون صفاً بعد صف محدقين بالإنس والجن، وعلى هذا فليس الثاني منهما تأكيداً للأول بل المراد به التكثير.

وقد ذكر ابن جني في قوله تعالى: «إذا وقعت الواقعة» (٧): إذا رجت: إن (رجت) بدل من «وقعت». وكررت «إذا» تأكيدا لشدة امتزاج المضاف بالمضاف إليه.

---

(١) الأنبياء ٣١ (٢) الأنعام ١٢٥.

(٣) فاطر ٢٧ (٤) الانسان ١٥، ١٦

(٥) و(٦) الفجر ٢١، ٢٢ (٧) الواقعة ١—٤.

والتوكيد قد يكون أيضاً باسم الفعل كقوله عز وجل « هيهات هيهات لما توعدون » (١) وقد يكون بالجملة — نحو قوله سبحانه « فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا »(٢) ولكون الجملة الثانية للتوكيد — سقطت من مصحف ابن مسعود . ومن قراءته هكذا قال الزمخشري (٣) والأكثر في التوكيد بالجملة فصل الجملتين بـ « ثم » ، كقوله تعالى : « وما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما أدراك ما يوم الدين »( ) وقوله عز شأنه « كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون » .

أما القسم الثاني — وهو التوكيد المعنوي: فهو وإن كان يقصد به تقرير المعنى إلا أنه يستخدم مجموعة من الأدوات مثل : النفس والعين وكلا وكلتا وكل وجميع وعامة — لرفع احتمال المجاز . ومنه قول الحق تبارك وتعالى حكاية عن يوسف(٥) « وأتوني بأهلكم أجمعين » . فلم يرد بهذا أن يجتمعوا عنده ، وإن جاءوا واحدا بعد واحد ، وإنما أراد اجتماعهم في المجئ إليه . وألا يتخلف منهم أحد ، وهذا يعلم من السياق والقرينة .

ومن القرينة التي تدل على ذلك في قصة الملائكة — لفظا ومعنى — وهو قوله سبحانه : (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) (٦) — ان قوله (كلهم) يفيد الشمول والإحاطة . فلا بد أن يفيد (أجمعون) قدرا زائدا على ذلك ، وهو اجتماعهم في السجود ، هذا في اللفظ وأما المعنى ، فلأن الملائكة لم تكن ليتخلف أحد منهم عن امتثال الامر ، ولا يتأخر عنده . ولا سيما وقد وقت لهم بوقت وحد لهم بحد ، وهو التسوية ، ونفخ الروح ، فلما حصل ذلك سجدوا كلهم عن آخرهم في آن واحد ، ولم يتخلف منهم أحد .

أما ما نقل عن بعض المتكلمين — من أن السجود لم يستعمل على الكل

---

(١) المؤمنون ٣٦
(٢) الانشراح ٥
(٣) الكشاف ٤/٦١٥
(٥) الانفطار ١٧، ١٨
(٥) التكاثر ٣، ٤
(٦) يوسف ٩٣ .
(٧) الحجر ٣٠

بدليل قوله « استكبرت أم كنت من العالين »(١) فمردود ، بل « العالين » المتكبرون . وقد جاء فى رسائل إخوان الصفا (٢) : أن « العالين » هم العقول العاقلة التى لم تسجد ، وهو تحريف . حيث لم يقم أى دليل على إثبات هذه العقول التى تدعيها الفلاسفة .

ويحضرنا هنا — الخلاف الذى وقع حول إبليس — هل هو من الملائكة أم لا؟

والحقيقة الذى ذكرها العلماء . . . أنه ليس منهم عنصراً . فنى صحيح مسلم(٣) « خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجان من النار ، وخلق آدم مما وصف لكم . فإبليس منهم حكماً لدخوله فى الخطاب بالأمر بالسجود معهم ، ولو كان من غيرهم لم يدخل معهم هكذا قرر المفسرون .

وللتوكيد فى القرآن المجيد وجوه كثيرة وأغراض عديدة ..

أولها : قصد تحقيق المخبر به ... كقول رب العزة : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) (٥) فأكد بـ (إن) و بـ (إسم الفاعل) مع أنهم ليسوا بشاكين فى الخبر .

ومثل قوله سبحانه (إنك ميت وإنهم ميتون)(٦) .

وثانيها : الترغيب . . . كقول الحق جل شأنه « فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم »(٦) أكده بأربع مؤكدات وهى : إن ، وضمير الفصل ، والمبالغتان مع الصفتين له ، ليدل على ترغيب الله العباد فى التوبة ، فإنهم إذا علموا ذلك طمعوا فى عفوه .

وثالثها : الإعلام بأن المخبر به كله من عند الله .. كقوله تعالى : (فإما

---

(١) ص ٧٥ (٢) البرهان ٢/٣٨٨
(٣) ج ٤/٢٢٩٤ . (٤) البقرة ٣٠
(٥) الزمر ٣١ (٦) البقرة ٣٠
(٧) البقرة ٣٧ .

يأتينكم منى هدى ، دون الاقتصار على ، يأتينكم هدى ، قال المفسرون : فيــه إشارة إلى أن الخير كله منه وعليه قول رب العزة : قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور »(١) .

ورابعها : التعريض بأمر آخر : كقوله عز شأنه ، قالت رب إنى وضعتها أنثى »(٢) تعريضاً بسؤال قبولها فإنها كانت تطلب النذر ذكراً .

كقوله تعالى : « رب إنى ظلمت نفسى »(٣) .

وهنا يجب أن ننتبه إلى درجات التوكيد ، ذلك أن التوكيد إنما جاء فى القرآن المجيد للحاجة إليه . والتحرز عن ذلك مالا فائدة له .

— فإن كان المخاطب ساذجا ألقى إليه الكلام خاليا من التوكيد .

— وإن كان مترددا فيه ، فإن القرآن يقويه بمؤكد ما .

— أما إذا كان المخاطب منكراً .. فهنا نجد أن القرآن العظيم يؤكد تأكيداً قوياً ، يضحد كل إنكار ، ويراعى فى القوة والضعف حال المنكر ..

ويتضح هذا القول — من قول الحق تبارك وتعالى — على ألسنة رسل عيسى عليه السلام « ربنا يعلم »(٤) . لقد أخبر الحق عز شأنه — أن كفار قرية أنطاكية كذبوا رسل عيسى عليه السلام بقوله : « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون ، قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، ما أنزل الرحمن من شىء ، إن أنتم إلا تكذبون ، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ، وما علينا إلا البلاغ المبين »

وذلك أن الكفار نفوا الرسالة التى حملها الرسل بثلاثة أشياء :

---

(١) يونس ٥٢ (٢) آل عمران ٣٦

(٣) القصص ١٦ (٤) يس ١٣ — ١٧

الأول : قولهم « ما أنتم إلا بشر مثلنا » .

والثاني : قولهم : « ما أنزل الرحمن من شيء » .

والثالث : قولهم : « إن أنتم إلا تكذبون » .

فقوبلوا على نظيره بثلاثة أشياء تؤكد صدق رسالتهم ..

الأول : قولهم « ربنا يعلم » ووجه التأكيد فيه أنه في معنى القسم .

والثاني : قوله : « إنا إليكم لمرسلون »

والثالث : قوله تعالى : « وما علينا إلا البلاغ المبين »

— وقد يخاطب القرآن المنكر كغير المنكر .. وقد يعامل غير المنكر كالمنكر .

وقد اجتمعا معاً في قول اللطيف الخبير تبارك وتعالى :

« ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » (١) .

حيث أكدت الإماتة تأكيدين وإن لم ينكروا ، لتنزيل المخاطبين — الذين تمادوا في الغفلة . منزلة من ينكر الموت ، وأكد إثبات البعث تأكيداً واحداً وإن كان أكثر . لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديراً بألا ينكر ويتردد فيه حثاً لهم على النظر في أدلته الواضحة .

وقد برع القرآن المجيد في استخدام أدوات التوكيد ، ووضع كلا منها في مكانه وموضعه الدقيق .. فمن مؤكدات الجمل الاسمية في القرآن :

التأكيد بـ (إن) . نحو قوله عز وجل : « يا أيها الناس إن وعد الله حق » (٢) .

---

(١) المؤمنون ١٥ — ١٦ (٢) فاطر ٥

وقوله تعالى : « اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم »(١) .

أمرهم بالتقوى ثم علل وجوبها مجيبا لسؤال مقدر بذكر الساعة ، واصفاً لها بأهول وصف ليقرر عليه الوجوب .

وكذا قوله جل وعلا « ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون » (٢) .

أى لا تدعني في شأنهم ، واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ، لأنهم محكوم عليهم بالإغراق وقد جف به القلم فلا سبيل إلى كفه عنهم .

ومنه قوله تعالى : « وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربي ، إن ربي غفور رحيم » (٣) ، فإن قوله تعالى : « وما أبرىء نفسي » أورث للمخاطب حيرة ، كيف لا ينزه نفسه مع كونها مطمئنة زكية ، فأزال حيرته بقوله تعالى : « إن النفس لأمارة » أى في جميع الأشخاص « بالسوء » إلا من عصمه الله .

— ومن مؤكدات الجمل الإسمية — في القرآن — لام الابتداء : نحو قوله تعالى : « إن ربي لسميع الدعاء »(٤) فاللام تفيد تأكيد مضمون الجملة ، ولهذا زحلقوها في باب (إن) عن صدر الجملة كراهة إبتداء الكلام بمؤكدين . ومنها تأكيد الضمير . . ويجب أن يؤكد الضمير المتصل بالمنفصل ، إذا عطف عليه كقوله تعالى : « أسكن أنت وزوجك الجنة » (٥) وقوله جل شأنه « اذهب أنت وربك » (٦) .

وقد اختلف العلماء في هذا النوع من التأكيد . .

فمنهم من قال : لا يجب التأكيد هنا ، بل يشترط الفاصل بينهما ، بدليل قوله

---

(١) الحج ١ (٢) هود ٣٧
(٣) يوسف ٥٣ (٤) ابراهيم ٣٩
(٥) البقرة ٣٥ (٦) المائدة ٢٤

تعالى : « ما أشركنا ولا آباؤنا »(١) فعطف « آباؤنا » على المضمر المرفوع . وليس هنا تأكيد ، بل فاصل وهو (لا) . وهذا القول لا حجة فيه ، لأنها دخلت بعد واو العطف والذى يقوم مقام التأكيد إنما يأتى قبل واو العطف ، كالآيات المتقدمة ، بدليل قوله تعالى : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك » (٢)

ومن العلماء من لم يشترط فاصلا . . بدليل قوله عز وجـــل : « إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين » (٣) فأكد السحرة ضمير أنفسهم فى الإلقاء دون ضمير موسى حيث لم يقولوا : « إما أن تلقى أنت » . وفى هذا القول دليل — على أنهم أحبوا التقديم فى الالقـــاء لعلمهم بأنهم يأتون بسحر عظيم يقرر عظمته فى أذهان الحاضرين ، فلا يرفعها ما يأتى بعدها — على زعمهم — وإنما ابتدأوا بموسى فعرضوا عليه البدء بالإلقاء على عادة العلماء وأرباب المهن فى تأدبهم مع قرنائهم .

وأقول أيضا — أنه لم يؤكد فى الآية ، لأنه استغنى عن التأكيد بالتصريح بالأولية فى قوله : « وإما أن نكون أول من ألقى » وهذا جواب بيانى لا نحوى

وقد يقال — ما وجه هذا الاطناب ؟ وهلا قالوا : « إما أن تلقى وإما أن نلقى » ذكر العلماء لهذا الأمر جوابين ؛ أولها لفظى ، والثانى معنوى .

فأما الجواب الأول - فلأن المزاوجة لرؤوس الآى على سياق خواتمها من أول السورة إلى آخرها . وأما الجواب المعنوى - فهو أن الحق تبارك وتعالى ، أراد أن يخبر عن قوة أنفس السحرة ، واستطالتهم عند أنفسهم على موسى ، فجاء عنهم باللفظ أتم وأوفى منه فى إسنادهم الفعل إليه .

وهنا يحضرنا ما ذكره ابن جنى فى « خاطرياته » قال « إنا نعلم أن السحرة لم يكونوا أهل لسان ، فيذهب بهم هذا المذهب من صيغة الكلام » ، ثم استطرد قائلا : « إن جميع ما ورد فى القرآن حكاية عن غير أهل اللسان من القرون الخالية

---

(١) المائدة ٢٤ (٢) هود ١١٢ .
(٣) الأعراف ١١٥ .

إنما هو من معروف معانيهم ، وليست بحقيقة ألفاظهم ، ولهذا لا يشك فى أن قوله تعالى : « قالوا إن هـــذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى » . إن هذه الفصاحة لم تجر على لغـــة العجم .

وبعد .. فإن التوكيد ـ فى القرآن المجيد ، لآية من آيات العزيز الحميد ، أراد به الحق سبحانه أن يدعم أقواله ، ويؤكد كلامه .. وفى هذا أبلغ رد على اعتراض المعترضين الملحدين الجاهلين . الذين أنكروا وجود هذا الدعم الكلامى فى كتاب الله الكريم .

* * *

١٢ ـ أسلوب المبالغة فى القرآن المجيد

شاء الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن يكون كتابه معجزة لخلقه فى البلاغة والاسلوب ، والوصف والنظم ، إلى جانب إعجازه فى تأثير الهداية ، وفى كشف الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة .

ومن أروع آيات الإعجاز البلاغى ، ما جاء فى القرآن على صيغ المبالغة ، بقصد التهويل والتفخيم .

والمبالغة : كما عرفها أهل البيان ـ هى الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة ـ أى أن يذكر المتكلم وصفاً يزيد فيه حتى يكون أبلغ فى المعنى الذى قصده .. أو هى ـ كما يقول الباقلانى : الدلالة على كثرة المعنى » .

ولقد وردت المبالغة فى القرآن المجيد على وجوه كثيرة :

الوجه الأول : المبالغة فى الصفة المعدولة . . ومن هذا الوجه أبنية عديدة منها فعلان . . كرحمن من مثل قوله تعالى :

« قل ادعوا الله أو ادعو الرحمن أيا ماتدعو فله الاسماء الحسنى » (١)

« فرحمن » صفة معدولة عن « راحم » للمبالغة ولا يجوز أن يوصف به إلا الله عز وجل ، لأنه يدل على معنى لا يكون إلا له سبحانه ـ وهو معنى وسعت رحمته كل شىء .

قال بعض العلماء : لقد غلطوا فى تفسير « الرحمن » حيث جعلوه بمعنى المتصف بالرحمة ، وإنما معناه ـ القدير العظيم العادل ، بدليل قوله تعالى :

---

(١) الإسراء ١١٠ .

- « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن » (١) . وإنما يصلح للسجود لمن له العظمة والقدرة .

- « وإنى أعوذ بالرحمن » (٢) ولا يعاذ إلا بالعظيم القادر عن الحفظ والذَّب ..

- « وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا » (٣) أى وما ينبغى للعظيم القادر على كل شيء المستغنى عن معاونة الولد وغيره أن يتخذ ولدا .

- « قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن » (٤) ولا يحتاج الناس إلى حافظ يحفظهم من ذى الرحمة الواسعة . فلا مناسبة إذن لمعنى الرحمة فى شيء من هذه المواضع .

— ومن صيغ المبالغة فى الصفة المعدولة « فعيل » كقدير ، ورحيم ، وعليم ، وحكيم ، وحليم ، وكريم .. ويقصد بها المبالغة فى حقه ، والنهاية فى صفاته وأكثر صفات الحق سبحانه جارية على هذه الصيغة .

- وقد أثار بعض العلماء قضية حول قوله تعالى : « والله على كل شيء قدير » (٥) .

- وقالوا : إن (قديرا) من صيغ المبالغة يستلزم الزيادة على معنى قادر والزيادة على معنى قادر محال ..

والحقيقة أن المبالغة هنا بالنسبة إلى تكثير التعلق لا بالنسبة إلى تكثير الوصف وكذلك قوله تعالى « والله بكل شيء عليم » ويستحيل عود المبالغة إلى نفس الوصف إذ العلم بالشيء لا يصح التفاوت فيه فيجب صرف المبالغة فيه إلى المتعلق فيكون من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل .

---

(١) الفرقان ٦٠ — (٢) مريم ١٨
(٣) مريم ٩٢ — (٤) الأنبياء ٤٢
(٥) البقرة ٢٨٤

— ومن أبنية المبالغة فى الصفة المعدولة كذلك « فعال » كقوله عز وجل : « وإنى لغفار لمن تاب » معدولة عن (غافر) للمبالغة . وكذلك « تواب » « قال الزمخشرى — فى كشافه — أثناء تفسير سورة الحجرات : « المبالغة فى التواب للدلالة على كثرة من يتوب إليه من عباده ، أو لأنه ما من ذنب يقترفه المقترف إلا كان معفوا عنه بالتوبة . أو لأنه بليغ فى قبـــول التوبة ، نزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة كرمه . .

ومن هذه الأبنية أيضاً « فعول » . . كغفور وشكور وودود ، من قوله تعالى : « إن الإنسان لظلوم كفار »(١)

ولقد أطربنى قوله تعالى : « وقليل من عبادى الشكور »(٢) .

فقلت : الحمد لله الذى ما قال الشاكر . فإن قيل ، قوله تعالى « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا »(٣)

قلت : إن نعم الله على عباده كثيرة ، وكل شكر يأتى فى مقابلتها قليل ، وكل كفر يأتى فى مقابلتها عظيم ، فجاء (شاكر) بلفظ فاعل ، وجاء (كفور) بلفظ فعول على وجه المبالغة .

قال صاحب البرهان (٤) : والتحقيق أن صيغ المبالغة على قسمين .

أحدهما : ما تحصل المبالغة فيه بحسب زيادة الفعل . والثانى : بحسب تعدد المفعولات .

ولا شك أن تعددها لا يوجب للفعل زيادة . إذ الفعل الواحد قد يقع على جماعة متعددين ، وعلى هذا التقسيم يجب تنزيل جميع أسماء الله تعالى التى وردت على صيغة المبالغة كالرحمن ، والغفور والتواب ونحوها . ولهذا قال بعض المفسرين فى « حكيم » معنى المبالغة فيه تكرار حكمه بالنسبة للشرائع . .

---

(١) ابراهيم ٣٤ (٢) سبأ ١٣
(٣) الإنسان ٣
(٤) انظر معترك الأقران السيوطى حـ ٢ ص ٤١٢ .

وقالوا أيضاً : « إن صفات الله التي هي صيغة المبالغة كغفار ، ورحيم ، وغفور ومنان ، كلها مجاز ، إذ هي موضوعة للمبالغة ؛ ولا مبالغة فيها ، لأن المبالغة هي أن تثبت للشيء أكثر مما له ، وصفات الله تعالى متناهية في الكمال ، لا يمكن المبالغة فيها ، كما أن المبالغة تكون في صفات تقبل الزيادة والنقصان . وصفات الله تعالى منزهة عن ذلك .

والوجه الثاني — من وجوه المبالغة — هو المبالغة بالصيغة العامة في موضع الخاصة . كقوله تعالى ، « خالق كل شيء » (١)

والوجه الثالث - إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة

وذلك كقوله تعالى : (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) (٢) فجعل مجيء دلائل الآيات مجيئا له على المبالغة في الكلام .

ومنه (فأتى الله بنيانهم من القواعد) (٣) أي أتاهم بعظيم بأسه ، فجعل ذلك إتياناً له على المبالغة .

أما الوجه الرابع — من وجوه المبالغة — فهو إخراج الممكن إلى الممتنع للمبالغة . .

نحو قوله تعالى (لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) (٤)

وقوله عز وجل ؛ (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) (٥) :

والوجه الخامس — إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل ، والمظاهرة في الحجاج . من مثل قول الحق سبحانه : (وأنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) (٦) . . وأنا أو إياكم ، أي أحد الفريقين — لعلى هدى أو في ضلال مبين فبين في الإبهام تلطفا بهم داع إلى الإيمان إذ وفقوا له .

---

(١) الأنعام ١٠٢ (٢) الفجر ٢٢
(٣) النحل ٢٦ (٤) الأعراف ٤٠
(٥) النور ٣٥ (٦) سبأ ٢٤

ومنه : (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين)(١)

وعلى هذا النحو خرج مخرج قوله تعالى : (أصحاب الجنة يومئذ خـــير مستقرا)(٢)».

جاء على التسليم أن لهم مستقرا خيرا من جهة السلامة من الآلام ، لأنهم ينكرون إعادة الأرواح إلى الأجسام ، فقيل على هذا (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا) .

ومنه (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه)

على التسليم أن أحدهما أهون من الآخر فيما يسبق إلى نفوس العقلاء .

ومن أروع وجوه المبالغة فى القرآن العظيم ، والتى تشهد بآيات إعجازه : حذف الأجوبة زيادة فى المبالغة ، كقوله تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على النـار (٣) .

وقوله عز وجل : (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب)(٤)

وقوله سبحانه : (ص ، والقرآن ذى الذكر)(٥) .

كأنه قيل : لجاء الحق أو لعظم الأمر أو لجاء بالصدق . . كل ذلك يذهبُ إليه الوهم لما فيه من التفخيم ، والحذف هنا أبلغ من الذكر ، لأن الذكر يقتصر على وجه ، والحذف يذهب فيه الوهم إلى كل وجه من وجوه التعظيم لما قد تضمنه من التفخيم .

وبعد ـ فإن صيغ المبالغة فى القرآن العظيم كثيرة كثيرة حتى ليصعب حصرها ومن المهم أن نعرف أن صيغ المبالغة بمضمونها ومشمولها إنما تشهد بقدرة الحق وعظمته وسر إبداعه لآيات كتابه ، كما أبدع كونه وكما أبدع خلقه . .

* * *

---

(١) الزخرف ٨١ (٢) الفرقان ٢٤ (٣) الأنعام ٢٧

(٤) البقرة ١٦٥ (٥) سورة ص ١

١٣ — أسلوب التعبير الرمزى . فى القرآن المجيد

من أبدع آيات الإعجاز البيانى ، التى حفل بها كتاب رب العالمين .. ماجاء بأسلوب الرمز أو الإيماء .. وهو ما اصطلح علماء البيان على تسميته «الكناية»(١) والكناية فن بيانى جميل . وأداة من أدوات التعبير التلميحى غير المباشر ، الذى يعبر بها عن الدقيق من المعانى ، والجليل من المرامى ، لذلك اصطلح على أنها :

« الدلالة على الشيء من غير تصريح باسمه ، أو هى لفظ أريد به لازم معناه ، من هنا كانت من أبلغ الأساليب البيانية فى الرمز والإيماء ..

قال الطيبى : « الكناية .. ترك التصريح بالشيء إلى ما يساويه فى اللزوم فينتقل منه إلى الملزوم — أى أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له من اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورديفه فى الوجود فيومىء به إليه ، ويجعله دليلا عليه فيدل على المراد من طريق أولى ، ومثال ذلك فى قول العرب : « طويل النجاد » و « كثير الرماد » يعنون « طويل القامة » ، و « كثير الضيافة » .

وقد جاء هذا الأسلوب الكنائى الرمزى فى القرآن العظيم . فى مواضع جمة ، تدل على دقة البيان الإلهى وروعته وبلاغته ، وكان مجيئه لأسباب هامة :

منها : التنبيه على عظم القدرة الإلهية :

كقوله تعالى : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة »(٢) كناية عن آدم .

---

(١) انظر الاتقان فى علوم القرآن ٢/ ٧٩ . البرهان فى علوم القرآن ٢/ ٣٠٤ ، مجازات القرآن ٣٢٤ .

(٢) الأعراف ١٨٩ .

ومنها : فطنة المخاطب :

كقوله عز شأنه : (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة)(١) — فإنه كناية عن ألا تعاندوا عند ظهور المعجزة ، فتمسكم هذه النار العظيمة .

وقوله جل جلاله : « إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا »(٢) فإن هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : لا تظن أنك مقصر في إنذارهم ، فإنا نحن المانعون لهم من الإيمان .. فقد جعلناهم حطبا للنار ، ليقوى التذاذ المؤمن بالنعيم. كما لا تتبين لذة الصحيح إلا عند رؤية المريض .

ومنها : ترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه :

كقول الحق سبحانه : « إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم »(٣) كنى بنفي قبول التوبة عن « الموت على الكفر » لأنه يرادفه .

وقوله عز وجل : « إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ، ولي نعجة واحدة »(٤) فكنى بالنعجة عن المرأة جريا على عادة العرب في أنها تكنى بها عن المرأة ، لأن ترك التصريح بذكر المرأة أجمل منه ، ولهذا لم تذكر في القرآن الكريم امرأة باسمها إلا مريم . ويعلل السهيلي لذلك بقوله : « وإنما ذكرت مريم باسمها على خلاف العادة لنكتة . وهي أن الملوك والاشراف لا يذكرون حرائرهم في ملأ ، ولا يبتذلون أسماءهن بل يكنون عن الزوجة بالفرس والعيال ونحو ذلك ، فإذا ذكروا الإماء لم يكنوا عنهن ولم يصونوا أسماءهن عن الذكر ، فلما قالت النصارى في مريم ما قالوا ، صرح الله باسمها ، ولو لم يكن تأكيداً للعبودية التي هي صفة لها ، وتأكيدا لأن عيسى — عليه السلام — لا أب له . وإلا لنسب إليه » .

ومنها : تحسين اللفظ :

كقوله تعالى : « وثيابك فطهر »(٥)

---

(١) البقرة ٢٤
(٢) يس ٨ .
(٣) آل عمران ٩٠
(٤) سورة ص ٢٣ .
(٥) المدثر ٤ .

وقوله عز شأنه : « بيض مكنـــون » (١) فإن العرب كانت من عاداتهم الكناية عن حرائر النساء بالبيض . قال امرؤ القيس : (٢)

« وبيضة خدر لا يرام خباؤها »

ومنها : قصد المبالغة والبلاغة معاً :

كقوله عز وجل : « فما أصبرهم على النار » (٣) أى هم فى التمثيل المتعجب منه بهذا التعجب .

وقوله تعالى : « أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » ( ) ، فإنه سبحانه كنى عن النساء بأنهن ينشأن فى الترفه و التزين والتشاغل عن النظر فى الامور ودقيق المعانى ، ولو أتى بلفظ النساء لم يشعر بذلك ، والمراد نفى ذلك ـ أعنى الانوثة ــ عن الملائكة ، وكونهم بنات الله تعالى عن ذلك (٥) .

ومنها : قصد المبالغة فى التشنيع :

كقوله تعالى ــ حكاية عن اليهود ــ لعنة الله عليهم « وقالت اليهود يد الله مغلولة » (٦) فإن الغل كناية عن البخل . كقوله تعـــالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك » (٧)

لأن جماعة كانوا متمولين ، فكذبوا النبى صلى الله عليه وسلم ، فكف الله عنهم ما أعطاهم وهو سبب نزولها .

وأما قول الحق سبحانه (غلت أيديهم) (٨) فيحمل على المجاز على وجه الدعاء والمطابقة للفظ ، ولهذا قيل : إنهم أبخل خلق الله . قال المفسرون(٩) — والحقيقة أنهم تغل أيديهم فى الدنيا بالإسار ، وفى الآخرة بالعذاب وإغلال النـــار .

---

(١) الصافات ٤٩ — (٢) ديوانه ١٣ .
(٣) البقرة ١٧٥ — (٤) الزخرف ١٨ .
(٥) البرهان ٢/٣٠٨ — (٦) المائدة ٦٤ .
(٧) الاسراء ٢٩ — (٨) المائدة ٦٤ .
(٩) انظر تفسير الشوكانى فى تفسير الآية .

وقوله عز شأنه (بل يداه مبسوطتان) (١) كناية عن كرمه . وثنى اليد - وإن أفردت فى أول الآية . ليكون أبلغ فى السخاء والجود .

ومنها : قصد الاختصار :

كالكناية عن ألفاظ متعددة بلفظ (فعل) نحو قوله تعالى : (لبئس ما كانوا يفعلون) (٢) وقوله : (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) (٣) أى فإن لم تأتوا بسورة من مثله .

ومنها : أن يعمد إلى جملة ورد معناها على خلاف الظاهر . فيأخذ الخلاصة منها من غير اعتبار مفرداتها بالحقيقة أو المجاز ، فتعبر بها عن مقصودك . وهذه الكناية استنبطها الزمخشرى وخرج عليها قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) (٤) فإنه كناية عن الملك ، لأن الاستواء على السرير لا يحصل إلا مع الملك فجعلوه كناية عنه ، وإن لم يقعد على سرير البته (٥) .

وكقوله تعالى : (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) (٦) .. الآية ، أنه كناية عن عظمته وجلاله من غير ذهاب بالقبض واليمين إلى جهتين : حقيقة ومجاز وقد اعترض الإمام فخرالدين على ذلك بأنها تفتح باب تأويلات الباطنية ، فلهم أن يقولوا : المراد من قوله : (فاخلع نعليك) (٧) والاستغراق فى الخدمة من غير الذهاب إلى نعل وخلعه ، وكذا نظائره (٨) . .

وهذا الأمر مردود - لأن هذه الكناية إنما يصار إليها عند عدم إجراء اللفظ على ظاهره . كما سبق من الأمثلة .

ومن هذه الأسباب أيضا - أن يكون الصريح مما يستقبح ذكره ، أو يفحش وقعه فى السمع . فيكنى عنه بما لا ينبو عنه الطبع . وهنا نصل إلى قمة البلاغة القرآنية حيث نجد أن القرآن الكريم يقصد قصداً إلى الرمز والتلميح . لأن هذه المواطن لا يجمل فيها التصريح . .

---

(١) المائدة ٦٤ (٢) المائدة ٧٩ .
(٣) البقرة ٢٤ (٤) طه ٥
(٥) انظر الكشاف (٦) الزمر ٦٧
(٨) طه ٢٢ (٧) انظر البرهان فى علوم القرآن ٢/٣٠٩

فعندما أراد القرآن العظيم أن يعبر عن الغاية من المعاشرة الزوجية ـ وهى التناسل ـ رمز إلى ذلك بلفظ « الحرث » فى قوله سبحانه : (نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم)(١) ويكمل وصف تلك العلاقة الزوجية . بما فيها من مخالطة وملابسة ، بأنها لباس من كل منهما للآخر (هن لبـــاس لكم وأنتم لباس لهن)(٢) .

ومن هذا الأسلوب الرمزى .. تلك الإيماءات اللطيفة التى تعلمنا أدب التعبير . قال الراسخون فى العلم . من أدب القرآن أنه يكنى عن العلاقة الزوجية بالملابسة والمباشرة والافضاء والرفث . والدخول والسر ، من مثل قوله عز وجل :

« ولكن لا تواعدوهن سراً »(٣) فكنى عن اللقاء الزوجى بالسر ، وفى هذا التعبير لطيفة . لأنه لا يكون بين الآدميين إلا سراً .

وقوله : « فالآن باشروهن »(٤) فكنى بالمباشرة عن الجماع لما فيه من التقاء البشرتين قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ المباشرة : الجماع ولكن الله يكنى .

وقوله عز شأنه « أو لامستم النساء »(٥) ـ إذ لا يخلو الجماع من الملامسة وقوله سبحانه « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم »(٦) .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : إن الله كريم يكنى ما شاء وأن الرفث هو الجماع .

وقوله تعالى : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا »(٧) ـ أى قالوا لفروجهم فكنى عنها بالجلود .

---

(١) البقرة ٢٢٣
(٢) البقرة ١٨٧ .
(٣) البقرة ٢٣٥
(٤) البقرة ١٨٧
(٥) النساء ٤٣
(٦) البقرة ١٨٧
(٧) فصلت ٢٢

فإن قال بعض الواهمين : ولكن القرآن الكريم حين قال : (ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها ، فنفخنا فيه من روحنا) (١) فإنه قد صرح بالفرج .

قلنا ... أخطأ من توهم هنا الفرج الحقيق ، وإنما هو من لطيف الكنايات وأدقها وأحسنها ، وهي كناية عن فرج القميص .. فإحصان فرجها كناية عن طهارة ذيلها وعفتها الكاملة ، وكان النفخ في جيب درعها — كما ورد تأكيـــد لهذا المعنى الرمزى الذى يجنح إلى أدب التعبير إشارة لا تليق لها بصفة السيدة مريم التي فضلها الله على نساء العالمين .

قال السهيلى (٢) فروج القميص أربعة : الكمان والأعلى والأسفل ، وليس المراد غير هذا . فإن القرآن أنزه معنى . وألطف إشارة ، وأملح عبارة من أن يريد ما ذهب إليه وهم الجاهل ، لاسيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس فأضيف القدس إلى القدوس ، ونزهت القانتة المطهرة عن الظن الكاذب والحدس وكيف يظن إن نفخ جبريل وقع في فرجها . وإنما نفخ في جيب درعها . ونظيره أيضاً : « ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن » (٣) .

قال المصرى : وعلى هذا — ففي الآية كناية عن كناية .. ،

وقد يستخدم هذا الأسلوب الكنائى الرمزى لإختصار مقدمات لا أهمية لها كالتنبيه على النتيجة الملابسة التي يتقرر فيها المصير .. كقوله تعالى عن مصير أبي لهب : « تبت يدا أبي لهب وتب » (٤) .. فهذه كناية عن أنه جهنمي ، وأن مصيره إلى اللهب ، وقوله « حمالة الحطب » أى نمامة ، ومصيرها أن تكون حطباً لجهنم وواضح هنا — أن الكناية لخصت في ومضة واحدة للمصير الذى راد تصويره قال بدر الدين بن مالك ، فيما نقله عنه الزركشي ٢/٣١٠ ، وإنما يعدل عن الصريح إلى الكناية لنكتة كالإيضاح . أو بيان حال الموصوف ، أو مقدار

---

(١) الأنبياء ٩١ (٢) التعريف والاعلام ...

(٣) الممتحنة ١٢ (٤) ... ١

حاله ، أو القصد إلى المدح أو الذم أو الاختصار . أو الستر أو الصيانة ، أو التعمية أو الألغاز أو التعبير عن الصعب بالسهل ، أوعن المعنى القبيح باللفظ الحسن ..

والباحث المتـــأمل ــ يستطيع أن يدرك مدى حرص القرآن العظيم على استخدام هذا الأسلوب الرمزى ــ عندما يتعرض للحقائق الدينية الكبرى ، المتعلقة بذات الله وصفاته فتراه يكنى عنها بأسلوب تزيده المبالغة حسنا ، لأنه يقرب الفكرة المجردة من الصورة المحسوسة ، فتتحول المبالغة فيه بلاغة ، ويصير التهويل فيه تخييلا .

فالحق سبحانه وتعالى ــ يقول فى سعة كرمه وجوده : (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء)(١) ويؤثر للتعبير عن هذا المعنى اللفظ نفسه ، الذى يكنى به عن إسراف العبد وتبذيره فى قوله : (ولا تبسطها كل البسط)(٢) أى لا تبالغ فى الانفاق والعطاء كمن يبسط يده ، فلا يدعها عن الإنفاق .

وفى هذا الجو الرمزى ــ أيضاً ــ نستطيع أن نتملى جمـــال الكناية عن الشئون الغيبية « بالمفاتح » « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو »(٣) .

وجمال الكناية عن أزلية الأرزاق والمقدرات بالخزائن (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله الا بقدر معلوم)(٤) .

ويشبه هذا الأسلوب الكنائى الرمزى ، ويرتبط به من حيث جمال وقعه ، وبراعة إيحائه ، وعمق مضمونه .. ما جاء فى القرآن العظيم على وجه الإرداف .

فالإرداف أسلوب إيمائى يشبه الأسلوب الرمزى كثيراً من حيث الغرض والتأثير . والإرداف - كما عرفه البيانيون - أن يريد المتكلم معنى ، فلا يعبر عنه

---

(١) المائدة ٦٤ (٢) الاسراء ٢٩
(٣) الأنعام ٥٩ (٤) الحجر ٢١

بلفظه الموضوع له ، ولا بدلالة الإشارة ، بل بلفظ يرادفه ، كقوله تعالى : (وقضى الأمر)(١) .

والأصل : وهلك من قضى الله هلاكه ، ونجا من قضى الله نجاته ، وعدل عن لفظ ذلك إلى الإرداف . لما فيه من الإيجاز ، والتنبيه على أن هلاك الهالك ونجاة الناجى كان بأمر آمر مطاع ، وقضاء من لا يرد قضاؤه ، والأمر يستلزم آمراً فقضاؤه يدل على قدرة الآمر به وقهره ، وأن الخوف من عقابه ورجاء ثوابه يحضان على طاعة الآمر ، ولا يحصل ذلك كله من اللفظ الخاص .

وكذلك قوله سبحانه « واستوت على الجودى »(٢) .

وحقيقة ذلك : جلست ، فعدل عن اللفظ الخاص بالمعنى إلى مرادفه لما فى الاستواء من الإشعار بجلوس متمكن لا زيغ فيه ولا ميل ، وهذا لا يحصل من لفظ الجلوس .

وكذلك قوله عز شأنه : « فيهن قاصرات الطرف »(٣) — أى عفيفات وعدل عنه للدلالة على أنهن مع العفة لا تطمح أعينهن إلى غير أزواجهن ، ولا يشتهين غيرهم . ولا يؤخذ ذلك من لفظ العفة .

قال العلماء .. والفرق بين الكناية والإرداف — أن الكناية انتقال من لازم إلى ملزوم ، والإرداف من مذكور إلى متروك ، ومن أمثلته قول الحق تبارك وتعالى :

(ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) (٣)

فهنا عدل فى الجملة الأولى عن قوله « بالسوءى » ، مع أن فيه مطابقة كالجملة الثانية ، إلى « بما عملوا » تأدبا أن يضاف السوء إلى المولى جل شأنه .

وما دمنا نتحدث عن أدب التعبير الرمزى الإيمائى فى القرآن العظيم .. الكناية

---

(١) البقرة ٢١٠ (٢) هود ٤٤

(٣) الرحمن ٥٦ (٤) النجم ٣١

فلا يمكن أن نغفل ما يرتبط بهما من أساليب بيانية ، وثيقة الصلة تجنح إلى الرمز والإيماء أيضا ، وأبرز هذه الأساليب التى تتصل بالكناية « التعريض »..

وإن كان العلماء يفرقون بينهما ، ولهم فى ذلك عبارات متقاربة ..

قال الزمخشرى : الكناية ذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له .

والتعريض أن يذكر شيء يدل به على شيء لم يذكره ..

— وقال السكاكى : التعريض ما سيق لأجل موصوف غير مذكور ، ومنه أن يخاطب واحد ويراد غيره ، وسمى به ، لأنه أميل الكلام إلى جانب مشاراً به إلى آخر ، يقال نظر إليه بعرض وجهه ، أى جانبه .

قال الطيبى : وذلك يفعل إما لتنويه جانب الموصوف ، ومنه « ورفع بعضهم درجات » (١) — أى محمدا صلى الله عليه وسلم إعلاء لقدره ، أى أنه العلم الذى لا يشتبه ، وأما التلطف به ، واحترازا عن المخاشنة ، نحو « ومالى لا أعبد الذى فطرنى » (٢) أى وما لكم لا تعبدون .

والتعريض — أو التلويح — فى مفهوم البلاغيين ، له معنى آخر .. هو الدلالة على المعنى من طريق المفهوم . وسمى تعريضا لأن المعنى يفهم من عرض اللفظ ، أى من جانبه .

ويسمى أيضاً التلويح .. لأن المتكلم يلوح منه للسامع ما يريده ، كقول الحق جلت حكمته : فى الآية الكريمة « بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » (٣) لأن غرضه بقوله (فاسألوهم) على سبيل الاستهزاء وإقامة الحجة عليهم بما عرض لهم به ومن عجز كبير الأصنام عن الفعل . مستدلا على ذلك بعدم اجابتهم إذا سئلوا ولم يرد بقوله : (بل فعله كبيرهم هذا) نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم فدلالة هذا الكلام عجز كبير الأصنام عن الفعل بطريق الحقيقة .

---

(١) البقرة ٢٥٣ (٢) يس ٢٢ .
(٣) الأنبياء ٦٣ .

ومن التعريض أيضا — أن يخاطب الشخص والمراد غيره ، سواء كان الخطاب مع نفسه أو مع غيره وقوله عز وجل : « ولئن اتبعت أهواءهم »(١) بعد قوله « فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات »(٢) تعريضا بأن قومه أشركوا واتبعوا أهواءهم ، وزلوا فيما مضى من الزمان ، لأن الرسول لم يقع منه ذلك، فأبرز غير الحاصل فى معرض الحاصل ادعاء ، وقوله (فإن زللتم) فإن الخطاب للمؤمنين والتعريض لأهل الكتاب ، لأن الزلل لهم لا للمؤمنين .

وأما قوله سبحانه : « لئن اشركت ليحبطن عملك »(٣) ففيها ثلاثة أمور :

(أ) مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره .

(ب) إخراج المحال عليه فى صورة المشكوك ، والمراد غيره .

(ج) واستعمال المستقبل بصيغة الماضى .

وهناك أمر رابع أيضا — وهو « إن » الشرطية قد لا يراد بها إلا مجرد الملازمة التى هى لازمة الشرط والجزاء ، مع العلم باستحالة الشرط أو وجوبه . أو وقوعه .

وعلى هذ يحمل قول من لم ير من المفسرين حمل الخطاب على غيره . إذ لا يلزم من فرض أمر — لابد منه — صحة وقوعه . بل يكون فى الممكن والواجب والمحال (٤) .

ومنه قوله رب العزة : « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين »(٥) إذ جعلت شرطية لا نافية . ومنه « إنا كنا فاعلين »(٦)

ومنه قوله تعالى : « ومالى لا أعبد الذى فطرنى »(٧) المراد: مالكم لا تعبدون. بدليل قوله : « وإليه ترجعون » ولولا التعريض لكان المناسب « وإليه أرجع ».

وكذلك قوله عز شأنه « أأتخذ من دونه آلهة »(٨) والمراد : أتتخذون من دونه آلهة « إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون إنى

---

(١) البقرة ١٢٠ (٢) البقرة ٢٠٩ .
(٣) الزمر ٦٥ (٤) البرهان ٢/٣١٢ .
(٥) الزخرف ٨١ (٦) الأنبياء ١٧ .
(٧) يس ٢٢ (٨) يس ٢٣ — ٢٥ .

إذاً لفي ضلال مبين » (١) ولذلك قيل : « آمنت بربكم فاسمعون » دون « ربي » و « أتبعه » و « فاسمعوه » ووجه الحسن في هذا الأسلوب واضح ، فهو يتضمن إعلام السامع على صورة لا تقتضي مواجهته بالخطاب المنكر . كأنك لم تعنه ، وهو أعلى في محاسن الأخلاق ، وأقرب للقبول وأدعى للتواضع ، والكلام عن هو رب العالمين نزله بلغتهم ، وتعليما للذين يعقلون .

ومنه قوله تعالى : « قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعلمون » (٢).

فحصل المقصود في قالب التلطف ، وكان حق الحال من حيث الظاهر أن يقال : لا تسألون عما عملنا ، ولا نسأل عما تجرمون .

وكذلك قوله سبحانه : « وأنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » (٣)

حيث ردد الضلال بينهم وبين نفسهم ، والمراد : إنا على هدى وأنتم في ضلال ، وإنما لم يصرح به لئلا تصير هنا نكتة — وهي أنه خولف في هذا الخطاب بين حرفي الجر « على » و « في » بدخول « على » على الحق ، ودخول « في » على الباطل ، لأن صاحب الحق كأنه على فرس جواد يركض به ، حيث أراد ، وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام ، لا يدرى أين يتوجه . يسمى علماء البيان — هذا النوع من الأسلوب « الخطاب المنصف » لأنه يوجب أن ينصف المخاطب اذا رجع إلى نفسه استدراجا ، لاستدراجه الخصم إلى الإذعان والتسليم ، وهو شبيه بالجدل ، لأنه تصرف في المغالطات الخطابية .

ومنه قوله تعالى : « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب » (٤) فالمقصود التعريض بذم لمن ليست له هذه الخشية ، وأن يعرف أنه لفرط عناده ، كأنه ليس له أذن تسمع ، ولا قلب يخشع ، ولا عقل يعقل . وأن الانذار له كلا إنذار ، وأنه قد أنذر من له هذه الصفة وليست له .

وقوله : « إنما يتذكر أولو الألباب » (٥) القصد التعريض ، وأنهم لغلبة هواهم في حكم من ليس له عقل .

---

(١) سبأ ٢٥ (٢) سبأ ٢٤ .
(٣) سبأ ٢٤ (٤) فاطر ١٨ .
(٥) الرعد ١٩

«قوله جل شأنه «ذق انك أنت العزيز الكريم» (١) نزلت في أبي جهل لانه قال: «ما بين أخشبيها - أي جبليها - يعني مكة - أعز مني ولا أكرم» فخوطب بذلك تعريضا واستهزاء.

وخلاصة ما أردنا أن نقوله،أن القرآن العظيم ليدعك أحيانا ترسم في ذهنك صورة ناطقة لا تقف عند الرمز الكنائي بل تجاوزه إلى التعريض ، وإذا كنت في الكناية تذكر اللفظ وتريد لازم معناه ، فإنك في التعريض تذكر اللفظ وتلوح به إلى ما ليس من معناه لا حقيقة ولا مجازا مثاله .«وقالوا : لا تنفروا في الحر، قل نار جهنم أشد حرا» (٢)

فلو أننا أجرينا الكلام على ظاهره لكان إخبارا بازدياد حر جهنم وكونه أشد من حر الدنيا وهو معلوم للمخاطبين بالقرآن ، فلا معنى لذكره والتنبيه عليه ولكن الغرض الحقيقي من هذا الكلام : هو التعريض بهؤلاء المتخلفين عن القتال المعتذرين بشدة الحر بأنهم سيردون جهنم ويجدون حرها الذي لا يوصف.

هذا هو المفهوم من الآية - بيد أن السبكي في كتابه «الإغريض في الفرق بين الكناية والتعريض» يذهب في فهمها مذهبا آخر - يقيمه وفقا لمنهجه في التفرقة بين الأسلوبين ، فهو يقول :

«الكناية لفظ استعمل في معناه مرادا منه لازم المعنى ، فهي بحسب استعمال اللفظ في المعنى حقيقة ، والتجوز في إرادة إفادة ما لم يوضع له ، وقد لا يراد بها المعنى بل يعبر بالملزوم عن اللازم ، وهي حينئذ مجاز . ومن أمثلته «قل نار جهنم أشد حرا»

فإنه لم يقصد إفادة ذلك ، لأنه معلوم ، بل إفادة لازمة ، وهو أنهم يردونها ويجدون حرها إن لم يجاهدوا .

وأما التعريض .. فهو لفظ استعمل في معناه للتلويح بغيره نحو «بل فعله

---

(١) الدخان ٤٩

(٢) التوبة ٨١

كبيرهم هذا ، نسب الفعل إلى كبير الأصنام المتخذة آلهة كما يعلمون إذا نظروا بعقولهم من عجز كبيرهم عن ذلك الفعل ، والإله لا يكون عاجزاً ..

ولا ريب أن معنى التلويح والتعريض ظاهر فى قوله ، بل فعله كبيرهم هذا ، ولكنه ليس أقل ظهوراً ووضوحاً فى الآية السابقة ، قل نار جهنم أشد حراً ، كما فهمناها ..

فكلا المثالين يصلح شاهداً على التعريض الذى فيه معنى أبلغ من الكناية .

١٤ – الاستخبار فى القرآن الكريم

من أروع ما جاء فى القرآن العظيم من أساليب .. أسلوب الاستخبار أو الاستفهام كما يحب البعض أن يطلق عليه .

والاستخبار معناه .. طلب خبر ما ليس عندك ، وهو بمعنى الاستفهام أى طلب الفهم ، ومن العلماء من يفرق بينهما ، بأن الاستخبار ما سبق أولا، ولم يفهم حق الفهم ، فإذا سألت عنه ثانيا كان استفهاما ، هكذا قال ابن فارس فى « فقه اللغة »(١) .

ولكون الاستفهام طلب ما فى الخارج أو تحصيله فى الذهن ، لزم ألا يكون حقيقة إلا إذا صدر من شاك مصدق بإمكان الإعلام ، فإن غير الشاك إذا استفهم يلزم تحصيل الحاصل .. وإذا لم يصدق بإمكان الإعلام انتفت فائدة الاستفهام . قال الراسخون فى العلم : إن ما جاء على لفظ الاستفهام فى القرآن الكريم ، فإنما يقع فى خطاب الله تعالى .. على معنى أن المخاطب عنده علم ذلك الإثبات والنفى حاصل . فيستفهم عنه نفسه .

فالإثبات : كقوله تعالى : « ومن أصدق من الله حديثاً » (٢)

والنفى : كقوله عز شأنه : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » ؟(٣).

وقوله سبحانه : « فهل أنتم مسلمون » ؟ (٤)

ومعنى ذلك أنه قد حصل لكم العلم بذلك تجدونه عندكم إذا استفهمتم أنفسكم

---

(١) ص ١٥١، ١٥٢ (٢) النساء ٨٧.

(٣) الدهر ١ (٤) هود ١٤

عنه ، فإن الحق تبارك وتعالى لا يستفهم خلقه عن شيء ، وإنما يستفهمهم ليقررهم ويذكرهم أنهم قد علموا حق ذلك الشيء ، فهذا أسلوب بديع انفرد به خطاب القرآن .

ويستطيع الباحث المتأمل في كتاب الله ، أن يعرف أن الاستفهام الوارد في القرآن العظيم قسمان : استفهام بمعنى الخبر ، واستفهام بمعنى الإنشاء .

أما الاستفهام الخبرى فهو ضربان .. استفهام إنكارى ، واستفهام تقريرى لأنه يطلب بالأول إنكار المخاطب ، ويطلب الثانى إقراره به .

والمعنى في الاستفهام الإنكارى — على أن ما بعد الأداة منفى ، ولذلك تصحبه « إلا » من مثل قوله تعالى : « فهل يهلك إلا القوم الفاسقون »(١) .

وقوله سبحانه : (وهل نجازى إلا الكفور) (٢) .

ويعطف عليه المنفى ، كقوله جل وعلا : « فمن يهدى من أضل الله ومالهم من ناصرين »(٣) أى لا يهدى ومنه قوله عز وجل : « أفأنت تنقذ من فى النار »(٤) — أى لست تنقذ من فى النار . وقوله سبحانه : « أم له البنات ولكم البنون »(٥) — أى لا يكون هذا .

وهنا يتضح أمران :

أحدهما : أن الإنكار قد يجىء لتعريف المخاطب — أن ذلك المدعى ممتنع عليه وليس من قدرته ، كقوله تعالى « أفأنت تسمع الصم أم تهدى العمى » (٦) .

لأن إسماع الصم لا يدعيه أحد ، بل المعنى أن أسماعهم لا يمكن ، لأنهم

---

(١) الاحقاف ٣٥ (٢) سبأ ١٧
(٣) الروم ٢٩ (٤) الزمر ١٩
(٥) الطور ٣٩ (٦) الزخرف ٤٠

بمنزلة الصم والعمى ، وإنما قدم الإسم فى الآية ، ولم يقـــال « أتسمع الصم » ، إشارة إلى إنكار موجه عن تقدير ظن منه عليه السلام أنه يختص بإسماع من به صمم ، وأنه ادعى القدرة على ذلك . وهذا أبلغ من إنكار الفعل .

والثانى : أن الإنكار قد يصحبه التكذيب للتعريض بأن المخاطب ادعاه وقصد تكذيبه كقوله تعالى : « ألكم الذكر وله الأنثى » (١) وقوله سبحانه « أإله مع الله » (٢) وسواء كان زعمهم له صريحا مثل : « أفسحر هـــذا أم أنتم لاتبصرون » (٤)

أو التزاما مثل : « أشهدوا خلقهم » (٠) فإنهم لما جزموا بذلك جزم من يشاهد خلق الملائكة كانوا كمن زعم أنه شهد خلقهم .

وتسمية هذا — استفهام إنكار — من أنكر إذا جحد ، وهو إما بمعنى (لم يكن) كقوله تعالى (أفأصفاكم)(٥) أو بمعنى «لايكون» نحو «أنلزمكموها»(٦).

وخلاصة القول . . أن الإنكار قسمان : إبطالى ، وحقيقى

فالإبطالى : أن يكون ما بعدها واقع ومدعيه كاذب ، كما ذكرنا .

والحقيقى: يكون ما بعدها غير واقع ، فاعله ملوم ، من مثل قوله عز وجل :

« أتعبدون ماتنحتون »(٧) «أغير الله تدعون »(٨) . . «أتأتون الذكران» (٩)

إن كل ما ذكرناه حتى الآن يدخل تحت الضرب الأول من الاستفهام الخبرى وهو استفهام الإنكار .

أما الضرب الثانى . . فهو استفهام التقرير . .

---

(١) النجم ٢١ (٢) النمل ٦٠ (٣) الطور ١٥
(٤) الزخرف ١٩ (٥) الاسراء ٤٠
(٦) هود ٢٨ (٧) الصافات ٩٥
(٨) الأنعام ٤٠ (٩) الشعراء ١٦٥

والتقرير : حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده .

والكلام مع التقرير موجب ، ولذلك يعطف عليه صريح الموجب .

كقوله تعالى : « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى »(١)

وقوله جل شأنه : « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك »(٢)

وقوله سبحانه : « ألم يجعل كيدهم فى تضليل »(٣)

كما يعطف على صريح الموجب :

كقوله تعالى : « أكذبتم بآياتى، ولم تحيطوا بها علما » ( ) هكذا قرر الجرجانى فى النظم . ويجب أن يلى الأداة الشيء الذى تقرر بها ، فتقول فى تقرير الفعل مثلا . . « أضربت زيداً ؟ » ، وتقول فى تقرير الفاعل : « أأنت ضربت ؟ أو المفعول : أزيدا ضربت ؟ » . كما يجب الاستفهام الحقيقى .

وقول الحق تبارك وتعالى « أأنت فعلت هذا بآلهتنا »(٥) يحتمل الاستفهام الحقيقى بأن يكونوا لم يعلموا أنه الفاعل . كما يحتمل الاستفهام التقريرى . . بأن يكونوا علموا ولا يكون استفهاما عن الفعل ، ولا تقريراً له لأنه لم يأت بعده ، ولأنه أجاب الفاعل بقوله تعالى : « بل فعله كبيرهم »(٦) .

وجعل الزمخشرى منه « ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير »(٧) .

وفى الحقيقة ، أن استفهام التقرير ما هو إلا استفهام إنكار ، والإنكار كما نعلم نفى ، وقد دخل على المنفى ونفى النفى إثبات ، وأمثلة هذا الاستفهام كثيرة جدا . فى القرآن العظيم ، من مثل قوله تعالى : « ألست بربكم » — أى أنا ربكم » .

وقوله سبحانه : « أليس ذلك بقادر على أن يحى الموتى »(٨) .

---

(١) الضحى ٦، ٧ — (٢) الانشراح ١، ٢

(٣) الفيل ٢ — (٤) النحل ٨٤

(٥) الأنبياء ٦٢ — (٦) الأنبياء ٦٣

(٧) البقرة ١٠٦ — (٨) الأعراف ١٧٢

وقوله عز شأنه : « أو ليس الذى خلق السموات والأرض »(١)

« أليس الله بكاف عبده »(٢) . . « أليس الله بعزيز ذى انتقام (٣)

وقد أثار بعض العلماء — فى جعلهم الآية الكريمة « ألست بربكم » ضمن هذا النوع من الاستفهام إشكالا . . لأنه لو خرج الكلام عن النفى لجاز أن يجاب بنعم . وقد قيل إنهم لو قالوا : « نعم كفروا » ، ولما حسن دخول (الباء) فى الخبر ولو لم تفد الهمزة استفهاما لما استحق الجواب ، إذ لا سؤال حينئذ.

والجواب — عندى — يحتاج إلى توضيح . . فأقول :

إن الاستفهام إذا دخل على النفى يدخل بأحد وجهين :

إما أن يكون الاستفهام عن النفى ، هل وجد أم لا ؟ فيبقى النفى على ما كان عليه . .

أو للتقرير : كقوله تعالى « ألم نشرح لك صدرك » . . « ألم يجدك يتيما » فإذا كان بالمعنى الأول لم يجز دخول (نعم) فى جوابه . . إذا أردت إيجابه . بل تدخل عليه (بلى) . . وإذا كان بالمعنى الثانى — وهو التقرير ، فالكلام حينئذ يكون له لفظ ومعنى ، فلفظه نفى داخل عليه الاستفهام ، ومعناه الإثبات ، فبالنظر إلى لفظه تجيبه بـ (بلى) ، وبالنظر إلى معناه ، ومع كونه إثباتا تجيبه بـ (نعم) .

ولقد جاء استفهام التقرير — فى القرآن الكريم — على وجوه كثيرة ، كلها تشهد بعظمة البيان الإلهى ، وروعة الإعجاز القرآنى . .

من هذه الوجوه : التعظيم : كقوله تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه »(٤)

---

(١) القيامة ٤ — (٢) الزمر ٣٦

(٣) الزمر ٣٩ — (٤) البقرة ٢٥٥

ومنها التهويل : نحو قوله جل وعلا (الحاقة ما الحاقة) (١) وقوله (وما أدراك ما هية)(٢)

ومنها التكثير : نحو قوله سبحانه : (وكم من قرية أهلكناها) (٣)

ومنها التبكيت : كقوله عز شأنه (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين) (٤) .

ومنها الإثبات مع التوبيخ : (ألم تكن أرض الله واسعة) (٥) .

أى هى واسعة فهلا هاجرتم فيها .

ومنها التسهيل والتخفيف كقوله تعالى : (وماذا عليهم لو آمنوا بالله) (٦)

ومنها : العتاب .. كقوله جل وعلا : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) (٧)

قال ابن مسعود : ماكان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين وما ألطف ما عاتب الله به خير خلقه ، بقوله تعالى : (عفا الله عنك لم أذنت لهم) (٨) ولم يرق فهم الزمخشرى ، ولم يتأدب بأدب الله تعالى حين فسر هذه الآية بقوله : (معناها : أخطأت وبئس ما فعلت)(٩).

إن كل ما ذكرناه حتى الآن يدخل تحت الإستفهام الخبرى بضربيه : الإنكار والتقرير. أما القسم الثانى من الاستفهام.. فهو الاستفهام الإنشائى . .وقد جاء فى القرآن الكريم على ضروب كثيرة ، تعد آية فى البلاغة ،

أولها : مجرد الطلب ـ وهو الأمر كقوله تعالى : « أفلا تذكرون » (١٠) أى اذكروا وقوله سبحانه « وقل للذين أوتوا الكتاب والنبيين أأسلمتم » (١١)-

(١) الحاقة ١ (٢) القارعة ١٠ (٣) الأعراف ٤
(٤) المائدة ١١٦ (٥) الأنبياء ٩٧
(٦) النساء ٣٩ (٧) الحديد ١٦
(٨) التوبة ٤٣ (٩) انظر الكشاف ٢٢٥
(١٠) يونس ١ (١١) آل عمران ٢٠

أى أسلموا، وقوله : «فهل أنتم منتهون »(١) - أى انتهوا ، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية : « إنتهينا » .

الثانى .. النهى : كقوله عز وجل « ما غرك بربك الكريم »(٢) أى يغرك.

وقوله فى سورة التوبة : أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه » (٣) بدليل قوله تعالى (فلا تخشوا الناس)(٤)

الثالث : التحذير .. كقوله سبحانه (ألم نهلك الأولين) (٥) أى قدرنا عليهم فنقدر عليكم .

الرابع : التنبيه .. وهو من أقسام الأمر ، كقوله تعالى :

« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه »(٦)

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل »(٧)

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » (٨) فالمعنى فى كل ذلك - انظر بفكرك فى هذه الأمور وتنبه .

الخامس : الترغيب .. كقوله تعالى (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا) (٩) وقوله عز شأنه (هل أدلكم على تجارة تنجيكم) (١٠)

السادس : التمنى .. كقوله جل وعلا (فهل لنا من شفعاء) (١١)

وقوله سبحانه (أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها)(١٢)

قال العزيزى - صاحب كتاب البرهان فى مشكلات القرآن - فى تفسيرها .. أى كيف وما أعجب معاينة الإحياء .

---

(١) المائدة ٩١ (٢) الانفطار ٦
(٣) التوبة ١٣ (٤) المائدة ٤٤
(٥) المرسلات ٢٩ (٦) البقرة ٢٥٨
(٧) الفرقان ٤٥ (٨) الفيل ١
(٩) الحديد ١١ (١٠) الصف ١٠
(١١) الأعراف ٥٣ (١٢) البقرة ٢٥٩

السابع : العرض والتحضيض : قالوا : والفرق بينهما - أن الأول طلب فق بر كقوله تعالى « ألا تحبون أن يغفر الله لكم » (١)

وقوله جل شأنه « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم »(٢)

أما الثاني : وهو التحضيض - فطلب بشق ، من مثل قوله عز وجل : (أ إئت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون)(٣)والمعنى: ائتهم وأمرهم بالاتقاء.

الثامن : الدعاء : وهو كالنهى - إلا إنه من الأدنى إلى الأعلى .

كقوله سبحانه (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا)(٤)

وقوله عز شأنه (أتجعل فيها من يفسد فيها)(٥) - وهم لم يستفهموا ، لأن الله قال : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) . قال المفسرون : المعنى (إنك ستجعل) وشبهه أبو عبيدة بقول الرجل لغلامه وهو يضربه (ألست الفاعل كذا).

وقال النحاس : الأولى ما قاله ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما ، ولا مخالف لهما إن الله تعالى لما قال (إنى جاعل فى الأرض خليفة) قالوا : وما ذاك الخليفة يكون له ذرية يفسدون ، ويقتل بعضهم بعضاً ..

وبعد - فإن ما جاء فى القرآن العظيم على وجه الاستفهام لهو آية من آيات العلى القدير أودعها سبحانه جليل كتابه ، ليخاطب بها عقول عباده ، وينشط هممهم ، ويحرك قلوبهم بأرقى ما يكون البيان الإلهى .

---

(١) النور ٢٢
(٢) التوبة ١٣
(٣) الشعراء ١٠ ، ١١
(٤) الأعراف ١٥٥
(٥) البقرة ٣٠

تصويب الخطأ

يؤسفني وقوع بعض الأخطاء أثناء الطبع كما يؤسفني أن بعض النقاط إنكسرت، ولا أشير إليها في هذا البيان إعتماداً على سهولة تبيُّنها. من هذه الأخطاء التي وقعت:

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤	٢ من أسفل	فرفضت	فرضت
١١	١٣	تدبير	تدبر
١٦	٩	تعلمون	تعملون
٣١	٥ من أسفل	منهوج	ومنهج
٤٩	٥	وأدام	وأذام
٥٠	٤	عيده	عبده
٥٥	٢ من أسفل	ريك	ربك
٥٩	١	لا يكفلون	لا يحفلون
٦٤	١	عن	على
٦٨	٨	ناقذة	نافذة
٦٨	٤ من أسفل	حواسـ	حواسه
٧٤	٩	قبل	قيل
٧٦	٤	واسطه	بواسطه
٨٢	٦	يقرح	يقرع
٨٤	٣ من أسفل	وورّدت	وودّدت
٩٥	الأخير	ن نزل	ونزل
٩٦	١	لما	إنما
١٠٠	٤ من أسفل	أحياها	أحيا
١٠٦	٦ من أسفل	أحى	أوحى
١١١	٣ من أسفل	أقولى	أقول

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢٠	٩	لم يقل	لم يتل
١٢٢	١٢	بحكمه	بعينه
١٣٠	٧ من أسفل	لا يؤمنون	لا يوقنون
١٣٣	١٢	ضال	قال
١٣٦	٣ من أسفل	أكثر	أكثره
١٣٩	٨	إلصاتا	إلصاقا
١٤٤	الأول	ومر	ومن
١٤٤	٢ من أسفل	القاص	الخاص
١٤٥	سقط في السطر الرابع ما يلي : (وقد تجد في تماثيل الأولياء والقادة كثيرة تصف بعض هذه الميزات ، أما الآن) نجدها		
١٤٥	٩	منا	منها
١٠٥	١٢	أورع	أروع
١٤٥	٢ من أسفل	طبعة	طبيعة
١٤٦	١١	تتقق	تتفق
١٤٧	٩	إلى	إليّ
١٤٨	٢ من أسفل ، سقطت العبارة : وكثير من الكلام الصادر عنها		
١٤٨	١٢	كيف أتى	كيف وأنى
١٥٠	١٢	أو ذلا	أو ذاك
١٥٣	١٢	القانون	القرآن
١٥٦	١٠	تقص	تقصى
١٥٩	١	تسليه	شبه
١٦٤	الأخير	الإثم	والإثم
١٦٥	٥	أمون	أعون
١٦٥	١٠	صلنا	صلتنا

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٦	١٢	يعضا	بعضا
١٦٧	١٤	زيدآ	زيدآ
١٦٧	الأخير	طائفة	طائفة
١٦٩	٣	الفراصل	الفواصل
١٧١	١٤	كلها ـ وتبح	كلها ـ وقبح
١٧٢	٤ من أسفل	ما أعجب	أعجب
١٧٣	٢ من أسفل	يكون سجعاً	لا يكون سجعاً
١٧٤	١٣	منشرو	منشور
١٧٦	٨	إعجازاً قائماً	إعجاز قائم
١٨٣	٧	مر حوله	من حوله
١٩٠	٥	قوم	قول
١٩٠	٦	أوبعة	أوبعة
١٩٣	٣	مهذب	مذهب
٢٠٠	١٦	القظيم	العظيم
٢٠٩	٥	القظ	اللفظ
٢١١	٣	يستحا	يستحق
٢١١	٥ من أسفل	يتحدرون	يتحدون
٢١٢	٦	ختل	إختل
٢١٤	١	وما كت	وما كنت
٢١٧	٥ من أسفل	التبيت	التثبيت
٢١٩	٣ من أسفل	مثل أنزل الله	ما أنزل الله
٢٢٠	٩	يكون	تكوّن
٢٢١	٢ من أسفل	إقبل	قبل
٢٢٤	٤	رزقا	رزقاً
٢٢٦	٣	ما	لما

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢٧	٣	ليق	ليبق
٢٢٨	١٥	الوعود	الوعد
٢٢٩	٦	الاسقبال	الاستقبال
٢٣٦	٢	المفعقة	المفعمة
٢٣٦	٧	المعنين	المعنيين
٢٣٧	٢	بالتقظة	باليقظة
٢٣٩	٣	جكم / إلا	حكم / ألا
٢٤٧	٤ من أسفل	ولقسم	وإنه لقسم
٢٤٨	٤ من أسفل	صبحاً	ضبحاً
٢٥٤	١	ماو	ما وقع
٢٥٥	٧	أقل ما حرم	أتل ما حرم

مصادر البحث

١ — القرآن الكريم
٢ — السنة النبوية (كتب الصحاح الستة)
٣ — الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى . طبع مصطفى الحلبي سنة ١٩٥١
٤ — إحياء علوم الدين للغزالى طبع مصطفى الحلبي
٥ — أساس البلاغة للزمخشرى . طبع دار الكتب المصرية سنة ١٣٤١
٦ — الإيضاح فى علوم البلاغة الخطيب القزوينى مطبعة السنة المحمدية
٧ — البداية والنهاية لابن كثير مطبعة السعادة سنة ١٣٥١
٨ — بديع القرآن لابن أبى الإصبع تحقيق الدكتور حفنى محمد شرف
طبع النهضة العربية سنة ١٩٥٧
٩ — البديع لابن المعتز تحقيق الدكتور عبد المنعم خفاجى
ط مصطفى الحلبي سنة ١٩٤٥
١٠ — البرهان فى علوم القرآن للزركشى ط عيسى الحلبي سنة ١٣٧٦
١١ — البرهان فى وجوه البيان لاسحق بن ابراهيم بن وهب الكاتب
تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثى
١٢ — البيان والتبيين للجاحظ طبع لجنة التأليف والترجمة ١٣٦٩
١٣ — تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق السيد صقر
طبع عيسى الحلبي سنة ١٣٧٣
١٤ — تاريخ الإسلام للذهبى ط القدسى سنة ١٣٦٧
١٥ — تاريخ الأمم والملوك للطبرى ط المطبعة الحسينية سنة ١٣٢٣
١٦ — تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ط مطبعة السعادة سنة ١٣٢٣
١٧ — التشبيهات لابن أبى عون ط لندن سنة ١٩٥٢ م
١٨ — التصوير الفنى فى القرآن سيد قطب ط دار المعارف سنة ١٩٥٧
١٩ — تفسير الالوسى

٢٠ - تفسير ابن جرير الطبرى ط بولاق سنة ١١٢٩
٢١ - تفسير ابن كثير
٢٢ - تفسير الشوكانى
٢٣ - تفسير القرطبي
٢٤ - تفسير المنار
٢٥ - تلخيص المفتاح الخطيب القزوينى المطبعة الأميرية سنة ١٣١٧
٢٦ - التمهيد للباقلانى ط دار الفكر العربى سنة ١٣٦٦هـ
٢٧ - الحيوان للجاحظ ط مصطفى الحلبى سنة ١٣٦٤
٢٨ - خزانة الأدب لابن حجة الحموى ط الخيرية
٢٩ - خزانة الأدب لعبد القادر البغدادى ط بولاق سنة ١٢٩٩م
٣٠ - الخصائص لابن جنى ط دار الكتب المصرية
٣١ - دلائل الإعجاز للجرجانى مطبعة المنار سنة ١٣٦٧
٣٢ - دلائل النبوة لأبى نعيم الاصفهانى ط حيدر آباد
٣٣ - الرسالة الشافية للجرجانى ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن
٣٤ - سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ط الرحمانية سنة ١٣٥٠ هـ
٣٥ - شرح شواهد المغنى للسيوطى ط البهية ١٣٢٢هـ
٣٦ - شرح نهج البلاغة لابن أبى حديد الحلبى سنة ١٣٢٩ هـ
٣٧ - الصاحبى فى فقه اللغة لابن فارس السلفية سنة ١٣٢٨ هـ
٣٨ - الصناعتين لابن هلال العسكرى طبع نهضة مصر
٣٩ - الطراز يحيى بن حمزة العلوى مطبعة المقتطف مصر سنة ١٩١٤
٤٠ - العمدة لابن رشيق ط المكتبة التجارية سنة ١٣٤٣
٤١ - عصر القرآن الدكتور مهدى البصير ط القاهرة
٤٢ - عيون الأثر لابن سيد الناس مطبعة القدسى ١٣٥٦
٤٣ - عيون الأخبار لابن قتيبة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٣
٤٤ - الفائق فى غريب الحديث الزمخشرى ط عيسى الحلبى سنة ١٣٦٦
٤٥ - فتح البارى لابن حجر مطبعة بولاق

٤٦ - الفهرست لابن النديم المكتبة التجارية سنة ١٣٤٨
٤٧ - الكتاب لسيبويه ط بولاق سنة ١٣١٧
٤٨ - الكشاف للزمخشرى المكتبة التجارية ١٩٥
٤٩ - لسان العرب لابن منظور ط بولاق سنة ١٣٠٨
٥٠ - المؤتلف والمختلف للآمدى مطبعة القدس سنة ١٣٥٤
٥١ - ما اتفق لفظه واختلف معناه فى القرآن الكريم للمبرد
المطبعة السلفية سنة ١٣٥٠
٥٢ - مجاز القرآن لأبى عبيدة تحقيق الدكتور محمد فؤاد سزكين
ط دار الفكر سنة ١٩٧٠
٥٣ - المجازات النبوية للشريف الرضى ط مصطفى الحلبى سنة ١٣٥٦
٥٤ - مجمع الأمثال للميدانى ط القاهرة سنة ١٣٥٢
٥٥ - المدخل لدراسة القرآن الكريم الدكتور محمد محمد أبو شهبه
ط القاهرة سنة ١٩٧٨
٥٦ - مروج الذهب للمسعودى مطبعة السعادة سنة ١٣٦٧ ه
٥٧ - معترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى تحقيق محمد على البجاوى
ط دار الفكر العربى سنة ١٩٧٧
٥٨ - مفتاح العلوم للسكاكى المطبعة الأدبية مصر سنة ١٣١٧
٥٩ - مفردات غريب القرآن للراغب الاصفهانى الميمنية سنة ١٣٢٤ ه
٦٠ - المعارف لابن قتيبة القاهرة سنة ١٣٥٣
٦١ - مقالات الإسلاميين للأشعرى نشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٢
٦٢ - نقد الشعر لقدامة بن جعفر المطبعة المليجية سنة ١٩٣٠
٦٣ - النكت فى إعجاز القرآن للرمانى تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام
طبع دار المعارف سنة ١٩٦٨
٦٤ - نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للرازى طبع الآداب والمؤيد
٦٥ - نهج البلاغة للشريف الرضى طبع الاستقامة

فهرست الموضوعات

رقم الصفحة

مقدمة ١١

الباب الأول : مباحث فى مناهج القرآن

١ — فى التشريع ١١
٢ — فى الأخلاق ١٨
٣ — فى مخاطبة العقل ٢٦
٤ — فى تربية الإنسان ٣١
٥ — فى تربية الروح ٣٩
٦ — فى معاملة النفس الانسانية ٤٦
٧ — فى تقويم الانسان ٥٤
٨ — فى الإيمان بالغيب ٦٠

الباب الثانى : فى مباحث موضوعات القرآن ٧١

١ — الوحى ٧٢
٢ — الليلة المباركة ٨٧
٣ — فواتح السور ١٠٤
٤ — المناسبة بين السور والآيات ١١٨
٥ — الايقاع الصوتى ١٣٠
٦ — الكلمة القرآنية ١٤٠
٧ — القصة القرآنية ١٥٠
٨ — الأمثال القرآنية ١ ٢
٩ — الفواصل القرآنية ١٦٧

رقم الصفحة

١٠ – الصورة القرآنية ١٧٧

الباب الثالث : مباحث فى البلاغة القرآنية

١ – الايجاز ١٨٧
٢ – التكرار ١٩٣
٣ – التجانس ٢٠٥
٤ – ائتلاف اللفظ مع المعنى ٢٠٩
٥ – التكميل والتتميم ٢١٧
٦ – الايضاح بعد الإبهام ٢ ٣
٧ – المطابقة والمقابلة ٢٣٣
٨ – أسلوب القسم ٢٤٢
٩ – أسلوب التوهيم ٢٥٢
١٠ – أسلوب الالتفات ٢٦١
١١ – أسلوب التوكيد ٢٦٩
١٢ – أسلوب المبالغة ٢٧٨
١٣ – أسلوب التعبير الرمزى ٢٨٣
١٤ – أسلوب الاستخبار ٢٩٦

تصويب الخطأ ٣٠٥
مصادر البحث ٣٠٩
فهرس الموضوعات ٣١٢

رقم الإيداع ٣٩٧٤ , ٨٠